تقديـــم

لم تعن أمة من الامم بتراثها كما اعتنت الامة العربية ، وذلك لانه يكشف عن طبيعة عقليتها وتطورها الفكري والحضاري والانساني ، ولان التراث عامل محفز ومعزز للامة للتعبير عن شخصيتها الحضارية أفضل تعبير .

فالامة العربية تنطلق من خلفية حضارية بقيت حية على الرغم من النكسات والتدهور وفترات الجمود ، تفعل فعلها في شد الأمة ودفعها إلى أمام لتجاوز ذاتها ، وحل متناقضاتها ، وبناء مستقبل حضاري متجدد .

والوطن العربي كان وما يزال مهداً دائماً لحضارة أصيلة ميزته في الماضي عن حضارات العالم الاخرى ، بقدرة أبنائه على بعث تراثهم القومي ، وعلى تجاوز النكسات وايجاد صيغ من التوازن المبدع بين تراث الأمة ومعاناتها الحاضرة وبين وجودها ورسالتها وبين نضالها وأهدافها الانسانية .

ان النهضة العربية المعاصرة التي يقودها حزب البعث العربي الاشتراكي تدخل مرحلة الانبعاث القومي الحضاري ، وهو يعطي معنى الرسالة الانسانية لهذه المنظمة في كتابة التاريخ الحقيقي للامة العربية الذي ينبعث اليوم من جديد، ويفرض على الامة العربية مستوى معيناً من الثورة يتمثل في ايقاظ الروح الحضارية والعقل الحضاري والبنية الحضارية بكافة ايجابياتها، وأن يجعل من انبعاث الحضارة العربية أداة لتجديد الروح العربية الانسانية .

فالنضال العربي المعاصر بأفكاره ، وتنظيماته ، وجماهيره يشكل نواة مجمع حضاري جديد ولد من داخل الأمة العربية ، ومن خلال معاركها مع تناقضاتها ومع أعداء نهضتها ، للالتقاء بحركة التاريخ العربي والحضارة العربية الاسلامية لاستئناف مسيرته الحضارية ورسالته التاريخية الخالدة ..

هيئة التحريـر

عمر المختار والحركة السنوسية

الدكتور توفيق سلطان اليوزبكي

إن الحديث عن تاريخ ليبيا وبالذات عن برقة في القرن التاسع عشر وبالتحديد في النصف الثاني من هذا القرن يعني الحديث عن الحركة السنوسية بكل ثقلها وانتشارها في الوسط الجماهيري في مناطق ليبيا والسودان وأواسط أفريقيا وغيرها من الاقاليم العربية الاخرى .

بدأت الحركة السنوسية مع بداية استقرار مؤسسها محمد بن علي السنوسي الذي جاب مناطق واسعة من الوطن العربي حتى استقر أخيراً في ليبيا واستطاع ان يفتح اول زاوية في تاريخ الحركة السنوسية في عام ١٨٤٣ . ومنذ هذا التاريخ وإلى بداية القرن العشرين استطاعت الحركة السنوسية ان توطد كيانها الديني والسياسي في المناطق الداخلية من برقة ، واستطاعت ان تضم اليها معظم سكان اقليم برقة الذين أصبحوا جنوداً أمناء للحركة السنوسية في جانبها الديني وفي اندفاعهم للعمل على نشر الاسلام في مناطق افريقيا الوسطى ، وكان لهم بالتالي دور كبير في حركة التبشير الاسلامي في القرن التاسع عشر .

ان الحركة السنوسية في بداياتها كانت حركة دينية استطاعت ان تقوم بدورها لتنقية الاسلام من البدع التي دخلته نتيجة للجهل المطبق الذي خيم على الشعب العربي الليبي في ظل الهيمنة العثمانية في هذه المنطقة كما في غيرها من الاقاليم العربية التابعة للدولة العثمانية.

وقد استطاعت الحركة السنوسية أن تنقل الشعب العربي في برقة نقلة نوعية عميقة في مجال التفكير والسلوك من خلا ل انتشارها الواسع وقدرتها على بناء العديد من الزوايا التي كانت مراكز اشعاع ديني وثقافي . وكانت مدرسة محمد ابن علي السنوسي اعظم المدارس لمبشري الاسلام في افريقيا (١) .

---

(١) :ستودار : لوثروب ، حاضر العالم الاسلامي ٢٩٨/١ ، وما بعدها ، ٢/٢٩٩ – ٤٠٧ نجد المزيد من التفاصيل عن هذه الحركة . وانظر : منطاي ، قنسان : العرب والعصوص ٧١

وقد مرت الحركة السنوسية في اربعة ادوار تبعاً لقادتها ، فكان الدور الاول للسيد محمد بن علي السنوسي الذي ابتدأ من عام ١٨٤١ - ١٩٥٩ والدور الثاني للسيد المهدي بن محمد بن علي السنوسي والذي انتهى عام ١٩٠٢ ، والدرر الثالث للسيد أحمد الشريف الذي انتهى عام ١٩١٦ بتنازله عن القيادة للسيد ادريس السنوسي (٢) الذي قاد الحركة حتى عام ١٩٢٣ عندما هرب إلى مصر تاركاً ساحة النضال ضد الايطاليين ، والدور الرابع الذي قاد فيه الثائر عمر المختار المقاومة ضد الايطاليين حتى عام ١٩٣١ (٣) .

لقد كانت الحركة السنوسية في بداياتها الاولى عام ١٨٤٠ م وعلى يد مؤسسها محمد بن علي ومن بعده ابنه المهدي ، ذات طابع ديني واضح أساسها العودة بالاسلام إلى ماكان عليه عهد الرسول الكريم وخلفائه الاقربين ولذلك كان القرآن والسنة النبوية الشريفة هما الاصلين الذي يصح الاعتماد عليهما في فهم الاسلام ...) (٤) ومن هنا فان الخط الديني بقي مهيمناً على الحركة السنوسية حتى مطلع القرن العشرين على الرغم من محاولات الكاتبة السوفيتية ز.ب. ياخيمونتش التي حاولت التأكيد على أن الخط الديني كان يبرقع نزعة عربية تحاول الخلاص من الحكم العثماني وتكوين امبراطورية عربية يقف على رأسها مؤسس الحركة السنوسية (٥) حيث ان هذا الرأي يكاد يكون غير واضح في مسيرة الحركة السنوسية في بداياتها التي اعتمدت على تنقية الاسلام ونشره في مناطق أفريقيا الوسطى وتوسيع قواعدها القائمة على الدين بالاساس من خلال الزوايا العديدة التي أنشأتها والتي تركزت في اربعة زوايا تعتبر من اهم القواعد الرئيسية للحركة في كل من الجغبوب والكفرة وجالو واوجا.

وفي الواقع فان السنوسية قد جهزت الليبيين لفكرة الدفاع قبل وصول الايطاليين واصبحت بشكل تدريجي حركة سياسية تهدف إلى تحرير ليبيا

---

(٢) حقي ممدوح ، ليبيا العربية ص٦٥-٦٨ .

(٣) Fola: The Ressistance movement in Libya, V.4

(٤) زيادة نيقولا : برقة ، ص٦٤، محاضرات ص٧٠ - ٧٥

(٥) ياخموفتش : الحرب التركية الايطالية ص٣٧

ويمكن القول ان في معسكر الصحارى ابتدأ التحول الواضح للسنوسية من منظمة دينية إلى سياسية لتوفير الزعامة الضرورية للمقاومة الليبية ضد الاحتلال الايطالي للبلاد (٦) .

ان المهم في هذا البحث القصير ليس الحديث عن الحركة السنوسية بجوانبها المتعددة بقدر ما هو تحديد العلاقة بين هذه الحركة والثائر عمر المختار الذي ولد في ظلها، ويبدو من الصعب اعطاء دراسة وافية شاملة من سيرة حياة عمر المختار في بحث صغير كهذا (في متناول ايدينا) ، وعليه فيجب التركيز على دوره في الحركة السنوسية وفي مقاومة الاحتلال الايطالي لليبيا (٧) .

في هذه الفترة كانت الحركة السنوسية تتمتع بشبه استقلال ذاتي بعد ان أصبحت ذات ثقل سياسي وديني كبير، ارهب الدولة العثمانية ومنعها من ان تقبض بشكل مباشر على الامور في داخل برقة. وعلى هذا الاساس فقد اعترفت الدولة العثمانية بالامر الواقع وتقربت منهم ومنحتهم امتيازات عديدة باعتراف فرماني منذ عام ١٨٥٦ (٨).

ومن الطبيعي ان هذه الحركة شكلت المناخ الديني والسياسي للشعب في برقة وكانت هي القوة الوحيدة المسيطرة في داخل برقة حين التقى بها عمر المختار.

لم يكن اللقاء الاول بين عمر المختار والحركة السنوسية، لقاء عفوياً بفعل هيمنتها على الجو الديني والسياسي للمنطقة، فكان الشعب بمجمله خاضعاً لهذه الحركة منجراً في تيارها.

وحين ولد عمر المختار عام ١٨٦٢ في عهد الحسين المهدي كان لابد له ان يتتلمذ على الحركة السنوسية ومن ثم ان يصبح من اتباعها المخلصين وقادتها الميامين بعد احتضانها له.

---

(٦) Folay, Kola : The Resistance Movement in Libya.p.47.

(٧) زيادة . برقة ص٣٧ .

(٨) Folay, Kola: The Resistance Movement in Libya. p. 47

نشأ عمر المختار في البادية، فاحاطته الروح العربية الاصيلة بكل ما حملته من مظاهر الفروسية ودواعي الاعتزاز بالنفس وحب التضحية والأنفة من الخضوع (٩) فهذا الجو يصعد من الاعتزاز بالفردية وضخامتها عند البدوي وبالتالي يصبح صعب الانقياد للغير، وبالذات للعنصر الاجنبي الذي يقف أمام حريته، فهذه المظاهر الفردية لم تظهر بشكل جلي الا بعد سنين طويلة. عندما كان الصدام مع الايطاليين.

وكالعادة التي كانت سائدة آنذاك كان السكان يرسلون اطفالهم لتلقي العلوم الدينية والثقافية الاخرى على يد مشايخ السنوسية في الزوايا التـــي ابتنوهـــا.

فعندما بلغ عمر المختار ثماني سنوات كان له اللقاء الاول مع الحركة السنوسية لقاء التبعية العفوية والاخلاص بكل ابعاده لهذه الحركة. فقد بعث به والده إلى زاوية جانزور وهي احدى زوايا السنوسية بالجغبوب ليدرس القرآن وبعض العلوم الدينية. فظهرت عليه دلائل النجابة ورزانة العقل مما لفت اليه نظر السيد المهدي فصار موضع اهتمام، كما احترمه رؤساء قبائل العرب لعراقة بيته فيهم ولمكانته عند السنوسية (١٠) وقد مكث في الجغبوب ثماني سنوات في تلقي العلوم الدينية واللغوية والتاريـــخ ايضا كما بانت عليه في هذه الفترة دلائل الشدة والصرامة فكان كلامه قويا كأنه آمر يلقي اوامره لتابعيه (١١) هذه الصفات القيادية اهلته لان يحظي بنظرة مرموقة من القادة السنوسين وبالتالي لان يكون واحداً من اتباعهم المقربين. وفضلا عن الدراسات النظرية الي تلقاها في الجغبوب، فقد مارس اموراً عملية في النجارة والحدادة، كما تلقى تدريباً عسكريا، وقد ذكر بأنه كان لديه ولع في فن الفروسية (١٢) .

---

(٩) محمود ، احمد ، عمر المختار ص٥.
(١٠) محمود ، أحمد ، عمر المختار ص ٥ .
(١١) غراسياني ، رودلفو : برقة المهادئة ص٢٦٨.
(١٢) Folayan: Umar Al-Mukhtar of Libya p.55

وعلى هذا، فان البدايات الاولى لعلاقة عمر المختار بالحركة السنوسية كانت تخضع لاطار التبعية الكاملة، مع احترام واضح لبوادر ظهور شخصيته القيادية المؤثرة، مما حدى بالسنوسيين إلى الاعتماد عليه في ادارة اهم زواياهم المعروفة بزواية القصور التي كانت مركز قبيلة العبيد المعروفة بعنادها وعدم خضوعها. ولقد ادى المختار خلال فترة ادارته للزاوية كشيخ لها بكل شجاعة خلال سنتين من تعيينه كحفظ الامن والتحكم في النزاعات الداخلية، اضافة إلى تنظيم عملية جباية الضرائب وارسال ما تبقى منها إلى المقر العام للسنوسية في الكفرة (١٣) فانقاد السكان له طواعية لعلو همته وقوة شخصيته، فكان له وقع كبير عند القائد السنوسي الذي اختاره على هذا الاساس لمصاحبته إلى السودان، حيث كان الامتداد السنوسي قد ترك بصماته الواضحة في تلك المناطق، وفي نفس الوقت كان الامتداد الفرنسي يسير بخطى حثيثة لايجاد مواطىء قدم لهم في نفس المنطقة من افريقيا الوسطى جنوب الصحراء.

ففي عام ١٨٩٤ اصطحبه السيد المهدي إلى السودان وكلفه بامر نشر الاسلام والدفاع عن الوجود السنوسي ومكافحة التغلغل الفرنسي (١٤) في وادي (سلطنة اسلامية في افريقيا الوسطى) حيث جرت هناك صدامات عنيفة اثبت السنوسيون خلالـــهـــا جدارة، حيث لم يـــســتـــطـــع الفرنسيون احتلال المنطقة بشكل كامل حتى عام ١٩١١. اما عمر المختار فقد رجع بأمر من السنوسية في عام ١٩٠٦ إلى زاويته (القصور) في الوقت الذي بدأ النفوذ الايطالي يأخذ طريقة بشكل اعمق بالتغلغل الاقتصادي ، حيث قام المختار مع القيادات السنوسية الاخرى بتعبئة البلاد لمواجهة التحدي (١٥) الايطالي الذي بدأ بابتياع اراضي الليبيين بالترغيب ، او بالسيطرة كنتيجة

(١٣) locit: Kola p. 55

(١٤) محمود : عمر المختار . ص ٨ ، زيادة : محاضرات ص ١٠٣ .

(١٥) Folayan : Umar.. p.57

لعجزهم عن وفاء القروض ذات الفائدة العالية التي لم يستطع الليبيون دفعها فوقعوا تحت طائلة الهيمنة الايطالية على اراضيهم .

وكان الاستعمار الايطالي لليبيا قد بدأ سيطرته اواخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بشكل ما يسمى (التغلغل السلمي) وقد تضمنت فعاليات اقتصادية واجتماعية كفتح بنك روما في طرابلس عام ١٩٠٧ . وامتدت فروع هذا البنك إلى بنغازي واثني عشر مدينة اخرى بين عامي ١٩٠٨ـ ١٩١١م ، وكانت محاولة الاستعمار الايطالي السيطرة بشكل تدريجي على صادرات ليبيا من الصوف والحبوب والحلف وريش النعام ، وكذلك محاولاتهم للتنقيب عن المعادن في طرابلس ، وبعد ذلك قرر الايطاليون العمل على جعل ليبيا تحت سيطرته بالقوة بعد ان تخلت الدولة العثمانية عن نفوذها في ليبيا بموجب معاهدة اوشي عام ١٩١٢ (١٦) .

حتى اذا ما اعلنت ايطاليا غزوها للبلاد عام ١٩١١ كان المختار من اوائل الذين تصدوا لها. لقد كانت علاقة المختار بالقادة السنوسيين حتى هذه العهد تخضع لاطار التبعية الكاملةمع وضوح مبدئه في الكفاح ضد الايطاليين . حتى اذا ما بدأت بوادر المقاومة من قبل القيادة السنوسية كان وضوح غير المساوم قد بدأ يتعمق شيئا فشيئا .

وعلى هذا ففي أعوام الحرب ١٩١١ ـ ١٩١٦ قد المختار قواته لصد الهجمات الايطالية تحت امرة أحمد الشريف، وقد ضعفت حركة المقاومة في البلاد بعد تخلي العثمانيين عنهم في معاهدة اوشيء عام ١٩١٢ حيث وقع عبء الدفاع عن البلاد على كاهل السكان العرب بعد رحيل ما تبقى من العثمانيين في عام ١٩١٣ حيث كان يقودهم عزيز علي المصري . وعلى هذا فقد فكر العرب بعد رحيلهم إلى اللجوء إلى حرب العصابات(١٧) حيث كانت اسلم الطرق لمجابهة القوات الايطالية المنظمة وباقل الخسائر ودون الاعتماد

---

(١٦) Folayan Kola : The Resistance movement in Libya, p.46

(١٧) زيادة : برقة ص ٨٥.

على المواجهة المباشرة الي قد تهدد وجودهم القائم على عدد قليل من القوات المجاهدة مقارنة مع نسبة القوات الايطالية الضخمة وقد برز عمر المختار ثائراً لايقهر في حرب العصابات (١٨) فقد وصفه الايطاليون (عدونا الذي لايستهان به) .

ومع بداية الحرب العالمية الاولى ظهر اتجاهان في طبيعة المقاومة،الاتجاه الاول يمثله السيد أحمد الشريف المتعاطف مع العثمانيين والاتجاه الثاني يمثله ادريس السنوسي الذي كان اكثر ميلا للتعاون مع الانكليز . وعلى هذا فان هذين الاتجاهين لم يستطيعا أن يؤثرا على موقف عمر المختار الذي بقي حتى الفترة يعتبر الايطاليين العدو الذي يجب ازاحته من البلاد والاعتماد على الامكانيات العربية سواء الداخلية أو الخارجية من مصر. وبدأت بوادر الاتجاه الاستقلالي له عن القيادة السنوسية رغم عمله تحت لوائهم في نهاية عام ١٩١٦ عندما بدأ ادريس السنوسي بعد رحيل أحمد الشريف إلى استانبول في الدخول مع الايطاليين وبتأثير من الانكليز والوصول إلى اتفاق عسكري في عام ١٩١٧.

وقد سبق ذلك ان تعاون السنوسيون مع العثمانيين في بداية الحرب العالمية الأولى — فوضعت خطة المانية لمهاجمة الانكليز في مصر من قبل القوات العثمانية من جهة الشرق والقوات السنوسية من جهة الغرب — ولكن القوات الانكليزية دمرت القوات العثمانية ثم وجهت ضربتها إلى القوات السنوسية فصدتها بعد ان اوقعت بها ، عند ذاك اضطر السنوسيون إلى عقد اتفاق مع الانكليز ثم مع الايطاليين .

وحتى هذه الفترة كان المختار قد لعب دوراً كبيراً في قيادة المقاومة والوقوف بوجه الايطاليين فكانت معنوياته عالية، مما أدى به إلى الوقوف ضد هذه المعاهدة التي تكرس الوجود الايطالي والسيطرة في المناطق الخاضعة لهم . وتشبث رأيه بان الايطاليين الذين تزعزت معنوياتهم نتيجة الضربات المتلاحقة

---

(١٨) Kola: The Resistance movement in Libya V.4.p.54

(سرعان مايجبرون على ترك مخططاتهم الامبريالية بشأن ليبيا) ولذلك رفض فكرة الاتفاقيات او المصالحة (١٩). ويبدو ان هذا الموقف الوطني المتصلب يستند على أن حركة المقاومة استطاعت حتى هذه الفترة ابقاء الايطاليين في اماكنهم في الساحل رغم ضخامة امكانياتهم القتالية وتطورها مقارنة مع الامكانيات القتالية التي تمتلكها حركة المقاومة الليبية . مما يؤكد قدرة الحركة السنوسية على مقاومتهم . ولهذا كان الاتجاه الذي سلكه الثائر عمر المختار طيلة سنوات ما سمي بـ (العمل الدبلوماسي) التي ابتدأت منذ عام ١٩١٧ باتفاق عكرمه ومرورا باتفاق الرجمة عام ١٩٢٠ وحتى عام ١٩٢٢ يطبع موقف المختار بطابع المعارض للاتجاه السنوسي رغم عمله تحت قيادتهم ، فهو بهذا استطاع ان يثبت موقفا مشرفا للوطن وللتاريخ عندما اكد منذ البداية وحتى النهاية عدم المساومة على حساب المصلحة الوطنية والتأكيد على ان الكفاح المسلح هو طريق النصر

وعلى هذا ، فقد ظهر الموقف المتصلب لعمر المختار في اجتماع اجدابية عام ١٩١٩ الذي تقرر فيه اخلاء البلاد التام من القوات الايطالية التي كرست معاهدة عكرمة وجودها ، وعلى هذا فقد صدر قرار اجتماع اجدابية الذي حضره المختار بصفته قائد مجموعة وأكد على ضرورة معاملة الايطاليين كتجار فقط وضمن المدن الساحلية دون السماح لهم بممارسة نشاط عسكري او سياسي (٢٠) كما ظهرت علاقته السلبية بالقيادة السنوسية حينما عقدت معاهدة الرجمة التي منحت الاتفاقية للسيد ادريس السنوسي لقب أمير واعترفت بامارته التي تكون من واحات جغبوب / اوجلو / جالو / كفرة / اضافة إلى اجدابية كعاصمة له ، واعطى للامير المركز الثاني في المناسبات الرسمية. كما اعطي له حق رفع علمه ودفع راتب للامير وتحمل ايطاليا نفقات الجهاز الاداري الذي يضم شيوخ الزوايا ورؤساء القوات غير النظامية والكتاب

---

(١٩) Folayan : Umar..p59.

(٢٠) Ibid.p. 60

وفرض فيها الايطاليون رأيهم بضرورة تسريح المعسكرات السنوسية فترة ثمانية اشهر (٢١) حيث عارض المختار هذا العمل الذي يبعثر القوات المجاهدة بعد ان جمعتها ظروف النضال . كما يؤدي إلى تفتيت الروح التضامنية العالية التي جمعتهم فيها محنة الغزو الايطالي . ويبدو ان المختار كان محقاً في هذه المعارضة وذلك يؤكد بعد نظره في معالجة الامور التي افتقدتها القيادة السنوسية ، حيث يبدو أن تسريح القوات السنوسية نزولا عند رغبة الايطاليين معناه تمكين الطليان بأقصر وقت من فرض نفوذها السياسي وهيمنتهم العسكرية على البلاد . وجاء اتفاق بومريم الذي الحق باتفاق الرجمة ليؤكد مساومة القيادة السنوسية المتمثلة بادريس حيث توصل الطرفان إلى ايجاد صيغة المعسكرات المختلطة باشراف ثنائي . وحيث ان المختار لم يستطع فرض موقفه هذا الا أنه من جهة أخرى استغل هذه المعسكرات المختلطة لنشر الدعاية المناهضة للايطاليين ليؤكد ان للرفض الذي انتهجه طرقاً مختلفة في التعبير .

وعلى هذا فقد وجد الايطاليون انفسهم في موقع يستحيل معه تطبيق او ايجاد اى نفوذ على العرب في الداخل وعليه فقد وجدوا خلال فترة العمل الدبلوماسي — من عمر المختار كعائق عنيد في طريق محاولتهم لخلق نفوذ سياسي في ليبيا وبصورة خاصة في برقة (٢٢) وعليه فقد بدأت مرحلة العمل الدبلوماسي بالتلاشي في عام ١٩٢٢ مع بداية صعود الفاشية في ايطاليا التي حملت في تطلعاتها الفاشية بعداً علوانياً اكثر حدة من السابق ، وفي نفس الوقت تخلى ادريس السنوسي عن ساحة النضال وذهب الى مصر ليكون المختار بعده النائب العام ولتبدأ مرحلة من الكفاح الشعبي حيث ابتدأت حرب لاهوادة فيها .

كان صعود الفاشية في ايطاليا عام ١٩٢٢ بداية مرحلة جديدة في تاريخ العلاقات الايطالية مع حركة المقاومة الليبية . ففي هذا العام نقضت ايطاليا

---

(٢١) Ibid. p. 60

(٢٢) locit : Kola p. 58

ماكان متفق عليه من بنود في تحديد سيطرة كل من الفريقين تجاه المناطق الخاضعة لنفوذ كل منهما بموجب الاتفاقيات الانفة الذكر . واعلنت ايطاليا هجمه شرسة ضد حركة المقاومة لتفرض سيطرتها على كافة البلاد وباستعمال مختلف وسائل القمع والارهاب . حيث صعدت الروح الفاشية الاستعمارية بشكل كبير على اثر تسلم الفاشست للسلطة في ايطاليا . فكانت النهاية لمرحلة ماتسمى« بالعمل الدبلوماسي» وبداية المرحلة الملحمية بين سنة ١٩٢٣ — ١٩٣١ كما دعيت جيش استشرست القوات الايطالية في هجومها على البلاد في نفس الوقت ثبتت المقاومة لفترة ليست بالقصيرة واثبتت جدارة في الدفاع عن الوطن والشعب (٢٣) .

كان هروب ادريس الى مصر تحت ستار العلاج والاستشفاء بداية للدور الثائر عمر المختار بشكل فعلي حيث اصبح في هذه الفترة النائب العام لادريس ولكنه بالفعل كان قائد الحركة وقلب الثورة النابض حيث ارتبطت كافة شؤون الحركة به وبدأ نجمه يطغى حتى على القيادات السنوسية المتبقية .

لقد ابتدأت هذه المرحلة بنقض المعاهدات التي وقعت بين الطرفين وتبنت ايطاليا بعدها سياسة القبضة الحديدية . فاعلنت الاحكام العرفية وحلت المعسكرات المختلطة التي تبناها ادريس في معاهدة الرجمة . في مراوة وسلفطة والمخيلي والابيار وتكنس وعكرمه ، وباشرت حملات الابادة الجماعية ضد الاهالي بادئة باجدابيا مقر الحركة السنوسية حيث هاجمتها في ٨ مايس/ ١٩٢٣ وسحقت من وجدته فيها ثم انكفأت على المدن الساحلية الاخرى درنة وطبرق وبنغازي واعملت بأهلها قتلا وتشريدا ومنذ هذا الوقت بدأ الثائر عمر المختار اعماله بالتعبئة الوطنية الشاملة ، فعقد اجتماعات مطولة مع قبائل اولاد السعادى والجبارنة ، والحرابي تدارس معهم خلالها الاوضاع الجديدة الناشئة عن شراسة الهجمة الايطالية وتخلي القيادة السنوسية واستقرارهم في النهاية على

---

(٢٣) Kola part I p. 61

ضرورة مواصلة القتال واعتماد ستراتيجية حرب العصابات (٢٤) فكان هذا الموقف بداية التحول في اسلوب الكفاح عند المقاومة بعد ان فرض ادريس اسلوب العمل الدبلوماسي في اخذ حقوق الوطن والذي اثبت فشله ، فكان الصمود والمقاومة هو الطريق الذي عبر عن موقف الثائر عمر المختار والمعارض للخط الذي انتهجه ادريس والقيادة السنوسية المتبقية في البلاد فيما بعد.

ولا بد من الاشارة الى أن الثائر عمر المختار قد أبقى وشائج الاحترام للقيادة السنوسية المتمثلة بادريس على اعتبار انه لازال يمثل النائب العام . فكان ابقاء هذه الوشائج وبما يتأتى من بعد نظر الثائر المختار بضرورة عدم قطع العلاقات مع أدريس السنوسي وهو في مصر لكي يؤمن الامداد الخارجي للحركة بما تحتاجه من مؤمن وسلاح وخاصة ان الامدادات الخارجية شكلت حجماً ودعماً كبيرين لمواصلة الحركة لكفاحها ولكن هذا المسلك في علاقة الثائر المختار بادريس لم يدم طويلا فقد حدده اللقاء الذي تم في مصر بين عمر المختار وادريس في عام ١٩٢٣ بعد رحيله اليه لكي يثبت موقفه تجاه الطليان وهل هو معتزم العودة أم لا .

وهنا لابد من القول أن طريق الخيانة طريق واحد وأن العدول عنه في بعض الاحيان ربما لمصالح خاصة أو تكتيكات مرحلية ، لكن حتى هذه التكتيكات المرحلية لم يجدها المختار في موقف ادريس السنوسي بل وجد ايغالا في الانهزامية والابتعاد عن ابسط الامور التي تعكس التصاق المواطن بوطنه . فقد دعاه ادريس إلى التخلي عن الكفاح والاستقرار والراحة بعيداً عن تبعات الحرب ، فما كان من عمر المختار الذي ثبت حتى إلى النهاية واعتصم في الجبل الاخضر ليكون قاعدته حتى نهاية الحركة عندما قال له (لن ابرح الجبل الاخضر مدة حياتي ولن يستريح الطليان فيه حتى يواروا لحيتي التراب)

---

(٢٤) صالحية ، محمد :الادوار في حركة الجهاد الليبي . مجلة الاداب والتربية . جامعة الكويت ص١ - ١٥٢ . العدد ١٣/١٩٧٨ .

فكانت البداية في انتهاج المختار لطريقة بعيداً عن التبعية لادريس السنوسي في كيفية التعامل مع الايطاليين .

وايضاً لابد من الاشارة إلى أن أدريس السنوسي قد ترك اثره عند القيادات السنوسية الاخرى كأخيه محمد الرضا في جالو وابنه الحسن الرضا عند صفي الدين السنوسي في الجغبوب وهلال السنوسي ايضاً فكان لهؤلاء دوراً في شرخ حركة المقاومة لفترة واضعافها ومحاولة التأثير على كفاح الثائر المختار .

وعلى هذا فعند رجوع المختار من مصر كانت القوات الايطالية قد غزت جالو إلا أن المقاومة تصدت لها واستطاعت ان تحقق نصراً عليها ، إلا أن المختار سخط على السنوسي محمد الرضا لابدائه نوعاً من المسالمة والاستسلامية لاراء نفر ممن حوله لم يكن يهمهم إلا مصلحتهم الشخصية مما يوحي ان (٢٥) الموقف المساوم والمتميع الذي انتهجه ادريس لازالت اثاره عند القيادات السنوسية الاخرى ، لكن المختار سار الى جبله الذي صمد في وجه الطليان حتى نهاية الحركة وكأنه بهذا أراد أن يثبت موقفه الثابت في انتهاج اسلوب الكفاح المسلح بعيداً عن كل مساومة .

وعلى هذا الاساس فيبقى امران جريان بالذكر ، وهما ان المختار اقتصادياً لم يقطع علاقته مع ادريس وبقية السنوسية المسيطرين على البلاد والذين كانت الزكاة تجبى باسمهم ، لكنه سياسياً وعسكرياً كان قد انفصل عن السنوسيين منذ هذه الفترة بل وقف في وجههم وادانهم وهو الذي عرف باحترامه لهم .

وابتدأت حركة الثائر عمر المختار يساندها الشعب بكل فئاته في الجبل الاخضر وفي بقية المناطق الاخرى حيث تواصل القتال مع الايطاليين . وكان التوفيق يصحبها في كل تطوراتها مما شجع المقاومة وقوى نفوسهم ، فما شعر الطليان إلا وأنهم أمام قوة ضاربة هددت حصونهم الخلفية وغزت معاقلهم (٢٦) فكانت هذه الفترة بحق فترة المجاهد الكبير عمر المختار الذي

---

(٢٥) محمود : عمر المختار ص٣٤ .

(٢٦) محمود : عمر المختار ص ٣٩

لايقهر والذي طغت بطولته الفردية الفذة على تلك الفترة (٢٧) حتى استطاعت ان تجعل للقيادات السنوسية المتبقية مكاناً في الظل بعد ان كان المختار حتى هذه الفترة يقع تحت سيطرتهم .

كان لصمود المقاومة اثرها الكبير في تغيير ستراتيجية الايطاليين في مجابهة حركة المقاومة في البلاد فعلى هذا ارادوا ضرب الحركة من الخلف حيث عملوا على ضرب المواقع الخلفية لحركة الخلفية لحركة المقاومة والتي شكلت خطوط دفاع في العمق طوال فترة المقاومة فكانت الجغبوب التي كان عليها صفي الدين السنوسي موضع اهتمام الايطاليين .

لقد سقطت الجغبوب عام ١٩٢٦ التي كانت تمتلك امكانيات قتالية ضخمة . سقطت بدون مقاومة بأن سلمها صفي الدين السنوسي بايعاز من ادريس إلى القوات الايطالية (٢٨) في نفس الوقت حاول المختار ان ينقذ الجغبوب من هذا العمل الخياني الذي ارتكبه صفي الدين نائب ادريس عليها .وبمساعدة هلال السنوسي الذي كان دليل القوات الايطالية عبر الصحراء . فكان هلال السنوسي (أبو رغال) الثاني على درب الخيانة في هذا الجانب . لكن المختار لم يستطع ان يفك طوق الحصار الذي فرضه الايطاليون عليه ويؤكد هذا غرازياني (٢٩) ويعترف بأن المختار حاول الخروج من اطار الحصار الذي فرضوه عليه لكي ينقذ الجغبوب لكنه لم يفلح .

وعلى هذا فيمكن القول أنه في داخل حركة المقاومة كان هناك اتجاهين ، الاتجاه الاستسلامي والاتجاه المكافح . فقد مثل الاتجاه الاول ادريس وبقيت ذيول هذا الاتجاه متمثلة فيما تبقى من قيادات سنوسية في البلاد بينما مثل اتجاه الكفاح المسلح الثائر عمر المختار .

---

(٢٧) العقاد ، صلاح : ليبيا المعاصرة. ص٤٢ (Folayan, The Resistance, p. 54)

(٢٨) محمود ص٤٨ – ٥٠

وجاء الان دور الرضا السنوسي ليكشف عن موقفه الخياني فقد جاءه المختار إلى جالو (يشكو اليه حال المجاهدين في الجبل ويرجوه ان يعطيهم شيئا من المال الذي كان يجبيه باسمهم) فابى فالح عليه لكن عبثا ذهبت توسلاته ، رجاه، ان يشتري للمقاومة بعض جلود الابل ليستعملوها نعالا يتقون به حفا الجبل الاخضر ، فكان (كنافخ في رماد) (٣٠) امام هذا الاصرار من قبل الرضا. لكنه مع هذا بقى صامدا على موقفة الذي لم يتزعزع في انتهاج خط الكفاح ، فكانت مواقف الرضا بداية الارهاصات على درب الخيانة الوطنية، حيث استطاعت ايطاليا بعد ذلك استمالته وقدم لهم خدمات جليلة ضرب من خلالها مثلا في الخيانة ، في نفس الوقت استمر الثائر عمر المختار في خطه المخالف للقيادة السنوسية ولم يتأثر موقف الحركة بعد سقوط الجغبوب وجالو واوجلو في انتهاج الكفاح والمقاومة حتى الموت وبقي المختار حتى هذه الفترة (من الرموز التي لم يهتدوا الى اصلها حتى كانت سنة ١٩٢٨ حيث بدأ عهد المصالحة الفاشل بين حركة المقاومة والقوات الايطالية الغازية حيث استبانت من خلال مفاوضات المختار مع القواد الايطاليين عن شخصية مستقلة في اتخاذ القرارات مما يوحي بانتهاء اي تبعية للقادة السنوسيين ، في نفس الوقت الذي بدأ به الحسن ابن الرضا طريق الخيانة على درب ابيه وعمه ادريس وعودة الرضا لممارسة دوره الخياني باجلى مظاهره .

هدنة قصيرة الأجل :

في عام ١٩٢٨ دخلت العلاقات بين حركة المقاومة وقوات الاحتلال الايطالي تأخذ طابعا اخر . فقد تبين للايطاليين ان العنف والقوة في اخضاع الشعب العربي الليبي لم يجديا نفعا امام اصرارهم على الكفاح من أجل الحرية والاستقلال . في نفس الوقت كان مسلسل التطويق الذي فرضه الايطاليون باسقاطهم المراكز الخلفية لحركة المقاومة المتمثلة في الجغبوب وجالو واوجلو قد اضعف المقاومة نوعا وعلى هذا فقد ساد الحوار الدبلوماسي بين حركة المقاومة بقيادة الثائر عمر المختار وقيادة القوات الايطالية وعلى رأسها المارشال

---

(٣٠) محمود ، ص٥٨-٥٩

بادوليو ، وحلت هدنة قصيرة الاجل اتضح من خلالها النهج الاستقلالي في شخصية عمر المختار بعيدا عن أية تبعية لنفوذ القيادة السنوسية لابل ان ما تبقى من السنوسيين انضموا تحت لوائه وقد اتضح من خلال الحوار الذي دار بين عمر المختار وبادوليوا ان الايطاليين تعاملوا مع المختار على أنه قائد حركة المقاومة ومن دون الاشارة الى ادريس السنوسي مما يؤكد ان المختار في هذه الفترة اصبح الرجل الوحيد الذي يقف على راس حركة المقاومة .

وقد استمرت المفاوضات بين الجانبين عرض كل منها شروطه من دون التنازل عن أي شيء منها ، وعلى هذا فقد فشلت المفاوضات لانه من الصعب تحقيق الشروط بين مستعمَرين ومستعمِر .

وبعد ما يقارب من سبعة شهور اعلن عن فشل المفاوضات واتجاه العدو الايطالي لى الرجوع إلى سياسة القمع والقسوة لاخضاع الشعب . في نفس الوقت اصدر الثائر عمر المختار بيانا مطولا أكد من خلاله استقلاليته الكاملة عن النفوذ السنوسي وقال (وليشهد العالم اجمع ان نوايانا نحو الحكومة الايطالية شريفة وما مقاصدنا الا الحرية والاستقلال . اما مقاصد ايطاليا واغراضها فترمي إلى القضاء على كل حركة قومية تدعو إلى انهاض الشعب العربي الليبي وهيهات ان يصلوا إلى مايريدونه ما دامت لنا قلوب تعرف انه في سبيل الحرية يجب بذل كل مرتخص وغال . وها نحن ندافع عن كياننا ونبذل دماءنا الزكية فداء للوطن . (٣١)

مما يؤكد ان اسلوب الكفاح المسلح في اخذ الحقوق الوطنية للشعب هو الاسلوب الوحيد الذي سار عليه المختار منذ بداياته رغم مسلسل التطويق الذي احكمه عليه الطليان ، وهو بهذا يقف في الصف المعارض للاتجاه السنوسي الذي ابتدأ بخط المساومة تحت غطاء العمل الدبلوماسي في اخذ الحقوق الوطنية .

---

(٣١) سعيد ، ثورات العرب ، ص١٦٢ ، محمود : عمر المختار .. ص٩٣

ومع أن ادريس السنوسي قد رحل إلى مصر –كما قلنا– الا ان بقايا السنوسية كقيادة تمثلت في محمد الرضا وابنه الحسن لازالت تلعب دورها المساوم على حساب المصالح الوطنية .

ففي هذه الفترة ارجع الطليان محمد الرضا بعد ان نفوه إلى روما وحققوا اغراضهم منه . ارجعوه الان لكي يمارس دوره الخياني الذي ابتدأه والذي سبقه ادريس في هذا المجال . وقد اكد غرازياني بان ارجاع الرضا كان لاغراض يخدم بها السياسة الايطالية وهي (ان يستغل في نشر البيانات ويتمكن من التأثير على الثوار – المقاومة –) (٣٢) في الوقت الذي كانت حركة المقاومة قد استعدت لتصعيد كفاحها ضد الطليان والتعبير عن استخدام اسلوب الكفاح المسلح كطريق وحيد لاخذ الحقوق الوطنية ، حتى ان الشعب الليبي في عام ١٩٢٩ قد اصبح جميعه من حملة السلاح نتيجة الموقف المتصلب الذي وقفته حركة المقاومة بقيادة المختار .

واضافة إلى دور محمد الرضا الخياني فقد جاء ابنه الحسن ليكمل دور أبيه على هذا الطريق فوجه نداء عام ١٩٣٠ إلى الشعب بلغ فيه درجة من الخيانة لا توصف. بينما يصف غرازياني الذي عرف بكونه سفاح ليبيا، نقول بينما يصفه (بالعزيز) و (رحيم عادل) ويصف الحكومة الايطالية (بكل فضيلة) وانهم – اي الشعب – (سيجدون لديها الخير والرحمة) يسمى حركة المقاومة بالعصيان حينما يقول (لهذا ادعوكم الى ترك العصيان) فكانت دعوة صريحة إلى الانشقاق عن الثائر عمر المختار وعلى هذا فان المقاومة الليبية عانت حتى في سنتها الاخيرة من ازمة هذا التيار المساوم الذي تمثل بما تبقى من قيادة العائلة السنوسية لكن مع هذا كان الشعب باجمعه مسانداً للتيار الثوري المعبر الحقيقي عن طموحاته والذي مثله الثائر الكبير عمر المختار وقد استمرت حركة المقاومة في عنفها دفاعاً عن الوجود والوطن، في نفس الوقت، استمرت علاقة عمر المختار بشكلها السلبي تجاه العائلة السنوسية وعلى هذا، فان الاتجاه المكافح الذي مثله

---

(٣٢) غرازياني : برقة الهادئة ص ٤٦ – ٤٨.

المختار كان الشكل النهائي لحركة المقاومة في وقت انحسر نفوذ التيار السنوسي المساوم وعلى هذا فقد التف الشعب وراء المختار وساندوه بكل قواهم رغم مسلسل التطويق والتهجير الذي مارسه الايطاليون مع المجموعات البشرية التي كانت تمد المختار في الجبل الاخضر بالعدة والعدد والمؤن والتي بلغت ما يقارب ٨٠ الف نسمة و ٦٠٠ الف راس ماشية، وقد اثار ثبات الشعب الرهبة في قلوب الطليان وعلى هذا فنجد غرازياني بعد ان انهكه الخطر او التيار المقاوم الذي مثله المختار يقول (إلى متى هذا الشعب لا يلين ولا يقبل الحلول) واخيراً فان علاقة المختار بالحركة السنوسية رغم كونه واحداً من اتباعها واكبر قادتها الا انه امتلك خصوصية العمل تجاه الاستعمار الايطالي بعيداً عن المواقف المساومة والتي اقتربت من خط الخيانة الذي مثلته القيادات السنوسية، وهذا الشكل الاستقلالي البعيد عن اي تبعية للقيادة السنوسية هو الشكل الذي طبع علاقة المختار في تعامله مع الايطاليين رغم اخفاقه في النهاية على اثر التضييق الكبير الذي احكمه عليه الايطاليون بعد سقوط الكفرة ١٩٣٠ وانشاء خط الاسلاك الشائكة، الا انه لم يستسلم بل استأسد في الدفاع ليثبت للتاريخ اسلوبه الكفاحي حتى النهاية ويعكس لنا صورة للقيادة السنوسية التي سقطت في وحدة الخيانة وعبرت عن مصالحها وانانيتها الضيقة بعيداً عن مصلحة الشعب وحقوقه الوطنية والقومية. وحتى اللحظات الاخيرة لحياة المناضل عمر المختار كانت تعبيراً عن هذا النهج غير المستسلم حيث لم يكن موته نهاية طبيعية لحياته بل سقط اسيراً في احدى جولاته مع الطليان وشنق علناً في قرية سلوق في ١٦ ايلول ١٩٣١، وهذه النهاية المأسوية توضح نهاية حركة المقاومة وبداية الاحتلال الايطالي لكل البلاد.

المصـــادر :

١ — الطاهر أحمد محمود الزاوي
(عمر المختار) (الحلقة الاخيرة في الجهاد الوطني في طرابلس الغرب)
مطبعة عيسى البابي الحلبي مصر ١٩٣٣ .

٢ — نقولا زيادة :
(برقة الدولة العربية الثامنة)
دار العلم للملايين بيروت ١٩٥٠

٣ — صلاح العقاد :
(ليبيا المعاصرة)
معهد البحوث والدراسات العربية / القاهرة ١٩٧٠

٤ — محمد صالحية :
(الادوار في حركة الجهاد الليبي) (دور الجبل الاخضر) مجلة كلية الاداب والتربية جامعة الكويت . العدد ١٣ / ١٩٧٨ .

٥ — ف . ياخيمونتش :
(الحرب التركية الايطالية) ١٩١١ — ١٩١٢ ترجمة هاشم صالح التكريتي بنغازي — الجامعة الليبية ١٩٧٠

٦ — رودلفو غرازياني :
(برقة الهادئة) ترجمة ابراهيم سالم بن عامر
بنغازي / دار مكتبة الاندلس ١٩٧٤

٧ — لوثروب ستردار :
(حاضر العالم الاسلامي) ترجمة عجاج توبهض
دار الفكر / بيروت ١٩٧١

٨ ـ فنسان حنطاى :
(العرب والعصر)
ترجمة جميل جبر / المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٦٣
٩ ـ ممدوح حقي :
(ليبيا العربية كأنك تعيش فيها) دار النشر للجامعيين ١٩٦٢
١٠ ـ أمين سعيد :
(ثورات العرب في القرن العشرين) نشر دار الهلال

(11) Folayan Kola
Umar AL Mukhtar of Libya. The Afr Studies 1974 V.11
(12) The Resistanee movement in Libya (Tariker) V.4 1973.
مجلة الدراسات القارية التي تصدرها الجمعية التاريخية في نيجيريا.

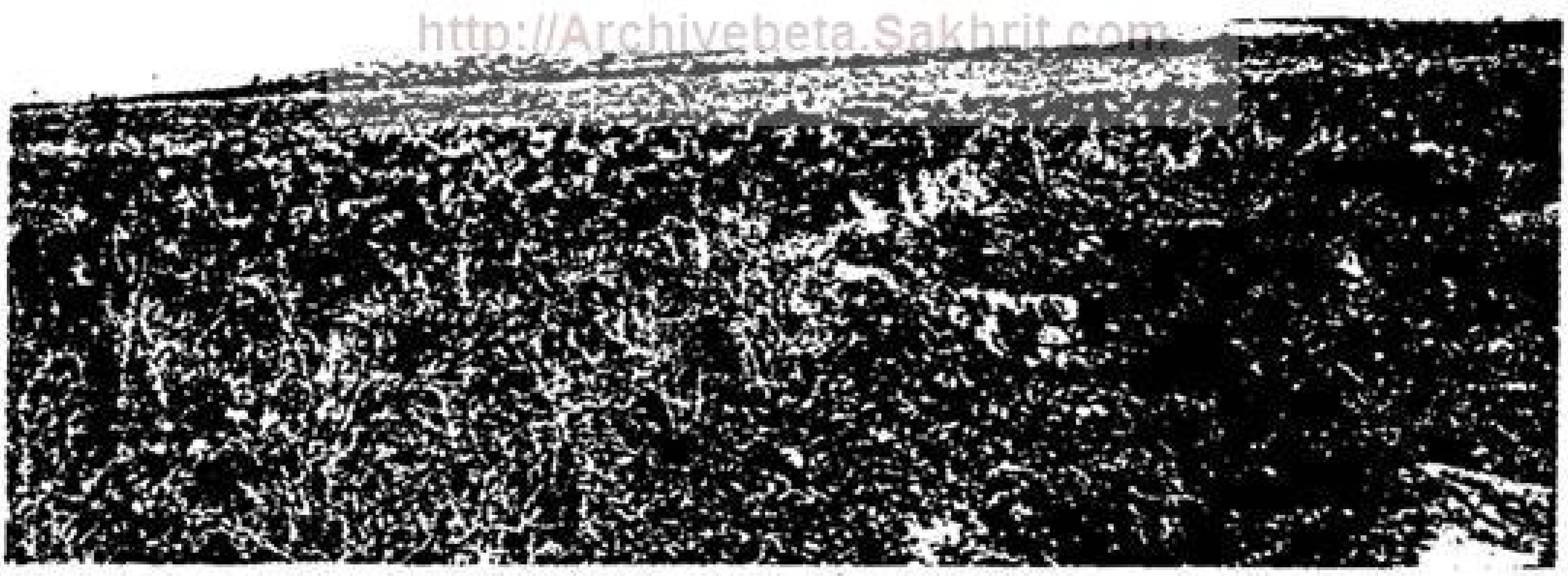
تقاليد دفن الموتى في تل حلاوة من خلال تنقيبات جامعة الموصل الموسم ٢٢ شباط ١٩٧٨

غسان طه ياسين

التمهيد :

باشرت جامعة الموصل عملها في الموقع الاثري المسمى (تل حلاوة) .والذي يقع في محافظة ديالى، ويبعد حوالي ١٢ كم الى الجنوب الشرقي من ناحية قره تبة، في الفترة الواقعة بين ٢٢ شباط والى غاية ٧ تموز من عام ١٩٧٨ في موسمها الاول (١) .

وتل حلاوة مستوطن أثري واسع يتألف من مرتفعين يزيد ارتفاع ذروة أعلاهما على أكثر من اثني عشر متراً عن مستوى سطح السهل المجاور، ويوجد بالقرب منه عدة تلول اثرية اقل اهمية كما ابانت الاسبار التي اجريت فيها (٢) . ويمكن القول ان هذا التل المستوطن الرئيسي في هذه المنطقة التي تبدو ذات طابع زراعي رعوي (انظر الشكل رقم (١).



شكل رقم (١)
منظر طبيعي لتل حلاوة

(١) عادل نجم : تقرير اولي عن حفريات جامعة الموصل في تل حلاوة قدم الى مجلة سومر .

(٢) Post gat, J.N and watson,p.J:« Excavtions in Iraq-1977-1978» 1979 (IRAQ). i PP. 161, 181. London.

تميزت الطبقة الاولى المنقب منها بالمكتشفات ذات الطابع الحضاري المميز لحضارة وادي الرافدين، والتي اخذ احداها وهي القبور موضوعا للبحث لسبب واحد هو ان معظم مخلفات هذه الطبقة جاءت من القبور التي بلغ عددها (٢٨) قبراً، فقد احتوت المخلفات انواعا مختلفة من الجرار والكؤوس والدوارق والصحون والمسارج، والقلائد المنوعة والادوات المعدنية بما فيها الفؤوس والبلطات ورؤس الرماح والسكاكين والمخايط والدبابيس والحلقات النحاسية. اضافة إلى وجود بقايا استيطان فرثي (٣) خفيف ظهرت آثاره على الطبقة الاولى كما بدا في اثناء التنقيب.

مارس الانسان الدفن منذ عصور ما قبل التأريخ وذلك على يد انسان النياندرتال (٤) فقد درج العراقيون القدامى وسكان الشرق الادنى القديم بصورة خاصة والعالم بصورة عامة دفن موتاهم في قبور تحت اراضي منازلهم، (٥) وهي أقدم الطرق التي مارسها الانسان، او في قبور قريبة من منازلهم، بينما اتخذت قبور العظماء والملوك شكلا آخراً. (٦) اما

---

(٣): الفرثيون: من الاقوام الهندواوربية التي نزحت من اواسط آسيا من منطقة السهوب الروسية شمال بحر قزوين واستقرت في الاقسام الشمالية والشرقية من ايران ودخلوا العراق في حدود ١٢٦ق.م وانتهى حكمهم سنة ٢٢٦ م.
طه باقر: مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ١٩٧٣ص٥٩٩ بغداد.

(٤) غسان طه: العصر الحجري القديم الاوسط في الشرق الادنى. رسالة ماجستير غير منشورة ١٩٧٦ ص١٩٦ بغداد.

Soloki, R. «Neanderthal is not an Epithet but a worthy 1971 Ancestor» Smithsonian- vol, I. PP-20-27.

(٥) نائل حنون. عقائد بعد الموت في حضارة وادي الرافدين ١٩٧٨ رسالة ماجستير منشورة ٢٢٣ – ٢٢٧ بغداد.

(٦): دفن الملوك السومريون في قبور ضخمة مكونة من عدة سراديب ذات عقادات من الاجر (طه باقر ١٩٧٣، ص٢٧٥).
وكذلك حذا الفينيقيون حذو السومريين فدفنوا في السراديب (مدافن جبيل وصيدون) جورج كونتنيو: المدنيات القديمة في الشرق الادنى. ترجمة شماس سلسلة ماذا اعرف. -٤- المنشورات العربية. ص٦٦ – ٦٧.

من ناحية اسلوب الدفن والمعتقد السائدان فقد اتخذ اوجه متماثلة ومتوازية منذ عصور ما قبل التاريخ والعصور التأريخية في العراق والشرق الادنى القديم والعالم أجمع . فقد اتخذ الدفن شكل الأنثناء وبأتجاهات مختلفة وهذا يشير إلى وجود تقارب بين الشعوب المختلفة حول فكرة المعتقد واسلوب الدفن مما يدل على ان الاديان القديمة فيها عناصر الشبه اكثر من عناصر الاختلاف. ومن المحتمل ان يكون هذا التشابه بالعقائد الدينية القديمة هو انتشارها من مركز واحد او من عدة مراكز كانت تعيش في ظروف متماثلة لعبت عوامل الانتشار الحضاري بما فيها التجارة والحروب والهجرات واي اتصال آخر في نقل الفكر الحضاري من منطقة الى اخرى.

تحديد الفترة الزمنية للقبور ومقارنتها بفترات حضارية معاصرة :

في الواقع ان تحديد الفترات التاريخية على أساس الاثار اصبحت من الامور اليسيرة في الوقت الحاضر ، بعد ان ثبتت خصائص ومميزات كل عصر من العصور ، غير ان هناك صعوبات في الاثار متأتية من التداخل بين الطبقات الاثرية والعصور التأريخية والتشابه في بعض الخصائص .

وتشير مخلفات الطبقة الاولى المنقب منها والتي وجدت فيها قبور تل حلاوة إلى وجود الشبه الكبير بينها وبين مخلفات العهد البابلي القديم، ودليلنا قائم على أساس المواقع البابلية التالية :

ففي خفاجي (في منطقة ديالى) كشفت التنقيبات التي اجريت هناك على عدد كبير من القبور البابلية . وقد لوحظ الشبه الكبير بينها وبين قبور تل حلاوة،

= اما الفراعنة فقد دفنوا اول الامر داخل بنايات ضخمة اطلق عليها اسم الاهرامات ، ولكن تغير الامر بعد ذلك فبنوا غرفاً مبنية تحت الارض للحفاظ على الملوك واخفائهم عن السراق (جان يويوت : مصر الفرعونية

ترجمة . سعد زهران ، ١٩٦٦ ص٥٤. القاهرة

وكانت قبور الملوك والعظماء والاشراف من الفرس تنحت في الصخر بالقرب من مدينة بيرسيبولس (جيمس هنري برستد ، انتصار الحضارة . ترجمة احمد فخري ١٩٣٨، ص٢٧٨ القاهرة.

ولكن يوجد اختلاف واحد فيما بينهما ، حيث لم يمارس الدفن الجماعي في تل حلاوة بينما نلاحظ ذلك في خفاجي . (٧)

ومن ناحية ثانية فان الاثاث الجنائزي الذي كان يرافق الموتى في تل حلاوة فيه شبه كبير في صناعة الفخار بين الموقعين خاصة الجرار والصحون والاقداح والمسارج والتي تعود إلى عصر ايسن لارسا في خفاجي . (٨) وجد مايماثلهما في صناعة الفخار في تل حلاوة وخاصة المرقمة باللوح المهمش بـ (٨)(E,F,G) وجدت مع القبرين ١٤ ، ٢٥ في تل حلاوة وهذه الجرار مع تل اسمر تعود إلى صناعة عصر ايسن لارسا (٩) كما تعود إلى نفس العصر المسارج التي رافقت قبور الاطفال في تل حلاوة المرقمة بـ (٤، ١٢، ١٣) وجد مايماثلهما بالصناعة وجدت في خفاجي . (١٠)

وأظهرت مخلفات تل الضباعي البابلية تقاربا وتعاصراً وتماثلا كبيراً بالنسبة إلى مخلفات تل حلاوة خاصة الفخار والدمى البشرية والاختام الاسطوانية(١١)

---

(٧) (انظر القبور التالية من كتاب (Deylougaz) عن قبور ديالى الشكل ٩٦ القبر ١٤٤ والشكل ٩٣ . القبر ١٤٧، والشكل ٩٠ ، القبر ١٣١)وقبور اخرى ، ولكن الاغلبية قبور بسيطة مشابهة لقبور تل حلاوة

Delougaz, p: Private houses and Graves in the Diyala Region 1967. vol. LXXX VIII-pp. 58- 142. Chicago.

(٨): انظر اللوحين (pL. 130-121) في المصدر التالي .

Delougaz, p: pottery from the Diyala Region. vol, LXIII. Chicago.

(٩) انظر اللوح المرقم بـ(PL. 130) . نفس المصدر السابق .

(١٠) انظر اللوح المرقم بـ(PL. 153) ماعدا الكأسين المرقمين بـ(B.255-200,B-256-200) نفس المصدر السابق .

(١١): انظر طبعات الاختام لتل الضباعي في اللوح (PL.3) الارقام ٣٢، ٣٧، والدمى البشرية في اللوح(pL.5))الارقام ٥٠، ٥١ والاواني الفخارية في الالواح(PL. 1–2–3) في المصدر التالي:

AL-Gailani, L: «Tell-edh-Dhiba,i» (Sumer). vol,XXC 1965. pp. 33-40- Baghdad.

كما ظهر ايضا هناك شبيها بين الفخار الجنائزي المرافق للقبور في تل الضباعي والفخار الجنائزي في تل حلاوة (١٢) .

وفي التنقيبات التي اجريت في الموقع الاثرى باسموسيان في سهل رانية من قبل مديرية الاثار العامة عثر على مخلفات العصر البابلي القديم ، الممثلة بالاسلحة كالخناجر والسكاكين النحاسية . ووجد مايماثلها في قبور تل حلاوة التالية (٣،٧،١٤،٢٨،) كما وجد ايضا في نفس الموقع حجل نحاسي يشبه صناعة الحجل الذي وجد مع القبر رقم (٧) في تل حلاوة . انظر الشكل رقم (٢) . (١٣)



شكل رقم (٢)
حجل نحاسي وجد مع القبر رقم (٧)

---

(١٢) انظر اللوح (pL.7) من مقالة محمد علي مصطفى التالية :

Mustafa, M.A: "Soundiing at Tell-edh-Dhiba'in (Sumer), vol-V
1949 pp. 173-198. Baghdad.

(١٣): انظر اللوح (pL. XXI) والرقم (Im 60228) من المقالة التالية

Abu al-soof, 13.. "Mound in the Rania plain and Excavation
1970 at Tell Basmusian (1956)". (Sumer) vol,XXVi
pp. 65–104–Baghdad.

وكذلك وجد التشابه واضحا بالفخاريات والدمى البشرية والحيوانية(١٤).
كما حدد تعاصر وتماثل بمخلفات المستوطن الاثرى جفاربازار في سوريا خاصة الفأس النحاس الذي وجد مع القبر رقم(٥) في تل حلاوة انظر الشكل (٣أ) حيث وجد مايماثله في جفاربازار وقد ارخ بـ(١٧٥٠ ـ ١٧٠٠ق.م)



شكل رقم (٣أ)
فاس نحاسي وجد مع القبر رقم (٥)

---

(١٤): (انظر الالواح التالية في نفس المصدر السابق (PL. XV,XVi,XVII)

(١٥): انظر تخطيط الفاس في اللوح(pL.XXXiV) والصور المرقمة بـ(١٣)في مقالة (Hyslop) وقد ظهر ايضاً ما يماثله في ختم اسطواني مع نوزي (يورغان تبه) جنوب كركوك او من الطراز الخوري ، ويوجد ما يماثله في المتحف العراقي .

Hyslop, "Rachel, m. Western Asiatic Shaft - hole Axes" 1949 (IRAQ) vol,X I -part,I.pp, 90–131.

وفي الموقع الســـابق الذكر وجدت مخـايط وابر ودبابيس نحاسية مثقوبة الراس وذات طرف رفيع تماثل صناعة نحاسيات تل حلاوة ، اضافة الى القلائد التي عثر عليها مع القبور في جفاربازار (١٦) اظهرت شبهاً كبيرا بقلائد تل حلاوة مع القبرين (١٤،٧) وان الشيء الغريب هو وضع المخايط والدبابيس النحاسية مع الموتى في كلا الموقعين متشابه .

كما كشفت التنقيبات في تل ابو الصلابيخ (ناحية المدحتية في بابل) على قبور بابلية ترافقها اواني تحمل صناعة مماثلة لصناعة تل حلاوة (١٧) . اما قبور تل الصيوان في سامراء البابلية او الكاشية فقد رافقتها اواني ذات صناعة بابلية وحجل نحاسي يماثل الحجل النحاسي الذي وجد مع القبر رقم (٧) في تل حلاوة (١٨) .

ويبدو من المقارنة السابقة ان هناك ترابطاً وتشابهاً بين تل حلاوة ومواضيع اثرية اخرى في نفس المنطقة ومناطق بعيدة تشير الى مدى الاتساع والانتشار الحضاري لهذا العهد والمؤرخ بالعهد البابلي القديم .

ارى في تل حلاوة مستوطناً رئيسياً في المنطقة تابعاً لاحدى دويلات المدن

هامش رقم (١٦) في الصفحة السابقة (أنظر اللوح (pL.XXXII) واللوح (pL.XXXIII) الارقام ١، ٢، ٥، فالقلادة رقم واحد وجدت مع القبر (١٤) والقلادة رقم (٥) وجدت مع القبر رقم (١٨٣) . انظر المصدر التالي .

Mallowan, M.E.I. "Excavtion at Tell Chagar Bazar and an
1937 Archaeological survey of the Habur Region"
Scond Compaign (IRAQ). pp. 91-191. London.

Postgate, J.N. "Excavation at Abu Salabikh 1975" (IRAQ):
1976 Vol, XXXVIII. Part-I- PP. 133- 170, London.

(١٨) Abu, al-Sooff. B. "Tel Es-Sawwan Excavation (Fourth:
1969 (Saeson) (Sumer) Vol, XXiv. PP, 3-16. Baghdad.

(دولة مملكة اشنونا) في منطقة ديالى .(١٩) قبل توحيدها على يد حمورابي (سادس ملوك البابليين) ويحدد هذا العصر من الفترة الواقعة بين (٢٠٠٤ ـ/١٥٩٤ق.م) (٢٠) .

وزادني ايماناً على التشابة بان هناك صناعاً محترفين يعملون في مناطق محدودة تتوزع منها تلك الصناعات أو ان هناك منطقة صناعية خاصة وهذه بعيدة الاحتمال بدليل وجود الكور داخل المواقع الاثرية في الصناعة يؤيد نظرية الانتشار الحضاري بمركزيها .

انواع القبور في تل حلاوة :

هناك ثلاثة انواع من القبور في تل حلاوة يمكن تقسيمها بما يلي :

(١): القبور البسيطة : وهي حفر بسيطة تحفر في اعماق مختلفة من موضع الى آخر وفي الموضع ذاته . فمثلا في الاربجية دفن السكان العبيدون موتاهم في حفر بسيطة تتراوح اعماقها بحدود المتر الواحد . (٢١) بينما دفن سكان الصوان موتاهم باعماق تتراوح بين ٢٢ ـ ٥٠سم . (٢٢) ودفن سكان جفاربازار موتاهم في حفر يتراوح اعماقها بين ١ ـ ٢م . (٢٣) ويلاحظ ان سكان خفاجي البابليين دفنوا موتاهم في حفر بسيطة باعماق تتراوح بين ٧٥سم ـ ١/٥٠م. (٢٤) اما سكان تل حلاوة فقد دفنوا موتاهم في أعماق تتراوح بين ١/٢٥ ـ ١/٧٥م عن قمة التل .

---

(١٩) : تعرف المستوطنات التي كانت في منطقة ديالى باسم مملكة اشنونا وتقع في المثلث المحصور بين دجلة وديالى وسفوح مرتفعات «زاجروس شرقاً» فتضم تل اسمر ، وخفاجي واشجالي وتل اجرب وتل حرمل والضباعي ونضيف عليها حسب ما جاء في التنقيبات الجارية في حوض حمرين تل سليمة والزاوية والسيب والبلخي .

(٢٠): طه باقر ١٩٧٣ ، ص٤٠٤ ـبغداد .

(٢١) Mallowan, M and Aose,J. "Excavations at Tell Arpachiyah 1935 1933 " (IRAQ). vol, II. PP. 1-178, London.

(٢٢) فيصل الوائلي وبهنام ابوالصوف ١٩٤٠ . تل الصوان. مجلة سومر العدد (١٨) ص٢٢٤ بغداد .

(٢٣) Mallowan. M. 1937, PP. 107.

(٢٤) Delougaz, P. 1967, PP-58.

٢):القبور داخل اوعية فخار : قبور بسيطة ايضاً وتعود لاطفال صغار دفنوا تحت اراضي الغرف وبنفس العمق السابق وتمثل القبور التالية (٣، ١٢، ٢٤، ٢٧)
٣ : القبور المبنية باللبن : وجد قبر واحد مبني باللبن وكسر االلبن قياس ٣٥×٣٥×٧سم وهو القبر رقم (٩) على عمق ١/٦٥م عن قمة التل . يبلغ طول القبر ١/٥٠م وعرضه١/٢٠م وارتفاعه ٦٥سم .

نظرة البابليين الى عالم مابعد الموت :ـ

الموت حقيقة ثابتة عند كل البشر منذ اقدم الازمنة وحتى الوقت الحاضرة وقد تصور البابليون ان الموت هو انفصال بين الجسم والروح التي كانت ملازمة له في الحياة ، وعند الموت تتحول الروح من شكل من الوجود الى شكل آخر حيث تهبط الى العالم الآخر الخاص بالارواح . وتبقى سجينة في ذلك العالم ولا تقوم منه الى الابد حيث لا قيامة ولابعث (٢٥) . وقد تصور البابليون ان روح الدفين تنفذ من القبر (٢٦) ، ويبدو انهم تصوروا ايضاً ان الروح تدخل من اقصى الغرب عند موضع مغرب الشمس ، وتكون لها مداخل اخرى ثانوية منها حفرة القبر . (٢٧) وفتحات عديدة في المدن الرئيسة كانت مخصصة لنزول الروح كما جاء ذلك على لسان عشتار عند نزولها الى العالم السفلي . (٢٨)

وكان خروج بعض الارواح يتم من خلال ثقب او حفرة تؤدي الى داخل القبر كما فعل شبح انكيدو عندما قطع مسافة ٣٦٠٠ ساعة مضاعفة وخرج لمقابلة جلجامش (٢٩) .

(٢٥) جاء على لسان الكتاب البابليين والسومريين وصف العالم الاسفل وذلك في (هبوط عشتار الى العالم الاسفل) وكذلك في قصيدة (جلجامش وانكيدو والعالم الاسفل)
انظر طه باقر : مقدمة في تاريخ الادب في حضارة وادي الرافدين ١٩٧٦ . بغداد

(٢٦) سبتينو موسكاتي : الحضارات السامية القديمة .ترجمة د يعقوب بكر ص ٨٠، ١٩٥٧

(٢٧) طه باقر ، ١٩٧٦ .ص٢٢٤ — ٢٢٥ ، بغداد

(٢٨) صموئيل كريم ١٩٧١ ، الاساطير السومرية ، ترجمة يوسف عبد القادر ص١٣٥ — ١٣٦ بغداد .

(٢٩) طه باقر :(١٩٧٦)ص ٢٢٤

كما تصوروا ان الروح عندما تنزل الى العالم السفلي يسمونها «اطمو» وتبقى هناك في حالة دفن الميت ووفق الطرق والمرسيم الدينية المقررة (٣٠) واذا لم يدفن الميت وفق الشروط المطلوبة ، او يترك على الارض ، فان روحه سوف تهيم دون ان يقرر لها قرار ، وتعود الى الارض من حين الى آخر في صورة روح شريرة تزعج الناس (٣١) ومن الممكن تلمس هذه العناية الجيدة في دفن الموتى في قبور تل حلاوة .

ويبدو من المآثر الادبية والدينية السومرية والبابلية ان القوم اعتقدوا بوجود فوارق بين الموتى المعتنى بدفنهم واولئك الذين لم يعتنى باسلوب دفنهم ، وهذا التميز نراه واضحاً في اللوح الثاني عشر من ملحمة جلجامش ويمكن ان نفهم ان هناك «امواتاً عظماء وأمواتاً حقراء ، اغنياء وفقراء وبالنتيجة سعداء وتعساء»(٣٢) .

اما مايخص العقاب والثواب ، فكان الفرد البابلي يعتقد بان هناك دار عقاب ودار ثواب سواء كان في عالم الحياة الدنيا ام في العالم الآخر بعد الموت ومن آثار الاعتقاد بالثواب والعقاب في هذا العالم وانتفاء فكرة البعث او النشور في حياة اخرى ان البابليين ، بدلا من ان يكونوا متشائمين في حياتهم اقبلوا على الدنيا ينتهزون نعيمها وخيراتها . (٣٣) فالعقاب والثواب لايمكن تشخيصهما في القبور لانها قضايا تخص المعتقد الفكري وليس المادي . وهناك فكرة غامضة عن عودة الحياة عند البابليين في مملكة الاموات ، وهي البلاد التي لا عودة منها . اذ لم تكن هذه الفكرة عميقة البحث والاهتمام ، ولم تكن واضحة عند الاشوريين وحتى عند الاغريق (٣٤) اذ كان يعتقد

---

(٣٠): طه باقر : «ديانة البابليين والاشوريين »سومر . العدد ص١– ٢٠ ١٩٤٦ بغداد

(٣١): سبتينو موسكاتي :(١٩٥٧)ص٨٠

(٣٢): جان بوتيرو : الديانة عند البابليين ، ترجمة . وليد الجادر . ص١٣١ ، بغداد ١٩٧٠

(٣٣): طه باقر ،(١٩٤٦)، ص٩– ١٠

(٣٤): جا ن بوتيرو :(١٩٧٠)ص ١٣١

ان خروج بعض هؤلاء الاموات يكون بامر الالهة كما حدث لشبح او روح انكيدو عندما طلبها جلجامش ليسألها عن اكيدوا ولكي تصف له حياة العالم السفلي . كما ان بعض الاموات تخرج لاعمال شريرة حيث تخيف البشر ولم يكن ذلك يعتبر عودة ثانية الى الحياة بل ان تحرك اولئك الموتي كان ضمن حياتهم الخاصة (٣٥) .

وكان القوم يعتقدون ان الروح تخرج من العالم الاسفل في حالة عدم الاعتناء بالدفن اولا او عدم تقديم القرابين للموتى ثانياً ، وفي نبش القبور وتعرض الجثة ثالثاً . وقد طفحت اخبار حضارة وادي الرافدين بهذه النماذج حيث عمد بعض الملوك الاشوريين مثل آشور بانيبال (٦٨٨ – ٦٢٧ق.م) الى نبش قبور الملوك العيلاميين ونقل رفاتهم الى بلاد آشور لتخرج ارواحهم وتحدث الاضرار والأذى بالاحياء من أهل عيلام (٣٦) وقد ورد في أحد النصوص المسمارية القديمة حول أهمية الاعتناء بالقبور بما يلي :

«على الدوام بمرور الازمان ، في الايام القادمة ، عسى من يرى هذا القبر أن لايخرجه بل يعيدة الى ما كان عليه ، عسى من يرى هذه الكتابة ان لايزدريها بل ان يقول :
سأعيدهذا القبر الى ما كان حتى يجزي خيراً على فعله فيعلي اسمه على الارض وتسقى روحة بالماء النقي في العالم الاسفل» (٣٧) .

---

(٣٥) نفس المصدر السابق

٣٦ : (طه باقر : ١٩٧٦ . ص٢٣٢) –

(٣٧) نائل حنون : ١٩٧٨ ، عقائد ما بعد الموت في حضارة ما بين النهرين : نقلا عن المصدر التالي :

C. H. W. Johns: Cuneiform Inscriptions Chaldean, Babylonion and Assyrian Collections Contained in the 1908 libray of J. Prerpont morgan. PP. 37. New york?

الوصف العام للقبور

القبر رقم (١) الغرفة (١٩)

كسر من عظام غير واضحة والباقي منها يمكن معرفته بالاطلاع على طريقة الدفن واتجاه الدفين . فقد وضع المتوفي على جانبيه الايمن باتجاه الجنوب وبوضعيه القرفصاء كما اودعت بعض اللوازم التي يحتاجها في حياته الثانية التي كان يعتقد بها .

فعند الرأس وضع دورق صغير ، وعند اصابع القدم كأس مع جرة كبيرة مخططة البدن ، وجرة اخرى اصغر منها ، وقد اقتطعت حفرة القبر في الطرف الجنوبي الغربي من الغرفة (٩) انظر الشكل رقم (٤) .



شكل رقم (٤)
القبر رقم (١)

القبر رقم (٢) الغرفة (١٣)

لم يعثر الا على ثلاث أو أربع كسر من عظام غير واضحة والاواني موضوعة بشكل منتظم وتضم كاس مع ثلاث جرار متساوية في الحجم تقريباً . اقتطعت حفرة القبر في الطرف الشرقي من الغرفة(١٣) انظر الشكل رقم (٥)



شكل رقم (٥)
القبر رقم (٣)

هيكل عظمي لشخص بالغ بوضعية الأنثناء ايضاً ، الرأس باتجاه الشمال موضوع على جانبه الايمن . الايدي مرفوعة عند الصدر وامام الوجه وعندها وضعت جرتان بشكل مائل وبدقة متناهية ومثبتان بطين ، احداهما مائلة رقم (٢) باتجاه الراس والأخرى رقم (٤) بجانبها كاس رقم (٣) ، وعندالبد اليسرى وخلف الظهر وضعت سكين وخنجر نحاس رقم (١) كما وضعت جرة عند اصابع القدم رقم (٥) كما وجدت خرزتان طويلتان مثقوبتان مائلتان للزرقة تحت عظم الساعد لليد اليمنى (٦) اقتطعت حفرة القبر من

الجدار الوسطي للغرفة رقم (١٢) يبلغ طول الدفين حوالي ١٦٠سم . انظر الشكل رقم (٦) .



شكل رقم (٦)
القبر رقم (٣)

القبر رقم (٤) الغرفة رقم (٤) .

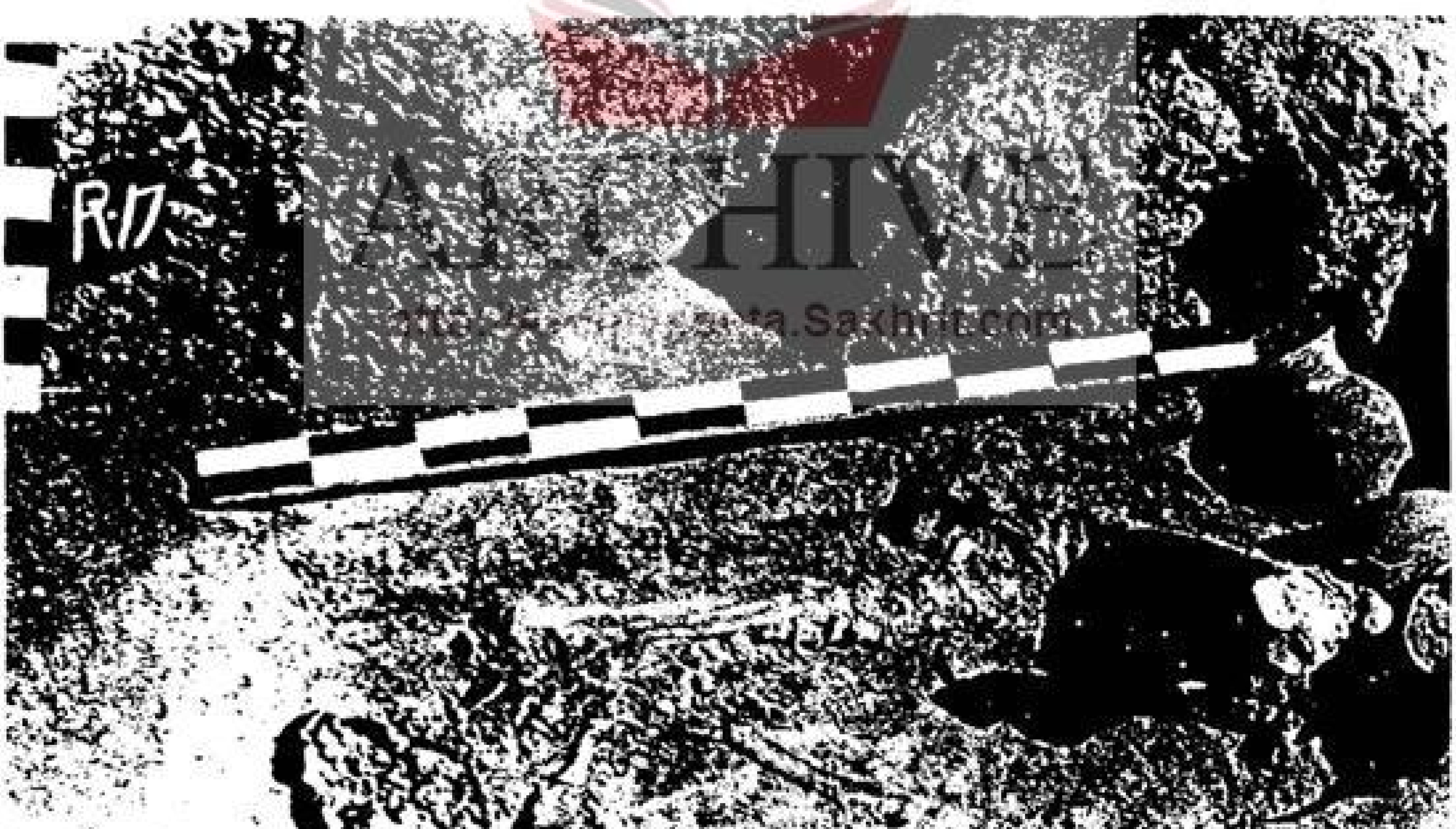
جرتان مائلتان للحمرة وجد بداخلها عظام طفل صغير ، وعند احداهما ومن جهة الشرق وجدت مسرجة وعليها بقايا الحرق رديئة الصنع غير مفخورة متصلبة من اثر الحرق كما وجد عند هذا القبر آثار حرق تمثل بقايا نوع من المراسيم او الشعائر الدينية عند هذا المدفن مغطى بكسر أيد ان جرار كبيرة تحتها دورق وبجانب المدفن من الجهة الغربية ، وفي داخل المدفن وضع كاس وصحن مفقـــــود منه كسر قليلة ، اقتطعت حفرة القبر في الطرف الشرقي من الغرفة رقم (٤) انظر الشكل رقم (٧) .



شكل رقم (٧)
القبر رقم (٤)

القبر رقم (٥) الغرفة (١٧) :

شخص بالغ بوضعية الأنثناء الرأس باتجاه الغرب ، وضع الدفين على جانبه الايمن ،او ملقى على ظهره تقريباً . اليدان مضمومتان للصدر عند اسفل الرقبة ، رافقته مجموعة من اللوازم تضم فارس برونزي رقم (٢) موضوع فوق الرأس او مقتول به كما وجدت عنده بقايا المقبض الخشبي في فتحة الفاس وغطي الفاس تماماً بجرة وضعت عليه رقم (١) وعند اصابع القدم وضعت ثلاث اواني تضم جرتان ٣،٥ متماستان عندهما وضع كاس رقم (٤) اقتطعت حفرة القبر في الزاوية الجنوبية الشرقية للغرفة (١٧) يبلغ طول الدفين حوالي ١٦٥سم ويبدو من هيكله العظمي انه شخص ضخم البنية (انظر الشكل رقم (٨) .



شكل رقم (٨)
القبر رقم (٥)

القبر (٦) الغرفة (٢٣) :

بقايا عظام الساق والفخذ وأجزاء من عظم الحوض واصابع القدم من خلال هذه البقايا حددنا وضعية الدفين ، فهو مثل سابقه من القبور رافقته مجموعة من الاواني تضم كاسا وجرتين ، اقتطعت حفرة القبر في الطرف الجنوبي من الغرفة (٢٣) .

القبر رقم (٧) الغرفة (١٤) :

هيكل عظمي لشخص بالغ في وضعية الأنثناء . لم يبقى منه الا الرأس واصابع القدم واجزاء من عظام الساق والاضلاع . رافقته مجموعة من الادوات والاواني التي يحتاجها في العالم الثاني . تضم عدة حربية مؤلفة من فأس نحاسي وسكين او خنجر ورأس رمح نحاسيين مع دبوسين او مخيطين مدببي الرأس مثقوبي المقدمة وطرفين رفيعين موضوعين خلف الرأس وقلادة كبيرة مؤلفة من مجموعة من الخرز المكور والمسطح معمول من العقيق واحجار مختلفة وعند عظم الساق وجد حجلان نحاسيان واناء نحاسي ملصوق فيه بقايا خشب متفسخ وعند الراس وضعت اربع اوان تضم صحناً وثلاث جرار . ربما يعود هذا الهيكل لأمرأة بدليل القلادة والحجول ولكن الادوات الحربية تدحض ذلك الدليل ولكن لانستبعد ان تكون هذه المرأة محاربة . كما اقتطعت حفرة القبر في الجدار الجنوبي للغرفة(١٤) انظر الشكل رقم (٩) .

القبر رقم (٨) الغرفة رقم (١٧) :

هيكل عظمي لشخص صغير السن وبوضعية الأنثناء موضوع على جانبه الايمن باتجاه الغرب ، اليد اليمنى ممدودة باتجاه الجسم واليسرى تنحرف باتجاهها اما الارجل موضعها حيث لم نجد هناك اي اتصال بين عظام الساق

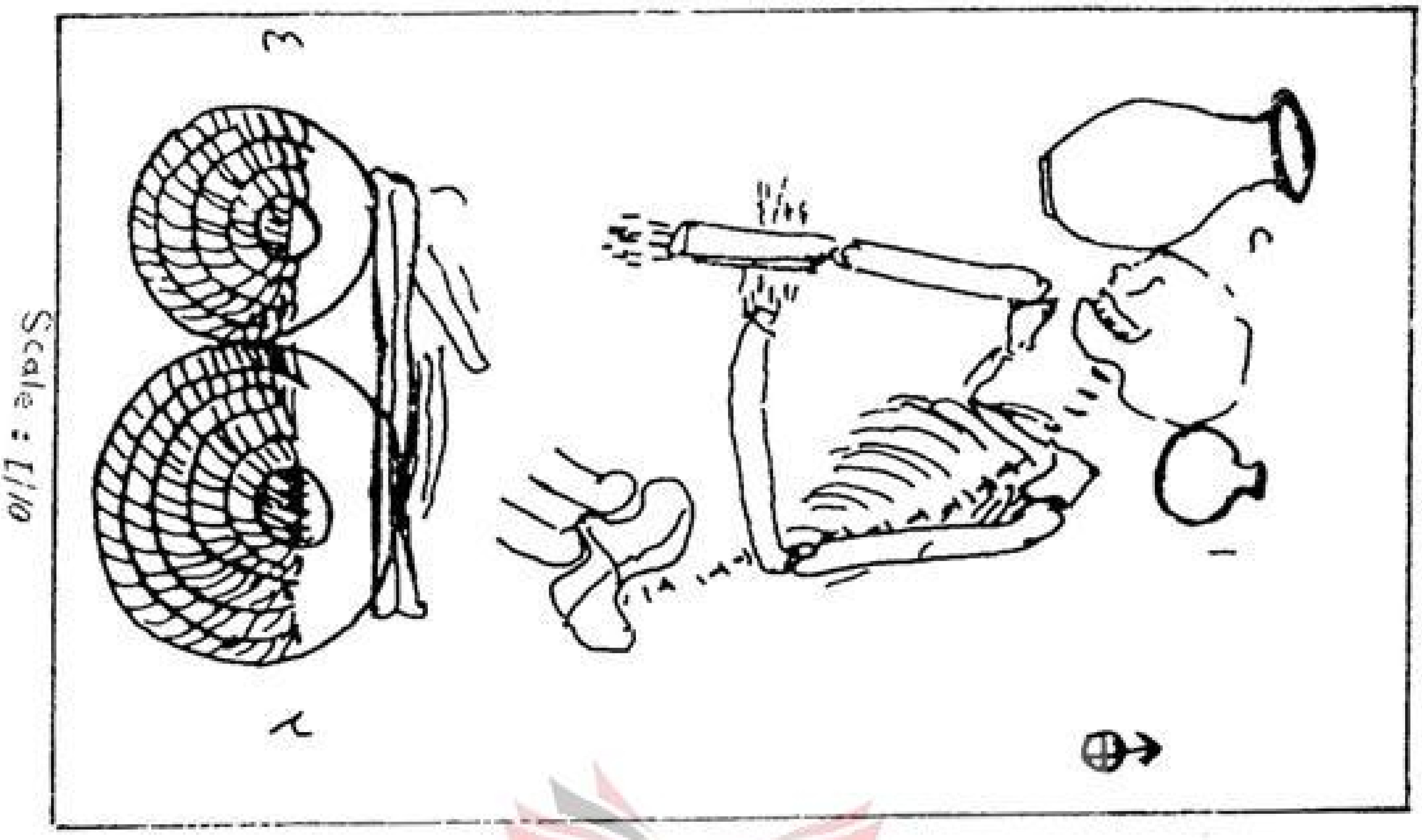


شكل رقم (٩)
القبر رقم (٧)

ولكن موضوعة في مكان واحد عند الاواني التي وضعت عند اصابع القدم. التي اخذت الرقمين (٣،٤) وامام الرأس وضعت جرة رقم (١) رقبتها والفوهة مصبوغة باللون الاسود ، اما خلف الرأس فقد وضع دورق رقم (٢) ، يبلغ طول الدفين ١٤٥سم (انظر الشكل ١٠) اقتطعت حفرة القبر في الطرف الشرقي من الغرفة (١٧) ولابد من الاشارة الى ان القبر رقم (٥) موضوع في نفس الغرفة ويبعد عن القبر رقم (٨) ب٥/١م .

القبر رقم (٩) ساحة الممر (٢٠) :

هيكل عظمي لشخص بالغ بوضعية الأنثناء ، موضوع على جانبه الايسر ، الرأس باتجاه الشمال . الايدي مجتمعة عند الصدر في احد أصابع اليد اليسرى حلقة نحاسية وبين اليد اليمنى والوجه وضعت اداة معدنية تمثل دبوس .



شكل رقم (١٠)
القبر رقم (٨)

وعند منطقة الصدر والرقبة وجدت خرز دائرية الشكل حمراء اللون ، وعند اصابع القدم وضعت جرة متوسطة الحجم مكورة القاعدة .

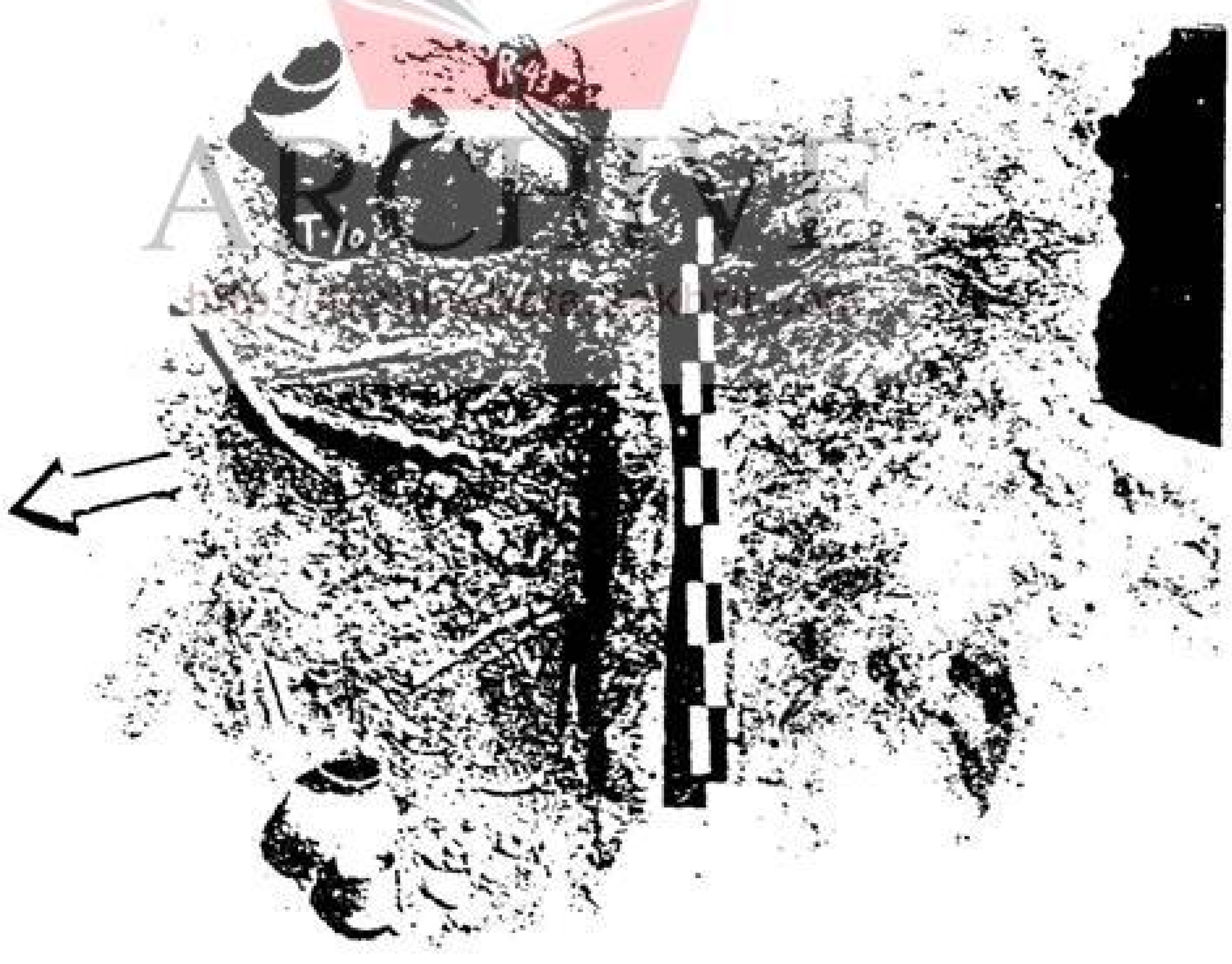
هذا القبر الوحيد بين القبور مبني باللبن وكسر اللبن ، له واجهة مثلثة الشكل متكونة من لبنة موضوعة على رأسها قياس ٣٥×٣٥×٧سم .يبلغ طول القبر ١٥٠م وعرضه ٢٠و١ م اقتطعت حفرة القبر في الطرف الغربي من الساحة(٢٠) في الجدار الشرقي للغرفة (٢٨)، ويوجد احتمال كبير ان الهيكل يعود لأمرأة بدليل عظم الحوض والخرز التي وجدت عند منطقة الصدر (انظر الشكل رقم ١١) .



شكل رقم (١١)
القبر رقم (٩)

القبر رقم (١٠) الغرفة (٤)

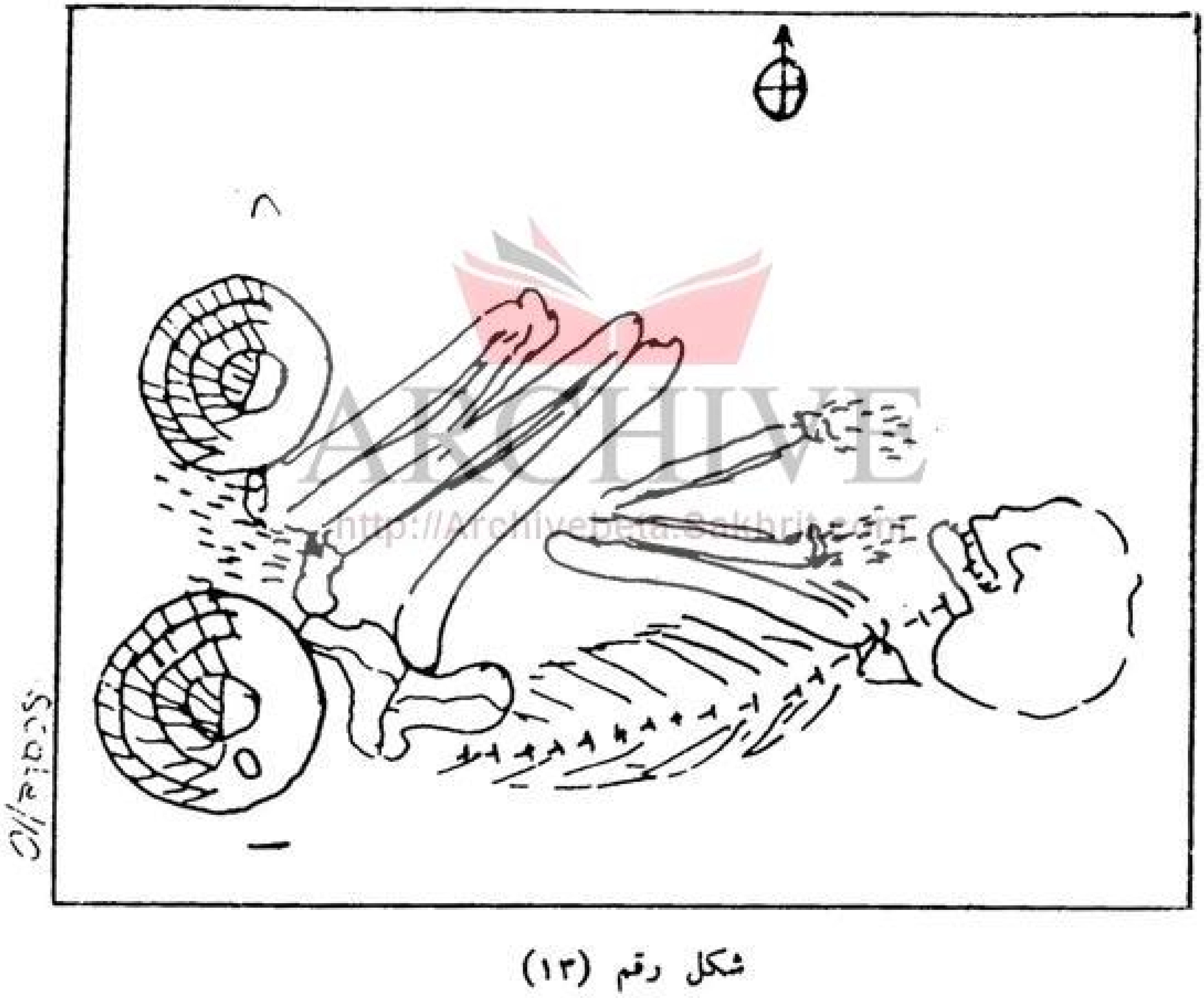
هيكل عظمي لشخص بالغ [illegible] على جنبه الايمن باتجاه الشمال ، اليد اليمنى مرفوعة [illegible] واليد اليسرى مرفوعة الى الاعلى نحو الجرة التي وضعت امام الوجه رقم (٢) ويجانبها كاس رقم (١) وكان الدفين يلبس في احد اصابع يده اليمنى دائرة نحاسية رقم (٣) ويمسك بنفس اليد دبوساً او مخيطاً نحاسياً رقم (٤) وعند اصابع القدم وضعت ثلاث اواني مختلفة الاشكال والحجوم اخذت الارقام ٥،٦،٧، والجدير بالذكر ان عظام الدفين نحيفة . ويبلغ طوله حوالي ١٦٥ سم ، اقتطعت حفرة القبر في منتصف الغرفة (انظر الشكل رقم ١٢) .



شكل رقم (١٢)
القبر رقم (١٠)

القبر رقم (١١) الغرفة (٥٧) :

هيكل عظمي لشخص بالغ بوضعية الأنثناء . وضع على جانبه الايمن باتجاه الشمال الايدي موضوعة عند الوجه والارجل مسحوبة للاعلى والوضعية مشوشة بعض الشيء رافقت الدفين اواني وضعت عند اصابع القدم تضم جرتين احدهما رقم (١) عليها بقايا صبغ اسود بشكل دائري ، ووضع بجانبها جرة اخرى رقم (٢) يبلغ طول الدفين حوالي ١٥٠ سم اقتطعت حفرة القبر عند الزاوية الجنوبية الشرقية (انظر الشكل رقم (١٣) .



شكل رقم (١٣)
القبر رقم (١١)

القبر رقم (١٢) الغرفة (٦٠) :

عظام مشوشة تعود لطفل موضوعة داخل جرة تحف بها مجموعة من الاواني الصغيرة تضم دورقاً ومسرجة تشبه المسرجة التي رافقت القبر

رقم (٤) وجراراً صغيرة ، اقتطعت حفرة القبر في منتصف الغرفة (انظر الشكل رقم (١٤) .



شكل رقم (١٤)
القبر رقم (١٢)

القبر رقم (١٣) الغرفة (٦٠) :

عظام طفل منتشرة فوق طابوقة وبجانبها مسرجتان وصحن مثقب ، وفي نهاية القبر من الجهة الغربية عند الزاوية الجنوبية الغربية من الغرفة وجدت طابوقة مقسمة الى مربعات عددها تسعة عشرة مربعاً ، ربما تمثل احدى الالعاب القديمة ، لم نعرف ماهيتها . اقتطعت حفرة القبر من الطرف الجنوبي من الغرفة (٦٠) انظر الشكل رقم (١٥) .

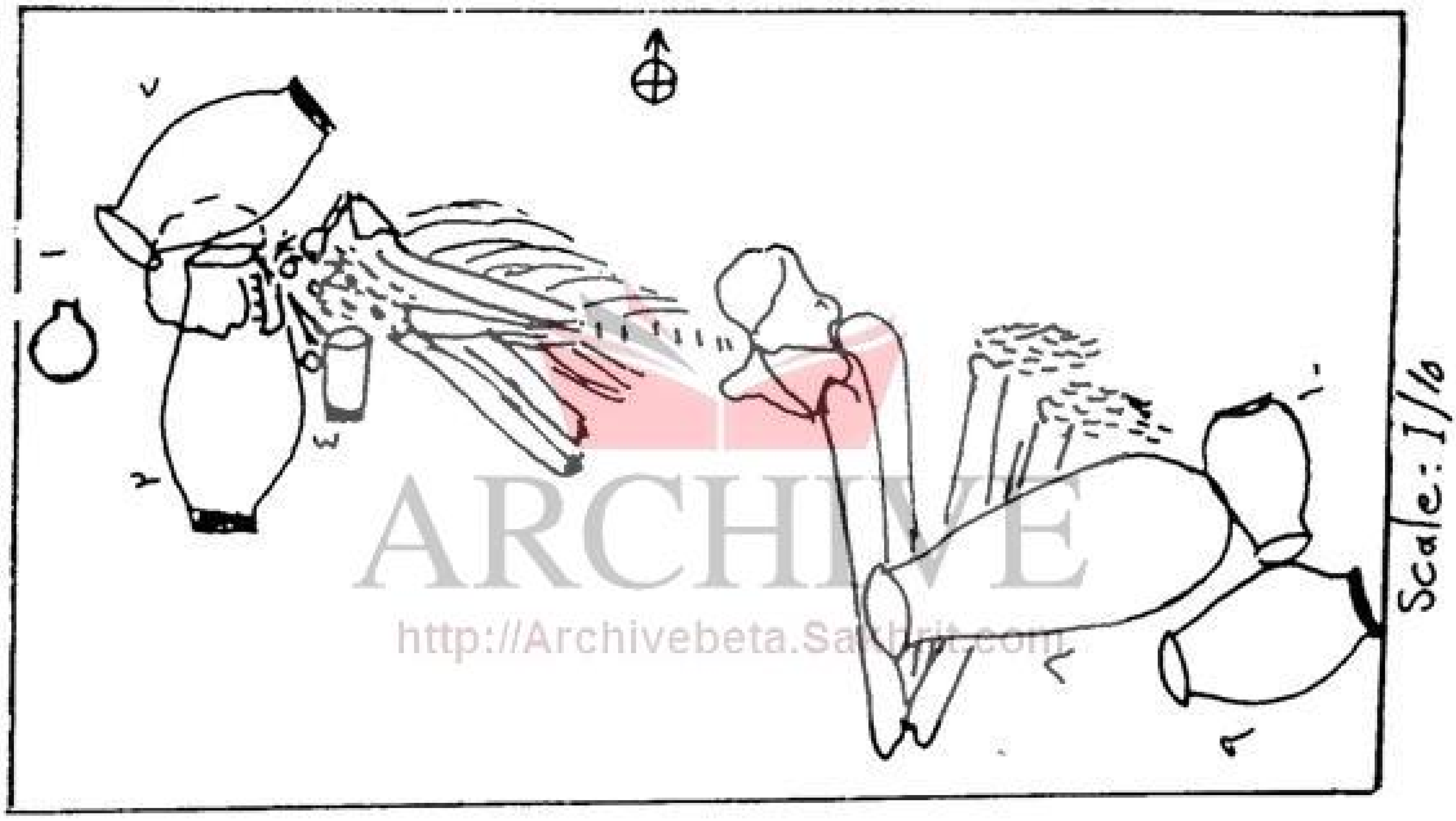


شكل رقم (١٥)
القبر رقم (١٣)

القبر رقم (١٤) الغرفة (٩٦) :

هيكل عظمي لشخص بالغ بوضعية الأنثناء موضوع على جانبه الايمن ، والرأس باتجاه الجنوب ، والايدي موضوعة عند الصدر وامام الوجه ، عندها وجدت مجموعة من الخرز المدور احمر الشكل وانواع اخرى من احجار مختلفة ربما تمثل قلادة رقم (٦) قطع نحاسية غير واضحة عند الصدر وحلقة نحاسية صغيرة وجدت بالقرب من الانف ربما تكون بمثابة الخزامة اخذت الرقم (٧) وحلقة نحاسية وجدت في احدى اصابع اليد اليسرى مع اداة نحاسية تشبه مثيلاتها من القبر رقم (١٠،٧) اخذت الرقم (٧) مع رأس

رمح نحاسي ايضاً. وقد احيط الرأس باربع اواني تضم دورقا الرقم (١) وجرة مائلة على الرأس من الخلف رقم (٢) واخرى مقابلة لها رقم (٣) وبجانبها كاس رقم (٤) وعند اصابع القدم وضعت ثلاث جرار اخذت الارقام (٨،٩،١٠) ومسرجة خلفها اخذت الرقم (١١). يبلغ طول الهيكل العظمي حوالي (١٧٠) سم ربما يعود الى امرأة ذات مركز اجتماعي متوسط اقتطعت حفرة القبر في منتصف الغرفة (٩٦) انظر الشكل رقم (١٦) .



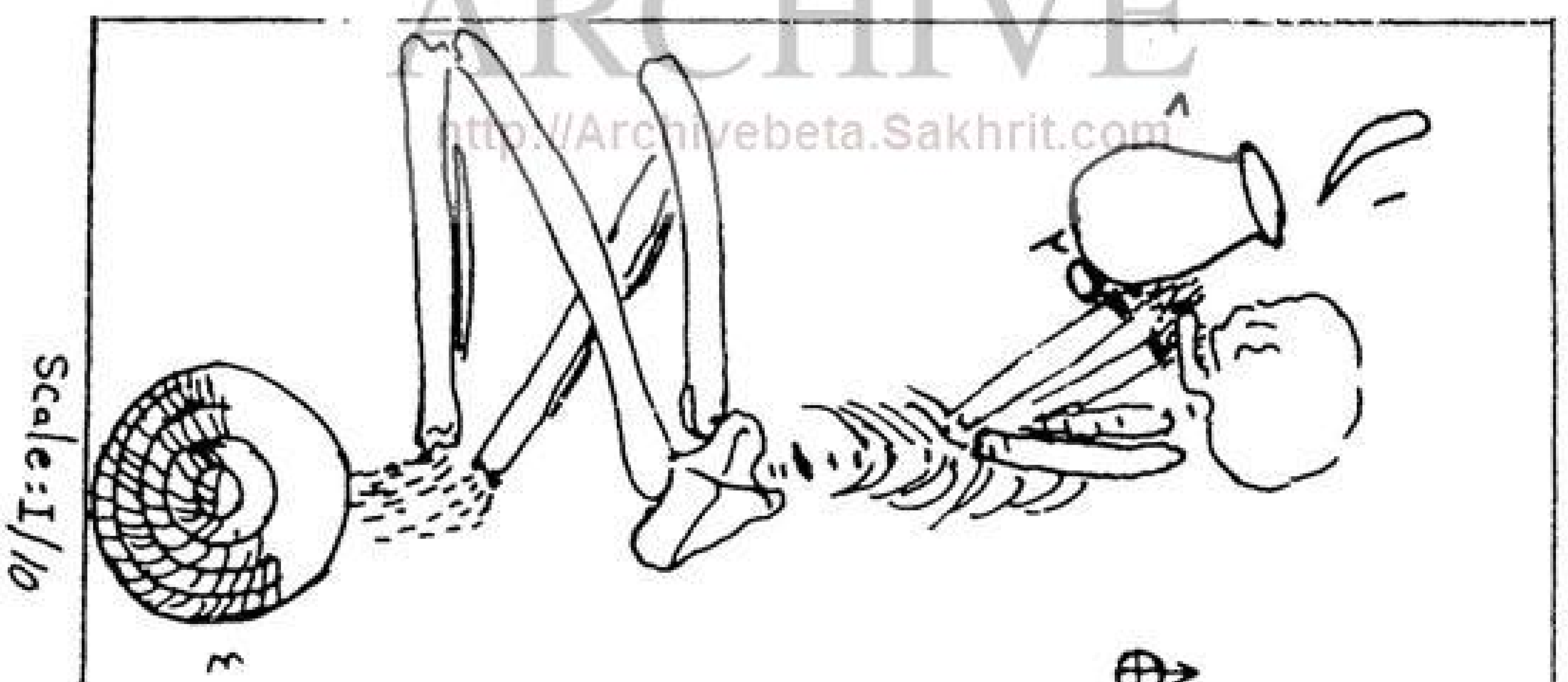
شكل رقم (١٦) القبر رقم (١٤)

القبر رقم (١٥) الغرفة (٦٣) :

هيكل عظمي لشخص بالغ بوضعية الأنثناء ،موضوع على جانبه الايمن باتجاه الجنوب ، العظام مشوشة بسبب فقدان اجزاء منها يبدو ان اصابع القدم قد وضعت داخل الجرة التي رافقته قرب عظم الحوض ، كما وضعت جرتان عند الرأس ، اقتطعت حفرة القبر في الجهة الشمالية الغربية من الغرفة (٦٣) .

القبر (١٦) الغرفة (٧٢):

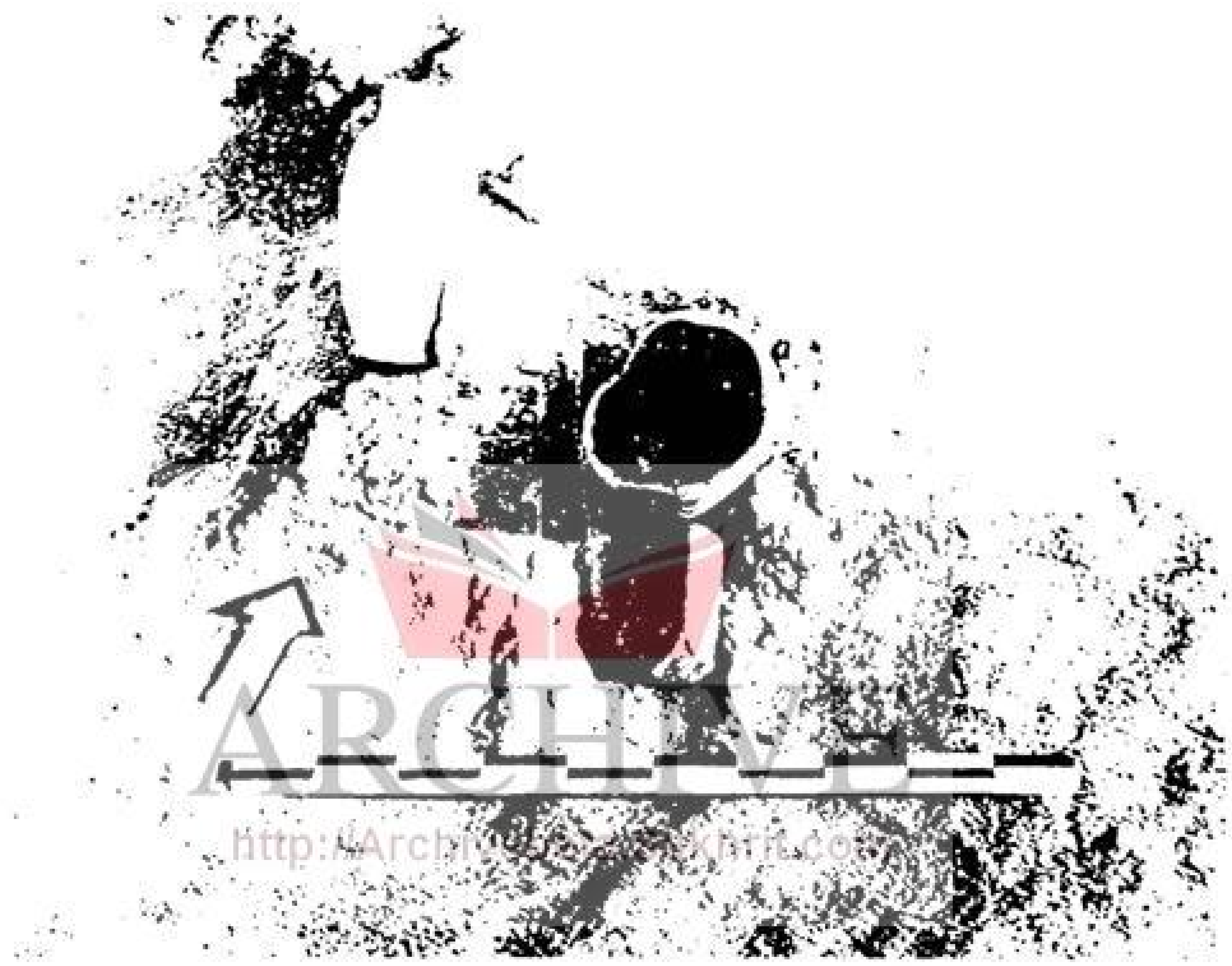
هيكل عظمي لشخص بالغ بوضعية الأنثناء، الرأس باتجاه الغرب، موضوع على جانبه الايمن ، الايدي عند الصدر والوجه . رافقته جرة تكون غريبة من حيث أنها مرممة بمادة الكلس ويبدو أن فوهة الجرة قد فقد منها عدة كسر وقام أصحاب الدفين بترميمها لاحتمال واحد وهو أن المعتقد لم يسمح لهم أن يودعوا مع الدفين أواني مكسرة ولهذا رممت أو ربما طقساً معيناً بدليل وجود آثار الكلس على أرض القبر وعلى العظام .اخذت الرقم (٢) وعند نهاية الرأس وجد قرن ماعز ربما له علاقة بطقس معين رقم (١) وعند الجرة المرممة وجدت حصاة موضوعة عن قصد رقم (٣) وعند أصابع القدم وضعت جرة كبيرة رقم (٤). يبلغ طول الدفين حوالي ١٦٥ سم اقتطعت حفرة القبر في منتصف الغرفة (٧٣) انظر الشكل رقم (١٧).



شكل رقم (١٧)
القبر رقم (١٦)

القبر رقم (١٧) الغرفة (٧٥):

بقايا عظام الساق والاصابع ، عندها وضعت جرتان احداهما وضع بداخلها كاس. القبر مشوش وغير واضح المعالم اقتطعت حفرة القبر بالقرب من الجدار الغربي للغرفة (٧٥) (انظر الشكل رقم (١٨).

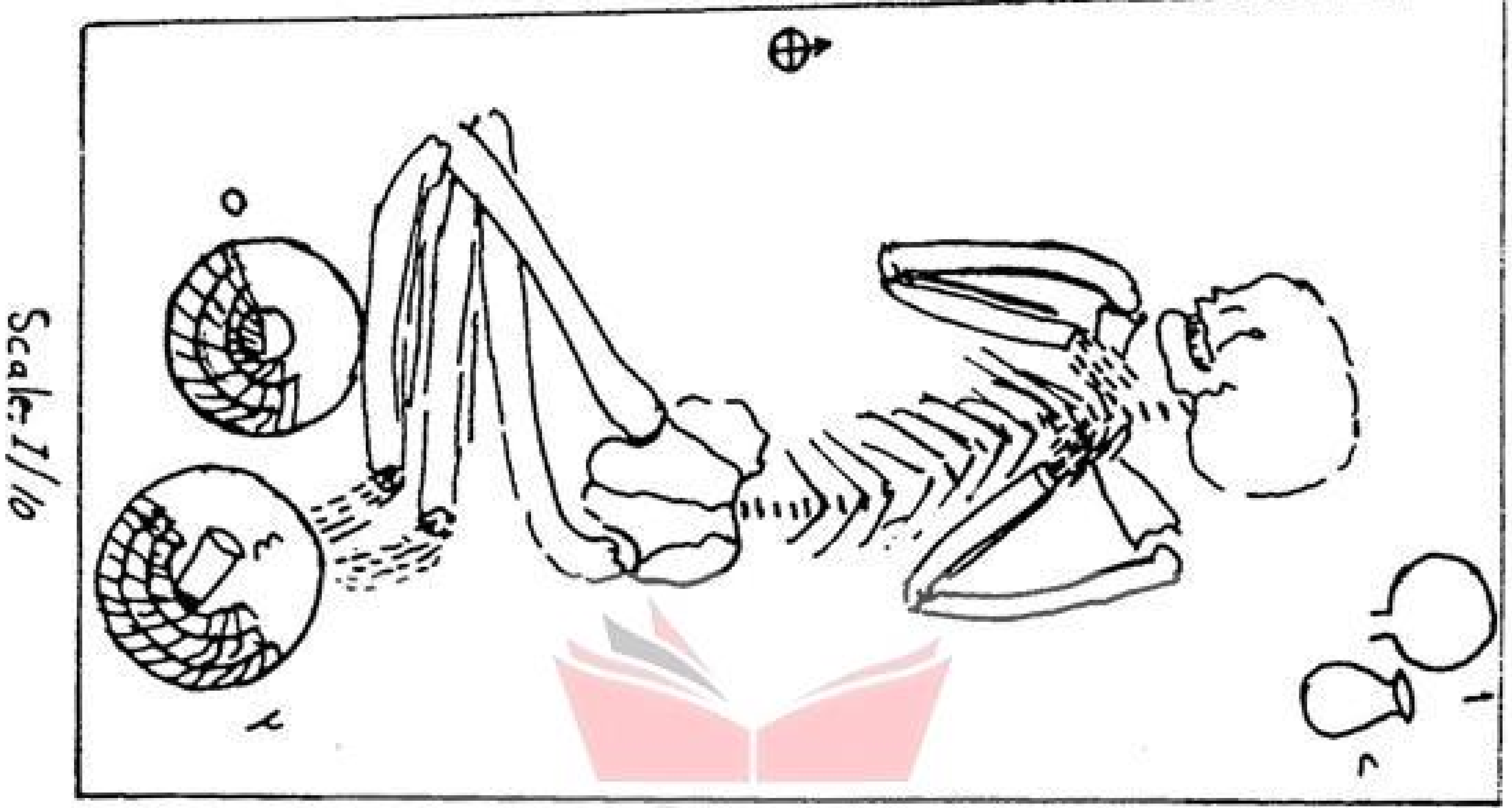


شكل رقم (١٨)
القبر رقم (١٧)

القبر رقم(١٨) الغرفة (٥٧):

هيكل عظمي لشخص بالغ بوضعية الأنثناء ، الرأس باتجاه الغرب موضوع على جانبه الايمن ، الايدي مرفوعة بأتجاه الوجه. رافقته بعض الاوعية في رحلته إلى العالم السفلي .فقد وضع دورق رقم (١) وجرة صغيرة (٢) خلف الرأس وعند اصابع القدم وضعت جرتان .الجرة التي في الجهة الشرقية والتي اخذت رقم(٣) وجد بداخلها كاس اخذ الرقم (٤) وجرة من الجهة الغربية اخذت الرقم (٥)

يبلغ طول الدفين حوالي ١٧٠ سم اقتطعت حفرة القبر في الطرف الغربي من الغرفة (٥٧) انظر الشكل رقم (١٩).



شكل رقم (١٩)
القبر رقم (١٨)

القبر رقم (١٩) الغرفة (٨٦):

كل ما وجد من هذا الهيكل عظام الساق، عندها وجدت جرة مكورة القاعدة. يزين كفها خطوط تلور حول البدن ،عند هذا القبر ومن جهة الشمال وجد قبر حديث كان السبب في فقدان القسم الاكبر من هذا القبر اقتطعت حفرة القبر في منتصف الغرفة (٨٦).

القبر رقم (٢٠) الغرفة (٨٢) :

فقد معظم اجزاء الهيكل العظمي . ماعدا عظام الساق والفخذ والتي عرفنا من خلالها اسلوب الدفن ، فكان مثل سابقيه ، موضوع على جانبه الايمن باتجاه الشمال رافقته جرتان ،احداهمابداخلها كاس ، اقتطعت حفرة القبر من الجدار الشمالي للممر المودي للغرفة (٨٢) .

القبر رقم (٢١) الغرفة (١٠٢) :

هيكل عظمي لشخص غير بالغ بوضعية الأنثناء ، الرأس باتجاه الغرب، موضوع على جانبه الايمن ، الايدى مرفوعة باتجاه الوجه ، رافقته اواني عند اصابع القدم وضعت جرة وخلف الرأس وضعت جرة اخرى . وعلى بعد ١٥ سم الى جهة الشمال من الرأس وضع دورق صغير مكور القاعدة . اقتطعت حفرة القبر في الطرف الغربي من الغرفة (١٠٢)

القبر رقم (٢٢) الغرفة (١٠١) :

هيكل عظمي غير بالغ بوضعية الأنثناء ، الرأس باتجاه الغرب ، موضوع على جانبه الايمن ، الايدى مرفوعة باتجاه الوجه ، وكذلك الارجل مسحوبة الى الاعلى رافقته برحلته الى العالم الثاني ، اربع اواني موضوعة امامه وباتجاه واحد تضم كاسا وثلاث جرار صغيرة متساوية بالحجم ، ولهذا الترتيب وضع خاص بالنسبة لقبور تل حلاوة ، اقتطعت حفرة القبر من الطرف الغربي من الغرفة (١٠١) .

القبر رقم (٢٣) الغرفة (١٠٣) :

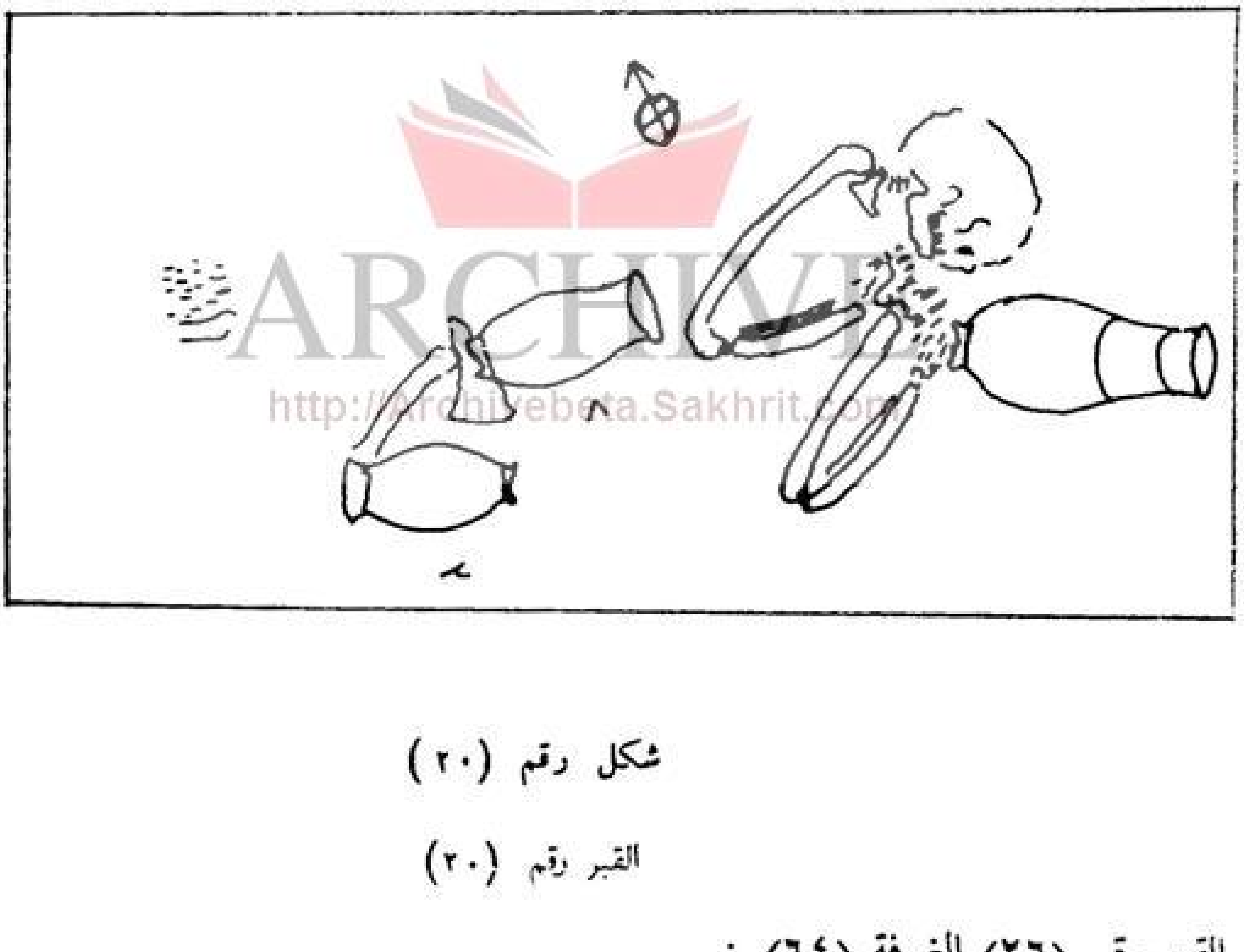
الهيكل العظمي بوضعية مشوشة ، يسبب فقدان اجزاء كثيرة الباقي منه الرأس والساعد والاضلاع وبقايا من عظام مشط القدم رافقته ثلاث اواني وضعت جرتان أمام وخلف الرأس ، وجرة عند اصابع القدم . اقتطعت حفرة القبر في الطرف الغربي من الغرفة (١٠٣) .

القبر رقم (٢٤) الغرفة (٢٦) :

هيكل عظمي لطفل صغير جداً كان موضوعا داخل وعاء من الفخار تبني مائل للحمرة مغطى بكسر من الفخار ، اقتطعت حفرة القبر في الزاوية الجنوبية من الغرفة (٢٦) .

القبر رقم (٢٥) الغرفة (١٠٦) :

هيكل عظمي لشخص بالغ بوضعية الأنثناء ، الرأس باتجاه الجنوب ، موضوع على جانبه الايمن ، الايدى مرفوعة باتجاه الصدر والوجه رافقت الدفين مجموعة من الاواني ، فقد وضعت جرة طويلة البدن امام الرأس ، كما وجدت جرتان عند عظم الحوض اقتطعت حفرة القبر في الطرف الجنوبي الغربي من الغرفة (١٠٦) انظر الشكل رقم (٢٠).



Scale: 1/6

شكل رقم (٢٠)

القبر رقم (٢٠)

القبر رقم (٢٦) الغرفة (٦٤) :

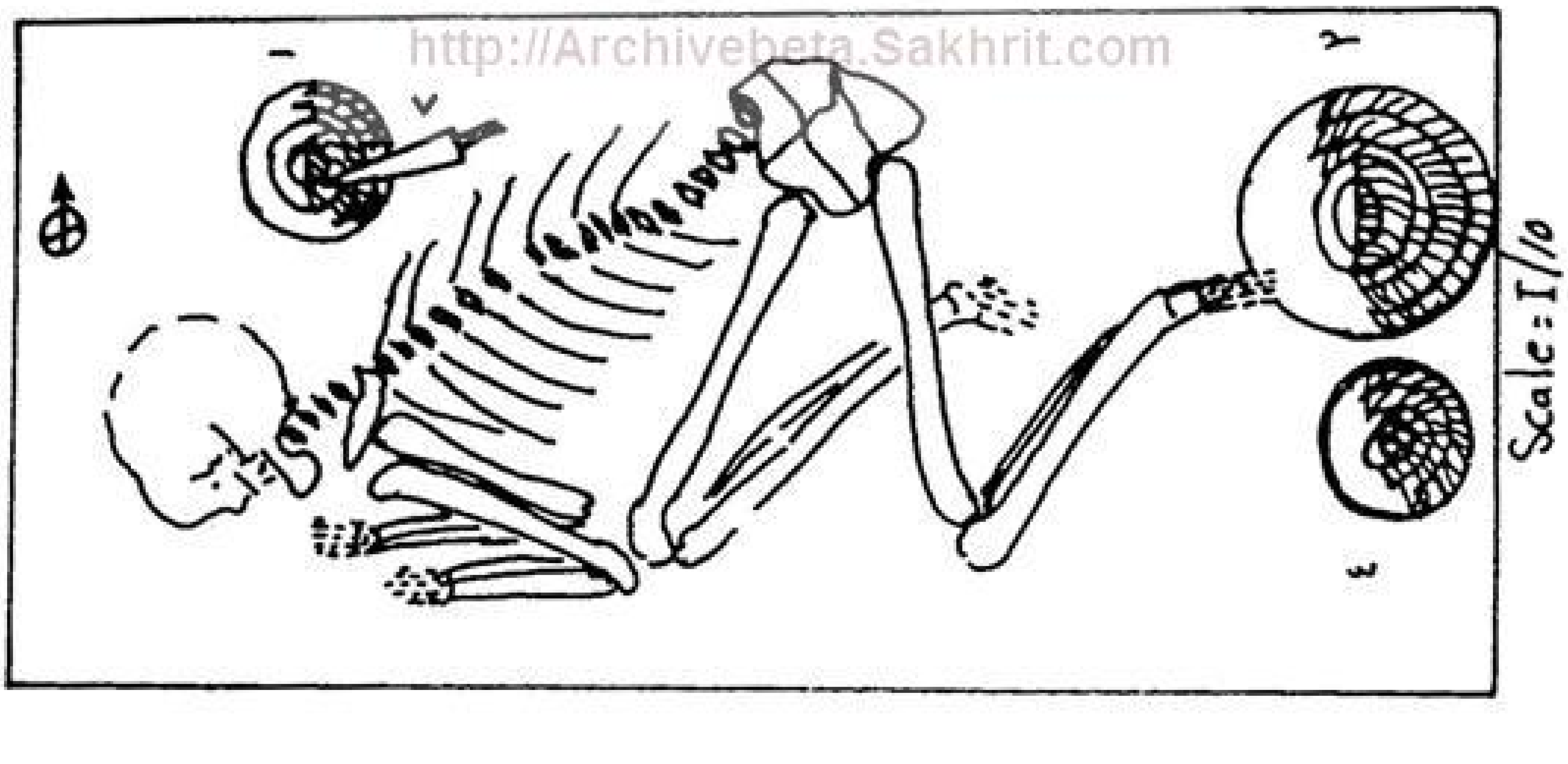
بقايا عظام مشوشة تضم عظام الاصابع وعظم العضد والساعد رافقته ثلاث اواني تضم جرة كبيرة وكاسا اسطوانيا مع جرة صغيرة ،اقتطعت حفرة القبر عند الجدار الشمالي للغرفة (٦٤) يعود هذا القبر للطبقة الثانية .

القبر (٢٧) الغرفة (٨٠) :

هيكل موضوع داخل جرة مشوش الشكل ، القبر مغطى بصحن ، اقتطعت حفرة القبر بالطرف المجاور للجدار الشرقي من الغرفة (٨٠) تحت التبان الثاني العائد للطبقة الاولى .

القبر رقم (٢٨) الغرفة (٧٩) :

هيكل عظمي لشخص بالغ بوضعية الأنثناء ، الرأس باتجاه الجنوب ، موضوع على جانبه الايمن ، وضعت معه مجموعة من الاواني والادوات تضم اناء نحاسيا رقم (١) وخنجر او سكين نحاسية رقم (٢) وضعت خلف الظهر ، كما وضعت جرتان عند اصابع القدم اخذت الرقمين (٣،٤) يبلغ طول الهيكل العظمي حوالي ١٧٠ سم ، اقتطعت حفرة القبر في الطرف الشمالي للممر (٧٩) يعود هذا الدفين إلى الطبقة الأولى الدور الثاني (انظر الشكل رقم (٢١) .



شكل رقم (٢١)

القبر رقم (٢٨)

جدول ابحائي للقبور ومخلفاتهـــا

رقم القبر	رقم الغرفة	عدد اواني الفخار	انواع الادوات الفخارية	عدد الخرز	عدد المسارج	جنس الهيكل	بقايا العظام
١	٩	٤	ــــــــ	ــــ	ــــ	ذكر	ناقص
٢	١٣	٤	ــــــــ	ــــ	ــــ		قليل
٣	١٢	٤	خنجر نحاسي او سكين	٣	ــــ	انثى	ناقص
٤	٤	٣	ــــــــ	ــــ	١	غير واضح	قليل
٥	١٧	٤	فاس من البرونز	ــــ	ــــ	ذكر	كامل
٦	٢٣	٤	ــــــــ	ــــ	ــــ	ذكر	كسر عظام
٧	١٤	٤	خنجر وبالطة وراسا رمح ودبوسان وحجلان ووعاء نحاسي	٧٣	ــــ	انثى	ناقص
٨	١٧	٤	ــــــــ	ــــ	ــــ	طفل	ناقص
٩	٢٠	٢	دبوس وحلقة من النحاس	موجود	ــــ	انثى	كامل
١٠	٤٣	٥	دبوس وحلقة من النحاس	ــــ	ــــ	ذكر	كامـــل
١١	٥٧	٢	ــــــــ	ــــ	ــــ	ذكر	كامل
١٢	٦٠	٤	ــــــــ	ــــ	١	طفل	داخل جرة
١٣	٦٠	٢	ــــــــ	ــــ	٢	طفل	كسر عظام

١٤	٩٧	٧	حلقة صغيرة (وشم) ودبوس، وحلقة وقطع معدنية غير واضحة وسكين نحاسية	موجود	١	أنثى	كامل
١٥	٦٣	٣	ـــــ	ـــــ	ـــــ	ذكر	ناقص
١٦	٧٣	٢	ـــــ	ـــــ	ـــــ	ذكر	كامل
١٧	٧٥	٣	ـــــ	ـــــ	ـــــ	ذكر	قليل
١٨	٥٧	٣	ـــــ	ـــــ	ـــــ	ذكر	كامل
١٩	٨٦	١	ـــــ	ـــــ	ـــــ	ذكر	كسر عظام
٢٠	٨٢	٣	ـــــ	ـــــ	ـــــ	ذكر	كسر عظام
٢١	١٠٢	٣	ـــــ	ـــــ	ـــــ	طفل	
٢٢	١٠١	٤	ـــــ	ـــــ	ـــــ	طفل	كامل
٢٣	١٠٣	٣	ـــــ	ـــــ	ـــــ	ذكر	ناقص
٢٤	٢٦	١	ـــــ	ـــــ	ـــــ	طفل	عظام مشوشة
٢٥	١٠٦	٣	ـــــ	ـــــ	ـــــ	ذكر	ناقص
٢٦	٦٤	٣	ـــــ	ـــــ	ـــــ	ـــــ	كسر عظام
٢٧	٨٠	١	ـــــ	ـــــ	ـــــ	طفل	عظام مشوشة
٢٨	٧٩	٢	خنجر وأناء من النحاس	١	ـــــ	ذكر	عظام مشوشة كامل

البناء وتكوين صورة عن الماضي

من خلال ماتقدم نستطيع بناء صورة عن الماضي قائمة على أساس تحليل الاثاث الجنائزي المرافق للموتى ، لمعرفة الفكر الديني ،والمستوى الاجتماعي والاقتصادي والحربي .

فمن حيث المعتقد الديني فان الاثاث الجنائزي الذي رافق القبور لايمكن تفسيره إلا بوجود اعتقاد بالحياة مابعد الموت ، وإلا لماذا رافقت الموتى ؟ كما أن دفن الموتى بوضعية الانثناء ، يمكن ان يفسر بأكثر من تفسير واحد منها : أن نزول الروح وانفصالها عن الجسد يعني فقدان الحركة والنشاط ، أى فقدان حرارة الجسم ، وعندما يبرد الجسم يتقرفص بشكل يشبه الوضع الجنيني كما يحدث للشخص النائم في مكان بارد . وقد يكون هذا هو الهدف من وراء هذا الاسلوب في الدفن . وتفسير آخر يمكن أن يقدم لاسلوب الدفن هذا ، ان الانسان اراد ان يقلد وضع الجنين وهو في بطن أمه .

أما التعليل الاجتماعي لمعرفة الطبقات الاجتماعية ، من خلال دراسة القبور لايمكن ان يعطي لنا صورة واضحة عن المجتمع البابلي في تل حلاوة ، ومع ذلك حاولت تحليل بعض الادلة على ضوء المكتشفات الجديدة التي عثر عليها في تل حلاوة . ان أغلب القبور عبارة عن دفن بسيط ماعدا القبر رقم (٩) مبني باللبن والقبور الاخرى داخل أوعية من الفخار لاتشير إلى وجود أى تمايز كما أن هناك شبهاً كبيراً بين الاثاث الجنائزي الممثل بالأواني الفخارية والاسلحة الحربية والاميال (الدبابيس) التي تستعمل لتصفيف الشعر أو للملابس والقلائد بين القبور على الرغم من الاختلاف بين قبر وآخر في نوع المحتوى الجنائزي أنظر الجدول في صفحة(٦٦—٦٧)أوليس في كل القبور قلائد أو أسلحة.هذا التفاوت لايعني وجود طبقات اجتماعية متميزة ،وانما يرجع إلى ممتلكات الشخص أثناء حياته فتدفن معه كمعدات يستفيد منها في حياته الثانية . ويبدوأن جميع سكان هذا المستوطن يستطيعون الحصول على الأواني الفخارية

والادوات الأخرى بدليل التشابه بينهما . أما إذا أخذنا حجم البناء ومخطط الوحدات السكنية فلايوجد اختلاف بين وحدة وأخرى وهكذا يبدو أن المجتمع الذي كان ساكناً في هذا المستوطن متقارباً ومتكافئاً في مستواه ، لانه لم يعثر على دلائل مميزة كقلائد وأسورة من الذهب وغيره أو قبور مبنية بتفاوت وتمايز كبير ،ماعدا القبر رقم (٩) الذي ورد ذكره أعلاه والذي كان مبني باللبن وكان محتواه الجنائزي لايشير إلى وجود أي اختلاف. أما المستوى الاقتصادي فهو من الامور الصعبة التي لايمكن استنتاجها من الاثاث الجنائزي ،ولكن لو أخذنا ماوراءهذه المخلفات للمسنا أن هناك مستوى صناعياً عالياً ممثلا بمحترفين بصناعة الفخار والاسلحة الحربية وعمل القلائد المختلفة. منها تبين أن هناك نوع الصناعات كل الفخار والحدادة والخياطة والنساجة أما الاسلحة الحربية فكانت صناعتها دقيقة جداً وخاصة الفؤوس والخناجر والسكاكين ورؤوس الرماح ،فهذه تشير إلى وجود جيش يمتلك قدرة حربية في هذا المكان الذي اعتبرناه أحد مستوطنات دويلات المدن التي ظهرت في منطقة ديالى، واستنتاجاً لما سبق نلخص مايلي:

١: اعتقاد سكان تل حلاوة بحياة مابعد الموت

٢: هناك تشابه بين مخلفات القبور في تل حلاوة ومخلفات القبور في مناطق كثيرة أي هنالك شبه عام في عقائد القدماء بشأن الاخرة.

٣: الاثاث الجنائزي يشير إلى وجود طبقة اجتماعية ذات مستوى رفيع متوسط.

٤: ان المستوطن يعود إلى العهد البابلي القديم احتمال إلى مملكة اشنونا .

٥: دفن الموتى بوضعية الأنثناء وباتجاهات مختلفة .

التأثيرات الرواقية في رسالة دفع الأحزان للكندي

فضيلة عباس مطلك

لقد تناول الباحثون في مجال الفلسفة ، فلسفة الكندي باعتباره اول فيلسو عربي ومن خلال ماجاء في كتابات الباحثين ان الكندى فيلسوف متأثر بأفلاطون وارسطو ، الا أنني وبعد ان اطلعت على الرسالة التي كتبها وهي رسالة في دفع الاحزان كما نشرت في كتاب فيلسوف العرب الاول (الكندي) (١) او كما ذكرت في كتاب اعلام العرب لاحمد فؤاد الاهواني (الحيلة لدفع الاحزان) والذي يقول فيها انها رسالة نشرت في ١٩٣٨ م عن مخطوطة وحيدة نشرها الاستاذ ريتر مما شجعني على ان اطلع وا درس مااحتوته هذه الرسالة من افكار فلسفية وبعد الجهد الذي بذلته في تمحيص الرسالة واذا بي اطلع على ان الكندي في هذه الرسالة يبدو روا قيا ومن هنا تبدو الخطورة في بداية التفكير الفلسفي عند الاسلام ذلك لان الفلسفة الرواقية عرفت بانها مادية .
لكن رغم ان الروا قية عرفت بانها مادية لكنها بدت مادية عند روادها الاوائل ومنهم زيتون لان تعاليمه في الاساس قائمة على المزج بين المذهب الكلبي ومذهب هرقليطس ، غير ان الرواقيين اخذوا يبعلون عن المادية شيئا فشيئا بفضل امتزاج المذهب الافلاطوني الجديد لمذهبهم ، حتى لم يعد في النهاية الا أثر طفيف للمادية في مذهبهم او انه اعدم نهائيا على يد البعض منهم كما نبين ذلك فيما بعد والجانب الاخلاقي الذي عده معظمهم اهم الجوانب جميعا، والحق انه لم يتغير الا تغيرا ضئيلا جدا كما انهم في الفترات المتأخرة ازدادوا اهتماما في الاخلاق وخاصة في تلك الاجزاء من اللاهوت التي تتصل بالاخلاق اتصالا وثيقاً (٢) لذا سيقتصر بحثي على الجانب الاخلاقي عند الرواقين وتأثير هذا الجانب على الجانب الاخلاقي في رسالته في دفع الآخران ولهذا فبالرواقية نبدأ :
الرواقية من الناحية التاريخية كانت معاصرة للابقورية من حيث النشأة إلا انها كانت أسعد حظاً منها حيث كتب لها أن تستمر لفترة اطول وان تعاليمها تغيرت من فترة الى فترة حيث ان تعاليم مؤسسها زينون في الشطر الاول من القرن الثالث قبل الميلاد لم تكن هي نفسها التعاليم التي أخذ بها مرقص

اورليوس في النصف الثاني من القرن الثاني بعد الميلاد (٣) ، وهي على العموم مدرسة فلسفية طالبت باستئصال الشهوات وجمع الاهواء ووأد الرغبات ومحاربة المشاعر والوجد وهو عندهم الطريق إلى السعادة ، والسعادة وهي طمأنينة النفس وهدوء البال عن طريق محاربة الجسم واستئصال شهواته، والحد من رغباته والانصراف إلى حياة الزهد والحرمان (٤). وهذه عناصر دينية احس العالم بأنه بحاجة اليها . ان الرواقية اقل اصطباغاً بالروح اليوناني من اية مدرسة أخرى من المدارس الفلسفية (٥) المدرسة الايونية — مدرسة ملطيا .. الخ (٦) ذلك لان الرواقيين الاولين سوريون ، كما كان معظم كما كان الرواقيين المتأخرين من الرومان ويشك تانن (في كتابة المدينة الهلينستية) في وجود آثار كلدانية في المذهب الرواقي والنزعة الدينية اثرت في الحكام لذا اعلن كل الذين خلفوا الاسكندر في الحكم تقريباً بأنهم رواقيين . (٧) واتخذ الرواقون الاوائل من سقراط أماما لهم لموقفه من المحاكمة ورفضه الفرار وهدؤوه ازاء الموت ، وبساطته في امور الطعام والثياب وعزوفه عن كل لذائذ الجسد . (٨) ولقد نظر الراقيون إلى الطبيعة بأنها تسير وفق ارادة مشرع يسن القوانين ويتصف بحب الخير فقد رسمت الطبيعة وفق غايات يمكن ادراكها في حياة الانسان فلكل شيء غاية متصلة بين الانسان فبعض الحيوانات صالح للاكل وبعضها يهيىء اختباراً للشجاعة وقس على هذا المنوال . وتسمى (القوة) العليا التي يخضع لها هذا الكون احياناً بكلمة الله واحياناً بكلمة زيوس وقد ميز سنكابين زيوس هذا وبين ذاك الذي يعتقد فيه عامة الناس من هنا يتضحان الرواقيين يعتقلون بالإله غير الذي يعتقد به عامة الناس ، وليس الله منفصلا عن العالم بل هو روح العالم ، وكل منا فيه جزء من «النار الالهية» وكل الاحياء اجزاء من شق واحد ،نسميه الطبيعة وحياة الفرد خيرة مادامت متلائمة مع الطبيعة في نغم واحد ، بل يجوز لنا أن نقول ان كل حياة متناغمة مع الطبيعة لانها حياة قد استوجبتها قوانين الطبيعة لذلك قال زينون عبارته «الحياة وفقاً للطبيعة» (٩) ايضاً تصرف بمقتضى

قوانين الوجود لشريعة العقل الذي يميز الطبيعة الانسانية من الطبيعة الحيوانية ويتبع ذلك سيطرة العقل على شهوات الانسان ورغباته ، لذلك فكل موجود حي يملك بنيته الخاصة وله شعور بها فهو دائم البحث عما يلائمها والابتعاد عن كل مايخالفها والمقصود بالملائمة الموافقة مع الطبيعة وموافقة الطبيعة عند الانسان هو الوفاق مع العقل لان العقل يمثل الجزء الرئيسي في الانسان وان العقل الانساني هو جزء من العقل الكلي أى الكون باسره وبالعقل نحيا على وئام مع انفسنا ومع العالم اجمع (١١) وعند تقدم الرواقيين نشاهد ايضاً تقدم الفكر الانساني عند الرواقيين لذا نلاحظ ان (كريسبوس) يرى أن (زيوس) وحده النار العليا هو الخالد اما ماسواه من الالهة بما في ذلك الشمس والقمر فتولد وتموت وانه جعل الله بريئاً من الشر . (١٢)

الفضيلة عند العراقين وتأثير الكندى بها :

الفضيلة هي الخير الاوحد في حياة الانسان الفرد ولا اعتبار لاشياء كالصحة والسعادة والملك ، وتتألف (الفضيلة) من (ارادة) متفقة مع اتجاهات الطبيعة، ولئن كان الاشرار بطبيعة الحال يطيعون قانون الله بفعلهم الشر الا أنهم يقترفون شرهم هذا على غير ارادة منهم، فهم كما شبههم «كلنيثز» كالكلب ربط إلى عربة واجبر على متابعة العربة حيثما سارت ، ولما كانت الفضيلة قائمة في الارادة فكل ماهو خير حقاً أو شر حقاً في حياة الانسان ، يتوقف عليه هو نفسه انه قد ينقلب فقيراً لفنه يستطيع ان يظل فاضلا متناغما مع الطبيعة ، الفضيلة وحدها الشيء الخير ومتوقفة على الفرد دون سواه لذلك فكل انسان مطلق الحرية بشرط أن يحرر نفسه من شهوات الحياة ومن الخطأ ان يكون للشهوات السيادة على الانسان والحكيم هو الانسان المتحكم في مصير نفسه لانه لاتستطيع قوة خارجة أن تسلبه فضيلته (١٣) والرجل الحكيم الذي يسير حياته وفقاً للطبيعة الخاصة والطبيعة العامة وهو بهذا مواطن في هذا العالم والرجل الخبيث فهو في حالة صراع مع نفسه وخلاف

معهـا ومـع المـوجـودات جميعـاً وبهـذا أجنبي في المدينة العظمى لانهـم اعتبروا هـذا العالم باسره مدينة واحدة يحياها الناس جميعاً ومـن يشق عصا الطاعة عن نفسه ويخرج عنها كانما شق عصا الطاعة على الحياة باسرهاالتي سموها بالمدينة العظمى(١٤). وذهب كر «يسبوس»إلى أن الرجل الخير سعيدادائماً وان الشرير شقي دائماً وان سعادة الرجل الخير لاتختلف في شيء عن سعادة الله .وان« كلينثيز »يرى أن الارواح جميعاً تظل قائمة حتى يجيء الاحتراق العام حيث يندمج كل شيء بالله ،لكن «كريسبوس» يذهب إلى أن ذلك لايصدق الا على أرواح الحكماء من الناس دون سواهم .والرواقيون الرومان اعتبروا كل الدراسات النظرية تابعة للاخلاق .وقال زينون في ذلك ان الفلسفة كالبستان المنطق جدرانه والفيزيقيا أشجاره والاخلاق ثماره ، أو هي كالبيضة المنطق قشرتها والفيزيقيا بياضها ،والاخلاق صفارها (١٤) .وبالرغم من التقدم الذي حصل على يد (كلينيثز) و(كريسيوس) في نظريتهم إلى النفس الانسانية إلا أنه حدث تغير كبير بعد (كريسيوس) على يد (بانيتيوس) وبوزيدونيوس لانه نفض يده من من النزعة المادية وقرر على أن الروح تظل حية في الهواء إلى أن يحل بالعالم الاشتعال التام .وان الاشرار بعد الموت لايكونون سعداء كالاخيار،لان الخطيئة تجعل أبخرة الروح طينية هذا الطين يمنع النفس عن الصعود إلى حيث تصعد أرواح الخيرين والممعنون في الشر يظلون على مقربة من الارض ويعودون عن طريق التناسخ والفضلاء يصعدون إلى عالم النجوم . حيث يقضون زمانهم يرقبون النجوم في دورانها ويرى ابكتاتوس أن الروح الهية وان الجسد مادي حيث يقول اننا على هذه الارض سجناء نعيش في جسد من تراب ويروي عنه مرقيص أو روليوس أنه اعتاد أي ابكتاتوس أن يقول انك روح صغيرة تحمل معها جثماناً ان زيوس(الاله) لم يستطع أن يجعل الجسد حراً لكنه نفخ فينا نفخة من قدسيته: ان الله هو اب الناس ،ونحن كلنا اخوة ،فلاينبغي لاحد منا أن يقول: أنا«اثيني» أو « أنا روماني» بل يقول « أنا مواطن ووطني هذا الكون» (١٦) وان هذايؤكد فكرة العالمية أو فيما سميت بالجامعة الانسانية (١٧). وانه يرى أننا لو عرفنا

حق المعرفة أن الفضيلة هي الخير الحقيقي الوحيد رأينا أنه يستحيل أن يلم بنا شر حقيقي كما أنه يؤكد على الارادة حتى أنه يذهب في قوله على أن الاله لايستطيع قهر ارادته حيث يقول : أن زيوس ليعجزعن قهر ارادتي (١٨) . ويسترسل الرواقيون في طرح الافكار التي تثبت طاعتهم إلى الاله حيث يقررون انه ينبغي ان يخضعوا إلى الاله كما يخضع المواطن الصالح للقانون ، فما انهم يؤكدون احترام النفس اولا وانهم حين ذاك أي حين تقف ازاء جلال الانسان ، تذكر ان كائناً آخر ينظر من علل الى مايجري وانه لابد لك أن ترضيه قبل أن ترضي هذا الانسان (١٩) وان على الانسان كما يرى الرواقيون أن يتحرر من الغضب والحسد والغيرة وقد ساوى ابكتاتوس بين الناس ذلك باعترافه بالاخاء بين الناس ودعا إلى تحسين حالة النساء والعبيد وتعليله بأن العبيد متساوون مع سائر الناس ، لان الناس جميعاً سواء في كونهم ابناء الله (٢٠) . وان هذا المبدأ خرجت به الرواقية عند المبدأ المألوف قديماً وهو التمايز الطبقي وخروج ايضاً عن افلاطون وارسطو في نظامهم الذي ارادو في دولة المدينة (٢١) بل هو اقرب إلى روح الاسلام حيث ساوى بين الناس جميعاً ، الناس سواسية كأسنان المشط ، ولافضل لعربي على اعجمي إلا بالتقوى . هذا ماقال به الرسول العظيم محمد (ص) .

ويؤكد الرواقيون على أن الحياة المتناغمة مع الطبيعة هي الخير ، والتناغم مع الكون هو نفسه الذي يسمى اطاعة ارادة الله . وكما قال مرقص اورليوس: ان كل مايتناغم معك ايها الكون يتفق واياى ، ان كل مايقع في الوقت المناسب بالنسبة لك ايها الكون ، لايكون بالنسبة لي وقد وقع اوانه ولا بعد اوانه ، ان كل مانجي به فصولك هو فاكهتي ايتها الطبيعة ، ان كل شيء منك وفيك وكل شيء اليك يعود . وينطلق الرواقية في فكرة العالمية من الجزئي إلى الكلي فهم يرون ان الجنس البشري يؤلف جماعة واحدة ويقول مرقص أورليوس ان مدينتي ووطني هي روما بمقدار ماأنا انطونينوس ، أما باعتباري انساناً فمدينتي ووطني هو العالم وهو يرى ايضاً ان خبث انسان لايعود بالاذى على انسان آخر يقول ذلك وهو يفكر في المذهب القائل بأن الارادة الفاضلة وحدها

الخير (٢٢) . انه لاخير إلا للإرادة الخيرة على أن الإرادة تكون خيرة اذا ماالتجهت ناحية غايات معينة هي في ذاتها لاتتصف بخير او شر ، لكني اذا ماكنت فاضلا تصرفت على النحو الذي سيسعد الآخرين ذلك مايقتضيه القانون الاخلاقي مني . والانسان في معرفته بطبيعته وطبائع الاشياء استطاع ان يحدد موقفه منها والانسان قبل هذا وذاك يجب عليه ان يعرف كيف يعيش حياة فاضلة والانسان بمعرفته للحكمة يكون عارفاً والحكمة عندهم هي مخايرة الانسان للطبيعة . وعلى الانسان ان يرسم خطة للسير بمقتضاها وهذه الخطة ضرورية لضمان راحة الانسان وطمأنينته وراحة الانسان وطمأنينته بسعادته . ماذا تعني السعادة عند الرواقيين ؟ السعادة غيرخاضة للظروف وانما تتوقف على حالة في النفس للإرادة سلطان عليها فليست الاشياء الخارجية هي التي تؤثر بذاتها في وجودها الباطن وانما المؤثر الحقيقي هو استعدادنا النفسي الذي يجعلنا نحيا في هذا الظروف ونصدر احكامنا عليها بأنها حسنة او قبيحة خيرة أو شريرة . فالسعادة هي بمقدور كل فرد ان يحصل عليها اذا تحرر من اوهام الاحكام لذلك يقول ابكتاتوس : ان الذي يصيب الناس ويؤثر في حياتهم ليست هي الاشياء نفسها بل آراؤهم عن الاشياء (٢٣) ويستشهد بذلك على استقبال سقراط للموت فلو كان سقراط يرى الموت شرا لوقع الرعب في قلبه لكنه لم ير الموت شراً لذلك استقبله غير مبال فيه (٢٤) لذلك فالرديء ليس الموت نفسه وانما الخوف منه لذا فان الاشياء قد تؤثر فينا تأثيراً مباشراً لما تتركه فينا من لذة وألم أو خير وشر والخير هنا هو التوافق مع الذات ، اى التوافق مع الطبيعة الذاتية والشيء هو عكس ذلك تماماً (٢٥) ، وان الانفعالات من خوف او رجاء او غير ذلك من الانفعالات تتولد في النفس في كل ظرف من ظروف الحياة دون أن يكون للإرادة او احكام العقل سلطان عليها (٢٤) وان هذ الانفعالات النفسية هي حجر عثرة في طريق السعادة لذلك فهم وجهوا عنايتهم إلى السيطرة على هذه الانفعالات النفسية ذلك لان الانفعالات النفسية ماهي الاتصورات احكام عقلية وبهذا يكون

الرواقيون قد ميزوا بين الاحساس الجسماني وهو شيء لاقدرة لنا عليه وبين الموقف النفساني الذي تتخده النفس عقب الاحساس وهذا مايتعلق بقدرتنا وارادتنا وهذه الانفعالات تؤثر في الانسان اذا كان عرضه لخواطر وظنون واوهام تستطيع الارادة الانسانية ان تحول دون تسربها إلى النفس . اذن فهذه الخواطر التي تولد الانفعالات هي احكام خاطئة ينبغي محاربتها لاباسم السعادة بل باسم العقل لان الرواقيين وحدوا بين (الله) و (العقل) فاحياناً يورد باسم (الله) واحياناً باسم (العقل) وباسم الطبيعة ذلك لان طلب السعادة هو النظر إلى الطبيعة نظرة عقلية . فالعقل هو الجزء الرئيسي فينا وان حياتنا وفق طبيعتنا هي حياتنا وفقاً لما يراه العقل (٢٧) .

الاخلاق المثالية والاخلاق الشعبية :ـ

الاخلاق الحقيقية هي وحدها التي تصدر عن الاخلاق العقلية لاعن الاخلاق الشعبية والاخلاق النظرية هي اخلاق الحكيم وتسمى اخلاق عامة الناس بالاخلاق الشعبية او العملية (٢٨) . ولذا نرى ان الفيلسوف الرواقي اذا فكر في نفسه هو ، ذهب إلى أن السعادة وكل مافي هذه الدنيا مما يسميه الناس طيبات اشياء لاقيمة لها قاصداً بذلك إلى أن طلب السعادة ينطوي على نقص في استكانة الانسان لارادة الله .

واذا كان الرواقي رجل علمي يقوم بادارة الامبراطورية الرومانية ، كما كان مرقص أو رليوس فانه يدرك أن هذا لاينفع وعليه ان يقوم بادارة الدولة بما يتلاءم والحياة التي تسري فيها فهو يقبل المعايير الدنيوية العادية لقياس الخير والشر وهو لايستطيع تطبيق واجبه الاداري الا وفق هذه المعايير لذلك فالخيرالذي يعرفه عامة الناس ليس هو الخير الذي يعرفه الحكيم الرواقي .(٢٩) ولقد لاحظنا ان الاخلاق عند الرواقيين الاوائل لابد أن تنحل إلى الطبيعيات وان المثل الاعلىهو أن يفعل الانسان بحسب ماتقتضيه الطبيعة وان ينظر إلى الاحداث بعد ذلك بحسبانها متساوية فلا فرق في الواقع بين خير وشر مادام كل شيء يسير وفق ماتقتضيهالضرور

الانسانية ولابد أن تنحل إلى الطبيعيات (٣٠) والاخلاق في رأي الرواقيين لاتصدر عن الاحوال الخاصة بل تصدر عن المزاج الشخصي لانهم أكلوا على الفردية التابعة للكون (مقتضى الطبيعة) دون أن يراعوا الفردية الخاصة بالميول والاهواء والتي تؤكد على مراعات ميول الفرد نفسه الفرد هنا مرهون بما عليه (الطبيعة) القانون الطبيعي ومن هذه الصفات التي يتخذ بها الرواقي هي أن يكون مع الله كائناً واحداً ،ولايلوم الله أوالناس على شيء ولايشعر بالاخفاق في شيء ولايحس سوء الحظ في شيء ..... مريضاً ويكون في مرضه سعيداً ، معرضاً للسطو وهو سعيد مع أنه في تلك الحالة ،يحتضر وهو يشعر بالسعادة ،منفياً وسعيداً مجللا بالعار وسعيداً .وهذه الصفات عندما يبلغها الشخص يكون قد بلغ المثل الاعلى واصبح رواقياً بالاضافة إلى بعض الصفات التي قد ورد ذكرها سابقاً .(٣١) وبهذا نخلص إلى النتائج النهائية من الفلسفة الرواقية في كونها :

١ : لم تكن فلسفة مادية في كل أطوارها أو الفترات التي مرت بها وانما كانت كما توضحت لي بانهم فلاسفة عقليين يفسرون الاخلاق تفسيراً عقلياً وهو ارجاع العقل الجزئي إلى العقل الكلي العقل الجزئي هو العقل الانساني والعقل الكلي هو العقل الكوني العقل الالهي وان الطبيعة عاقلة تسير وفق قوانين عامة وهي القوانين الطبيعية وهي منظمة العقل الكوني نظمها ورتبها لذا يجب أن يسير الانسان بمقتضى الطبيعة وكما قال مرقص (عش على وفاق الطبيعة) لانها منظمة ومحكومة من قبل العقل الكلي وهي سعيدة بذاتها لذا يجب أن يسير الانسان بمقتضاها لاجل أن سعيدا بموافقته لها .

٢ : لم يكن الرواقيون ماديون في كافة ادوارهم في تفسيرهم للنفس وانما اختلفت بمختلف الادوار التي مر بها، الرواقيون، الاوائل ماديين اما عند ما تقدمت الفترة ومثلما توضح لنا لم يكونوا كذلك حيث ان (بوزيد ونيوس) نفض يديه من النزعة المادية حيث قرر ان الروح تظل حية في الهواء ثم ان الأشرار بعد الموت لا يكونون سعداء كالاخيار لان الخطيئة تجعل ابخرة الروح طينية فلا تستطيع الصعود حيث تصعد ارواح الخيريين الى عالم النجوم

ويرى (ابكتانوس) ان الروح الهية وان الجسد مادي. وانه ميز بين الجسد والروح.

٣ : اتصفت المدرسة الرواقية من خلال مااتضحت لي بأنها مدرسة ذات نظرة زهدية للحياة لانهم كانوا يفضلون حياة البساطة .

٤ : ميزوا نوعين من الاخلاق اخلاق الحكيم الرواقي واخلاق عامة الناس ونتنقل من فلسفة الرواقيين الاخلاقية إلى فلسفة الكندي لنقف على مدى التأثير الذي تأثر به الكندي من هذه المدرسة.

السعادة والشقاء عند الكندي :

السعيد في رأي الكندي من تمت له ارادة منسجمة مع طبائع الامور والاحداث والشقي من تكون له ارادة وتطلعات فوق ما تعطي طبائع الامور وهو بذلك يقول : والطلبات الحية فانها موقوفات لكل واحد ومنديل لكل يد لا يمكن تحصينها، ولا يؤمن فسادها، وزوالها، فيعبر كل ذلك بعد ما كان يؤنس بقربه موحشا، وبعد الثقة بطاعته عاصيا، وبعد اقباله مدبراً، اذ ليس في الطبع ان يكون ما ليس في الطبع ومن اراد ما ليس في الطبع اراد ما ليس موجوداً، ومن اراد ما ليس موجوداً عديم طلبته والعادم طلبته شقي، فمن اراد الموقوفات، واراد ان تكون قنيته، ومحابه فالحزن وفق ما ورد على لسان الكندي ثورة على طبائع الاشياء لفقده طبيعة من طبائع العالم . الطبيعة اذن خيرة بذاتها سعيدة بذاتها خالية من الالم والشر وبالتالي فهي خالية من الحزن ، الذي يصنع هذة الالام والاحزان هو الانسان بخروجه على طبائع الامور كما هو مبين على لسان فيلسوف العرب الاول الكندي وهذه الحالة تبين لنا حالة الانسان الشقي ، اما من تمت له ارادة وفق ما تقتضيها الطبيعة فهو الانسان السعيد ، والانسان بخروجه على الطبيعة يكون قد شق عصا الطاعة واحدث ثورة على طبائع الامور (الطبيعة) وصار من المتمردين عليها وعقاباً له قد اصبح من الاشقياء وكان

نصيبه الالم . وهو بذلك يقول : ينبغي ان نحرص على ان نكون سعداء ، وان نحترس من ان نكون اشقياء ، بل تكون ارادتنا ومحبوبتنا ما تهيأ لنا ، ولا نأسف على فسائته ، ولانتطلب غير المتهيأ من المحسوسة ، بل نكون اذا شاهدنا الاشياء التي يتمتع بها الناس من المحبوبات في العقل ، اعني قدر ما بالنفس اليه الحاجة في تثبيت في صورتها أيام مدتها المقسومةلها واثمار مثلها وما وقع عنها الالم وافادها الراحة تناولناه بالامر الاجمل بقدر الحاجة(٣٣).

فالكندي يريد ان يقول هنا نحرص على طلب السعادة ونحترس من ان نكون اشقياء وبالاضافة الى ذلك علينا ان نكون قنوعين بما يتهيأ لنا اي بما توفره لنا الطبيعة من اشياء وانه لايناقش بما فرض عليه وامن بالاستسلام ويسميها القسمة ورغم استسلامه لها الا انه مع ذلك يطلب استثمار ما وقع له فيبعد بذلك الاستثمار الالم عن نفسه والمقصود هنا هو استثمار الظروف والايام الى صالح النفس بالابتعاد عن الالم واتخاذ منها الامر الجميل بقدر ما تمليه عليه حاجته .

والكندي هنا يورد في كلام القدر ويذكر القسمة وكيفية ان الانسان مسير وفق ما يمليه عليه القدر وهو مجبر على ان يقبل ذلك الا أنه مع ذلك عليه ان يوظف هذه الظروف قدر المستطاع الى صالحة وهو ابتعاد عن الالم واتخاذه السبيل الذي يؤدي به الى السعادة .اكثر او انه يريد ان يقول نحن لانريد ان نجعل الالم يدخل الى نفوسنا اذا جعلنا في نفوسنا ثغرة للدخول منها فنحن لانعير اهمية لكل ما يحدث لنا وانما الاستثمار يكون لصالح سعادتنا وليس الا الالم الذي يثير فينا الحزن . وهو بذلك يقول : «ينبغي اذ لم يكن ما نريد ان نريد يكون ، وان لانختار دوام الحزن على الدوام السرور وان من احزنه فوت الفائتات وعدم المعدومات لم يتصرم ابداً لانه في كل حال من مدته يفقد محبوباً ، يفوته مطلوب لحزن والسرور ضدان لايثبتان في النفس معاً ، فاذا كان محزوناً لم يكن مسروراً ، واذا كان مسروراً

لم يكن محزوناً ، فينبغي اذن أن لانحزن على الفائتات ، ولا فقد المحبوبات وان نجعل انفسنا بالسعادة الجميلة راضية بكل حال لنكون مسرورين ابداً ويقرر الكندي هنا اختيار السرور وترك الالم لان الانسان يستطيع ان يحصل على السعادة بارادته لان بارادة الانسان ان يحمل نفسه على ترك الالم وان يواظب الانسان في تحمله على ترك الالام وان يسلك طريق السعادة وطريق السعادة بما متوفر له من ارادة لمسايرة الطبيعة لانها خارج الارادة وخارج النزوع الذي يثير الانسان الجري وراء الشهوات التي تسبب له الالام ولذلك فهو يرى ان هذه الامور اي المحبوبات والمكروهات هي اشياء حسية وليست لازمة بالطبع فعلينا اذن ان نحمل انفسنا على استعمال المحبوبات من الامور حتى تصير عادة وان نترك المكروه وان نتجنب الالم لانه باعث (٣٥) على الحزن بذلك يجب ان لانختار دوام السرور لانهما ضدان لايثبتان في النفس الحزن يطرد السرور والسرور يطرد الحزن (٣٦) ويعرف الكندي الحزن بانه (الم نفساني يعرض لفقد المحبوبات او فوت المطلوبات) (٣٧) ويرى الكندي انه من العوامل التي تساعد على بقاء الحزن واستمراره هو التفكير بالماضي او كما يسميها بالفائتات لان التفكير بالماضي او الانقطاع عن الحاضر وعن التفكير في المستقبل ولهذا وجب ان لانحزن على الفائتات من الامور لانها لاتسمح لفكرنا ان يستمر في التفكير وان ينتج وانما نستمر في حالة الالم وهذا خطأ كبير في رأي الكندي وانه من الافضل ان نجعل انفسنا بالسعادة الجميلة راضية بكل حال لنظل مسرورين ابداً والناس مختلفين في مطالبهم فمنهم من يرى سروره بالمأكل والمشارب والملابس (٣٧) .

وكل ما خلف ذلك عنده وحجبه عنه يرى مصائب ونقصاً ونرى الشاطر بشرارة سننه وخشونه استعماله وما فيها من المعاطب الفاحشة الموحشة من ضرب اسياط وقطع الاعضاء وكثرة الجراحات المؤلمة ودوام الحرب المتصلة حتى تتناهى به مطالبة الى الصلب ويعتقد هذه المعاطب فخراً وشرفاً

وبذلك كله بهجاً (٣٨) ومن هذا يتضح لنا ان المكروه والمحبوب الحسي ليس شيئاً في الطبع لازماً بل بالعادات والممارسة فالشقاء اذن حالة عارضة وما دامت عارضة فهي زائلة وغير ثابتة ومتغيرة من حين الى آخر وعلى الانسان يكره الردىء ويستشهد بمثال الموت فالموت في حد ذاته ليس برديء لانه انتقال الروح من عالم المحسوسات إلى عالم المعقولات او الى عالم الخير او هو بتعبير الاسلاميين الانتقال من دار الفناء الى دار البقاء وهي الاخرة لذلك يجب ان لا نكره الموت لان الموت ليس برديء اما الردىء هو الخوف منه(٣٩) ، الموت هو تمام طبعنا فان لم يكن موت لم يكن انسان لان حد الانسان «هو الحي الناطق المائت، والحد مبني على الطبع اي ان لم يكن ميتاً فليس بانسان(٤٠)» لذا فان الموت في حد ذاته ليس برديء انما الردىء هو الخوف منه فالذي يكرهه ليس الموت وانما الخوف منه وما دام الخوف منه هو الردىء اذن يجب ان لا نخاف لان الخوف حالة عارضة في النفس وهذه الحالة رديئة فعلينا تركها، ويجب علينا او لزاما علينا ان نبحث عن كل ما هو باعث (٤١) على السعادة وفق الارادة لانسانية الخاضعة لقوانين الطبيعة ووفق طبائع الامور(٤٢) والكندي بعد هذا وذاك يريد منا ان نترك التفكير بالفائتات لانها تثير فينا الالم ولذا فهو يرى انه «ينبغي ان يكون منا على بال عند كل فائته، ومعلوم ما بقي لنا من قوانا الحسية، والعقلية ان نتشاغل بذكرها، وتعاديدها عن السالفة فان في تذكر الباقي سلوة من المصائب، وايضا قد يكون منا على بال عند كل محزنة من فائت او تالف، من الحسية ان الذي بقي علينا من ترقب المصائب بعد قنياتنا الحسية وانه قد سقط عنا يقلل بعض المحزنات، فان ذلك بت في ذكرنا نقل المحزنات عن طبع المصائب إلى طبع النعم فكل ما قلل القنية الحسية التي كلما عدمنا منها شيئا اكتسبنا عند انفسنا مصيبة لنعمة لذلك من لم يقتن الخارجات عنه ملك واعني الغضب والشهرة الذي هما ينابيع الرذائل والالام(٤٣) لذا فان الالم النفسي يحصل نتيجة تفكيرنا في المصائب فعلى الانسان العاقل ان يوظف هذا التفكير لاجل الحصول على النعمة وهي نعمة السعادة

وترك الالم ويوص بترك كل ما يمليه علينا احساسنا يصف الشخص الذي لا ينساق وراء ما يمليه عليه حسه بانه ملك لانه لم يعر اهتماما إلى الغضب والشهوة . الذين هما مصدر الالام والرذائل النفسية لان الانسان العاقل عليه ان يفكر ليس في الاحاسيس فقط دائماً بما تتركه فينا من اثار عقب كل احساس اذن فلزاما علينا ان نكون قادرين بارادتنا ان لا نجعل هذه الاحاسيس والانفعالات تؤثر فينا ذلك لانها تبعث فينا الالم وتمنعنا عن التنعم بالسعادة ويرى الكندي انه من استطاع ان يستثمر عقله يترك هذه الاحاسيس باعتبارها آفة من آفات الجهل وعليه ان يتجه إلى ما يمليه عليه عقله ويخلص في النهاية الى حصوله على السعادة وبذلك يبلغ بها الى افضل وطن من دار القرار ، ومحل الابرار .(٤٤) ويسترسل في الكلام ويقول :« كمل الله لك السعادة في داريك ، وجلل الاحسان فيهما اليك وجعلك من المقتدرين المتنعمين بجني ثمار العقل ، وباعدك عن ذل حساسة الجهل المطلوب ، فقد تنولت النهاية من المراد »

اخلاق الملوك واخلاق العامة :

لقد وضحنا في بحثنا عن الاخلاق الرواقية بانهم قسموا الاخلاق الى اخلاق سميناها شعبية لانها تخص عامة الناس وهي الاخلاق العملية واخلاق نظرية هي اخلاق الحكيم او الرواقي وهي اخلاق الخاصة ، وقد تأثر الكندي بهذا التقسيم فقسم الناس على النحو المذكور اخلاق عامة واخلاق خاصة ، العامة هي لعامة الناس اما الخاصة فهي اخلاق الملوك واتبع الكندي اساس التقسيم هنا هو المادة فعامة الناس من لم تتوفر لهم الماديات وليس في مقدورهم الحصول عليها اما الخاصة فهم الاغنياء ممن توفرت لديهم الماديات واعتبرهم هم الاقوياء بما توفرت لديهم من متطلبات الحياة كافة وينتهي ان من توفرت لديه المطلوبات او المتطلبات كان سعيداً فقرن السعادة هنا بالمادة وان هذا الرأي قريب من تفكير الانسان في الوقت الحاضر وهو ان المادة هي الوسيلة لطلب السعادة وطرد الشقاء او الابتعاد عنه ولو ان هذا الرأي قد لايوافق

البعض من الناس الذين يعرفون المال ليس هو السبيل الى السعادة والراحة وهناك امثلة متعددة لكذا من الناس توفر لديهم المال لكنهم لايشعرون بالسعادة .

الكندي في قوله هذا لايقرر النتيجة النهائية ويجزم بان المال هو السبيل الوحيد للسعادة الا أنه يؤثر في حياة الانسان وسوف نرى من هم الاغنياء ومن هم الفقراء الذي قصدهم الكندي الا انه في هذا الموضع يصرح بذلك تصريحاً واضحاً فهو يعتبر ان امتلاك المال او المادة هي الاساس في الحصول على المطلوبات الحسية لذلك فالغني ارفع شأناً من الضعفاء الذين لايملكون المادة للحصول على هذ المطلوبات وانه يرى ان من لم تتوفر لديه المطلوبات الحسية فهو يتبع مختلف الوسائل قد تكون دنيئة وخسيسة للحصول على ما يبغية من مطلوبات وهذه الاساليب الدنيئة تكون باعثة على الشقاء من اراد ان يرتفع عن مستوى الضعفاء عليه ان يتشبه باخلاق الاغنياء ويكون الى السعادة اقرب والى دفع الحزن ابعد (٤٦) لذلك نرى الكندي يطالب دائماً بالارتفاع عن المستوى الضعيف والارتفاع الى المستوى الاعلى في سبيل الحصول على السعادة والابتعاد عن الالم (٤٧) وهو بذلك يقول ينبغي ان نحرص على ان نكون سعداء وان نحترس ان نكون اشقياء ، بل تكون ارادتنا ومحبوبتنا ما تهيأ لنا . ولانأسف على فائتة بل نكون اذا شاهدنا الاشياء التي يتمتع بها الناس من المحبوبات في العقل ، اعني قدر ما بالنفس ... فان هذه من اخلاق الملوك الاجلة فانهم لايتلقون مقبلا ، ولايشيعون ظاعناً بل يتمتعون بكل ماشاهدهم باركا فعل وظهر استغناء فأن ذلك فمن اخلاق صغار العامة ودناءتها على اخلاق اجله الملوك (٤٨) .

والكندي أذ طرح فكرة اخلاق العامة واخلاق الخاصة يريد الوصول الى فكرة اخرى وهي في رأيه المدار الذي يدور عليه حديثة هذا وهي ارادة الانسان وغنى نفسه وترفعها عن الدنايا الذي قصده الكندي بالغني.

الاغنياء خصهم بالملوك ممن توفرت لديهم جميع الاشياء وعدم اقبال مثل هؤلاء على الانغماس في اللذات هو لغنى نفوسهم او لعفتها فالانسان يستطيع ان يتغلب على طلب اللذات بالارادة القوية التي تمنعه من ذلك وهو بذلك يضرب مثلا : لمركب يضم جماعة كبيرة من الناس سار بأرض مزدانة بالمروج وقد حباها الله من كنوز الطبيعة من احجار كريمة وذهب وغيد حسان وجماعات لهو وطرب فقد اثر هؤلاء الجماعة النزول من المركب والبقاء في هذه الارض لفترة من الزمن وكل جماعة سارت على هواها كل حسب رغبته في الحصول على ما يريد من متع الحياة المادية (٤٩) لكن الذي حصل ان هذه الجماعة انقسمت الى فئات مختلفة فمنهم من اكتفى مع نظرة فقط دون الانغماس فيها والفئة الاخرى آثرت الانغماس فيها الفئة الباقية فهؤلاء من ترفعت نفوسهم عن جميع هذه الاشياء لعفة نفوسهم وبعد فترة اراد المركب الرجوع الى موطنه فكل جماعة اتت وهي مثقلة بما ارادت الحصول عليه ومنهم من اثر البقاء في تلك البقعة من الارض لانهم كانوا يعتقدون ان السعادة التي كانوا يبحثون عنها قد وجدوها اذن فما هو المبرر للرجوع وانهم عثر على مرادهم (٥٠).

يحلل الكندي حالة هؤلاء الجماعة ويفصل كل مجموعة عن الاخرى . لقد تبين ان كل فئة من هذه الفئات حصلت لها متاعب بالحمل او بالانغماس فيها . وهؤلاء الجماعة كما اتضح كانوا يبحثون عن المادة لذلك فعند عثورهم عليها كانما حصلوا على ضالتهم المنشود وهذه الضالة هي حصولهم على الماديات الحسية لما بدا لهم من جمال ومتعة النظر بالجمال الفتان واشباع حاجة الجسم لما توفر فيها من متع جسمانية ولما توفر فيها من كنوز وذهب وسائر الاشياء الاخرى من الماديات (٦١) .

الكندي هنا يثبت ما للحواس من تأثير كبير في اطلاق الاحكام على الاشياء والاحكام هنا احكام خلقية وهي الجميل والقبيح المفيد وغير المفيد. وينتقل الى فكرة الخير و الشر ، الفضيلة والرذيلة ، العفة والمجون (٥٢) ،

ثم اذ مارجعنا الى النص مرة أخرى نلاحظ ان الكندي يبين النسب التي يستطيع الحصول عليها فرد من الافراد او كل مجموعة من الجماعة التي اشتركت في هذه الرحلة مما تقودنا هذه الفكرة الى تبيان ان في فلسفة الكندي شيئاً من فكرة التناسب بين الاحساسات وهذه الفكرة هي من ابداع الكندي (٥٣).
ثم بعد ذلك نعود الى الجماعة التي سبق الكلام عنها وهي الجماعة التي اثرت ان لاتمس شيئاً من هذه الماديات يصفهم الكندي هم المتعففون والاغنياء واغنياء بنفوسهم وبما يمتلكون من ماديات حية لانها متوفرة لديهم لكنهم بعفة نفوسهم ترفعو عنها ولم يقتربوا اليها لذلك فهم بتصرفهم يكونون قد ماروا وفقاً للطبيعة ولم يبعثوا على ماوهبتهم به الطبيعة من كنوز واشياء حية اخرى (٥٤) وهم بعد هذا او ذاك بارادتهم استطاعوا ان يصلوا الى شاطئ السلام فللارادة هنا سلطان قوى على ما تطلبه منا الحواس وعلى ماتريده منا الشهوات واللذات الجسدية . الا أن من توفر له العقل الكامن والارادة القوية استطاع ان يلعب على ماتأمرنا به احاسيسنا وهذه لاتتوفر كما وضحه لنا الكندي وبينه في رسالته هذه وخاصة في هذا المثل فانه يصف لنا حال الذين توفرت لديهم كل الوسائل لكن بترفعها عنها استطاعوا ان ينالوا السعادة وان يبتعلوا عن الالام وهذه هي اخلاق الملوك الاجلة وذوي العقول وهو هنا يؤكد على سيطرت العقل والارادة الشهوات وعلى ما هو باعث على الالم وهو في كل ذلك ويريد ان يسير الانسان وفق الطبيعة لان هو موجود في الطبيعة على يسير وفق نظام وقانون مرتب وعليه فعلى الانسان ان يسايرهما امرت به الطبيعة اولما موجود في الطبيعة من نظام وتنسيق وبهذا يكون الانسان قد حقق له السعادة لان الطبيعة سعيدة بما وفره لها العقل الكوني والانسان بامكانه ان يكون سعيداً بما توفر لديه من عقل او يتشبه بما هو موجود في الطبيعة .

ونحن اذ بحثنا في النفس الانسانية عند الرواقية والتي ابتدأت مادية عند الرواقيين الاوائل وليست هي كذلك عند المتأخرين منهم فاننا لنلاحظ الكندي في هذا

النص في تصوره للنفس بعد الموت وما هي المكانة التي تحتلها بعد الموت وهل ان النفوس جميعها تكون في المصير نفسه اما ماذا سيحل لها؟

الجواب على ذلك طرحه الرواقيون في كلامهم على النفس ومصيرها بعد الموت ويبدون متأثرين بالافلاطونية المحدثة (افلوطين) ولنقف على ما قاله الكندي في هذا المجال مما لاحظت فيه الكثير من اوجه التشابه والكندي بذلك يقول «ان النفس هو كما قالت الفلاسفة القدماء-خاف الفلك في عالم الربوبية حيث نور الباري. وليس كل نفس تفارق البدن تصير من ساعتها إلى ذلك المحل لان من الانفس ما يفارق البدن وفيها دنس واشياء خبيثة فمنها ما يصير إلى فلك القمر، فيقيم هناك مدة من الزمان، فاذا تهذبت ونقيت، ارتفعت إلى فلك العطارد، فتقيم هناك مدة من الزمان، فاذا تهذبت ونقيت ارتفعت إلى فلك كوكب أعلى ونقيت غاية النقاء وزالت ادناس الحس وخيالاته وخبثه منها ارتفعت إلى عالم العقل، وصارت في اجل محل، لا تخفي عليها خافية(٥٥) وانني هنا عندما اوردت هذا النص لا اريد ان اثبت من خلاله بان الكندي في تفسيره للنفس رواقي وانما هو هنا متأثر بافلوطين تارة وبافلاطون تارة اخرى الا ان النفس في كل الاحوال وكما برهن عليها هي غير مادية وهي بسيطة وانها من نور الباري (٥٦) لكن النقطة التي وددت توضيحها هي ان النفوس الخيرة تصعد إلى باريها اما النفوس التي فيها دنس فهي تمر بسلسلة من الدورات في الافلاك المختلفة تنتقل بين الكواكب إلى ان يتم تطهيرها لكن الاساس في الفكرة هو تقسيم النفوس إلى خيرة وغير خيرة وهذا ما توصل اليه توصل اليه الرواقيون الاوائل وقال به الفلاسفة السابقين (افلاطون) لذا نرى الجذور المختلفة في فلسفة الكندي من اثر رواقي في فلسفته الاخلاقية إلى (افلاطوني) (افلوطيني) في تفسيره للنفس إلى ارسطي في تفسيره بثبوتية وعدم ثبوتية الاحكام فهو يرى ان الاحداث والمطلوبات كلها نسبة ومتغيرة فالمفيد اليوم ليس هو كذلك غدا وما نحتاجه اليوم لا نطلبه غدا هذه الحالة نسبية ومتغيرة من وقت لاخر وغير مطلقة (٥٧) اما فيما يخص اصداره

الاحكام فانه يرى بان الانسان الذي يحسن التصرف بفضل جودة استعمال عقله يستطيع الحكم على الاشياء بكونها جميلة وقبيحة وانه يستطيع التصرف باعتدال وهذه حالة الانسان العاقل (٥٨) .

لذا نخرج بالنتيجة النهائية عن فاسفة الكندي الاخلاقية بانها ذات ملامح رواقية كما اتضحت لي دراستي لرسالته الحياة لدفع الاحزان وخاصة النقطة الاساسية التي سارت عليها الفاسفة الرواقية او هي المقولة الشهيرة عن هذه الفاسفة والتي وردت وتمثلت في اقوال فلاسفتها وهي (عش على وفاق الطبيعة) والكندي قال (بطبائع الامور) .اما عن العلوم الاخرى فهو بدون شك بالفلاسفة الاخرين كما بينت فانه متأثر بأفلاطون، وارسطو، وافلوطين . لكن هذا لا يمنع من ان الكندي لم يكن له ابداع خاص به ولم يكن من المعيب على فيلسوف العرب الاول ان يأخذ من كل المدارس الفلسفية التي سبقته الا انه استطاع ان يصبها في بودقة وخلص إلى فلسفة خاصة به تختلف عن كل الفلسفات السابقة .فهذا هو الأخذ والعطاء في مجال الفكر اللاحق يأخذ من السابق لكنه لا يتوقف عند حد وانما يضيف اليه الشيء الكثير من ابداعه الشخصي .

الهوامش

١ : الطريحي – محمد كاظم – الكندي فيلسوف العرب الاول ص١٧

٢ : الاهواني – أحمد فؤاد – الكندي فيلسوف العرب ص ٢٥٣

٣ : رسل – برتراند – تاريخ الفاسفة الغربية ص ٤٠٠

٤ : أمين – عثمان – الفلسفة الرواقية ص ١٩٧

٥ : رسل – المصدر السابق ص ٤٠١

٦ : كرم يوسف – تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٢٤

٧ : رسل – المصدر السابق – ٤٠١

٨ : امين احمد – قصة الفلسفة اليونانية ص ١٠٨

٩ : رسل – المصدر السابق ص ٤٠٣ – ٤٠٤

١٠: فرنر – شارل – الفلسفة اليونانية ص ١٩١
وانظر ايضاً يوسف كرم – المصدر السابق ص ٢٢٤

١١: امين عثمان – المصدر السابق ص ١٩٧

١٢: رسل – المصدر السابق ص ٤٠٢

١٣: المصدر نفسه ص ٤٠٤

١٤: المصدر نفسه ص ٤٠٩

١٥: المصدر نفسه ص ٤٠١١

١٦: المصدر نفسه ص ١٢١

١٧: بدوي – عبد الرحمن – خريف الفكر اليوناني ص ٣٧ – ٤٢

١٨: رسل – المصدر السابق ص ٤١٨

٩١ : رسل – المصدر السابق ص ٤١٨

٢٠: رسل – المصدر السابق ص ٤١٩

٢١: امين عثمان – المصدر نفسه ص ٢٠٢
وانظر ايضاً فرنر شارل – المصدر السابق نفسه ص ٢٢٦ – ٢٢٧

٢٢: رسل – المصدر نفسه ص ٤٢١

٢٣ : امين عثمان — المصدر نفسه ص ١٩٧

٢٤ : فرنر شارل — المصدر السابق ص ٢٢٧

٢٥ : امين عثمان — المصدر نفسه ص ٢٠٢

٢٦ : بدوي عبد الرحمن — خريف الفكر اليوناني ص ٤٢

٢٧ : فرنر شارل — المصدر نفسه ص ٢٢٤

٢٨ : بدوي عبد الرحمن — المصدر نفسه ص ١٣٨ ا ١٨٥

٢٩ : رسل — المصدر السابق ص ٤١٨ ا ٤١٩

٢٩ : رسل — المصدر السابق ص ٤١٨ ا ٤١٩

٣٠ : بدوي عبد الرحمن — المصدر السابق ص ٤٨١٥

٣١ : رسل — المصدر السابق ص ٤١٩

٣٢ : الكندي — رسالة في دفع الاحزان ص ١١١

الرسالة منشورة في كتاب فيلسوف العرب الاول (الكندي) لمحمد كاظم الطريحي مطبعة اسعد بغداد ١٩٦٢

٣٣ : الكندي — المصدر نفسه ص ١١٣

٣٤ : الكندي — المصدر نفسه ص ١١٢

٣٥ : الاهواني — أحمد فؤاد — أعلام العرب ص ٢٥٣

٣٦ : لقد ورد ذكر الباعث عند الكندي ووضع معنى الباحث وهذه التفاته كبيرة من فيلسوف مسلم عاش في فترة ١٨٥ هـ/٩٧٦ م(حيث أن علماء النفس في الوقت الحاضر يعلقون اهمية كبيرة ويعرفون الدوافع او الباعث ماينتقل عن طريق الوراثة فلا يحتاج الفرد إلى تصاحه واكتسابه اما المكتسب فهو كل ماينجم عن التغيير الفطري وتعديله عن طريق النشاط التلقائي للفرد أو عن طريق الخبرة والممارسة والتدريب او هو عبارة عن حث محدود ينخس صاحبه من الداخل دافعاً اياه إلى الحركة والعمل . انظر

١ : كوربان ، هنري — تاريخ الفلسفة الاسلامية ص ٢٣٥

٢ : راجح ، احمد عزت — اصول علم النفس ص ٨٥

٣ : فريد ، عزيز — علم النفس للمجتمع ص ٦٥

٣٧: الكندي — المصدر نفسه ص ١١١
٣٨: الكندي — المصدر نفسه ص ١١٠ — ١١٢ — ١٣١ — ١٣٣
٣٩: الاهواني — المصدر نفسه ص ٢٥٣
٤٠: الكندي — المصدر نفسه ص ١١٠ — ١١٢
٤١: الكندي — المصدر نفسه ص ١١١
٤٢: الارادة كما وردت عند الرواقيين وعند الكندي لعبت دوراً كبيراً في سعادة الانسان وهذا مما يؤكد عليه علماء النفس في العصر الحديث حيث جعلوا للبحث في الارادة مواضيع خاصة من موضوعات علم النفس .

يوسف مراد — مبادىء علم النفس العام ص ٣٤٧ — ٣٤٨

٤٣: الكندي : المصدر — المصدر نفسه ص ١٢٤
٤٤: الكندي — المصدر نفسه ص ١٢٥
٤٥: الكندي — المصدر نفسه ص ١٢٥
٤٦: الكندي — المصدر نفسه ص ١١٠
٤٧: الكندي — المصدر نفسه ص ١١٤

وانظر الازميري — فيلسوف العرب ص ١٠٦

٤٨: الكندي — المصدر السابق ص ٤٧
٤٩: الكندي — المصدر السابق ص ١٢٠
٥٠: الكندي — المصدر السابق ص ١١٢ — ١٢٠
٥١: مطلك — فضيلة عباس نظرية السعادة في الفلسفة الاسلامية ص ٢٦ — ٢٧
٥٢: كرم يوسف — المصدر السابق ص ٢٠٠
٥٣: طوقان — قدري حافظ — مقام العقل عند العرب ص ١٠٨
٥٤: الكندي — المصدر السابق — ص ١٢٠
٥٥: الكندي — رسائل الكندي الفلسفية ص ٢٧٨
٥٦: الاهواني — أحمد فؤاد ص ٢٥٣
٥٧: طوقان — المصدر نفسه ص ١٠٨

المصادر

الازميرى ، اسماعيل حقي – فيلسوف العرب يعقوب ابن اسحاق الكندي ، نقله إلى العربية عباس العزاوى مطبعة اسعد بغداد ١٩٦٣ .

الاهواني ، احمد فواد – اعلام العرب الكندي (٢٦) المؤسسة المصرية العادة .

الطريحي ، محمد كاظم – الكندي ، فيلسوف العرب الاول مطبعة اسعد بغداد ١٩٦٢ .

الكندي ، يعقوب ابن اسحاق – رسائل الكندي الفلسفية ، تحقيق عبد الهادى ابو ريدة ، مطبعة الاعتماد مصر ١٣٦٩ هـ/ ١٩٥٠م.

الطويل ، توفيق – العرب والعلم في عصر الاسلام الذهبي – دار النهضة العربية المصرية ١٩٦٨ .

أمين ، احمد ، قصة الفلسفة اليونانية ، ط ٦ القاهرة ١٩٦٦ .

أمين ، عثمان ، الفلسفة الرواقية ، ط٣ مكتبة الانجلو المصرية القاهرة ١٩٧١.

بدوى ، عبد الرحمن – خريف الفكر اليوناني ، مكتبة النهضة المصرية ط ٣ ١٩٥٩ .

جيمس : اولف – المشكلات ابلرى في الفاسفة اليونانية ، ترجمة د عزت قرني – القاهرة ١٩٧٦ .

راجح ؛ احمد عزت – اصول علم النفس ط ٢ ١٩٧٠ .

رسل ، برتراند – تاريخ الفلسفة الغربية ط ٢ ١٩٦٧ ترجمة ، زكي نجيب محمود ، احمد امين .

غريغوار – فرنسوا – المذاهب الاخلاقية الكبرى – ترجمة قتيبة المعروف منشورات عويدات لبنان ط ١ ١٩٧٠ .

فرنر ، شارل ، الفلسفة اليونانية ، تيسيير شيخ الارض ط ١ دار الانوار بيروت ١٩٦٨ .

قمير ، يوحنا ، فلاسفة العرب الكندي ، دراسة مختارة عدد (٨) المطبعة الكاثوليكية بيروت ١٩٥٤ .

د. مراد ، يوسف — مبادىء علم النفس العام — دار المعارف — القاهرة ط ٧ : ١٩٧٨ .

مطلك ، فضيلة عباس — نظرية السعادة عند الفلاسفة المسلمين رسالة ماجستير غير منشورة ١٩٧٦ .

كرم ، يوسف — تاريخ الفلسفة اليونانية ط ٦ القاهرة ١٩٦٦ .

كوربان ، هنري — تاريخ الفلسفة الاسلامية ترجمة نصير مرده .

طوقان — قدري حافظ — مقام العقل عند العرب ، دار المعارف بمصر.

الجغرافية الجديدة

الدكتور ابراهيم محمد حسون القصاب

الجغرافية الجديدة New geography مفهوم كثر الحديث عنه في السنوات الأخيرة بل اصبح مرادفاً لمفاهيم اخرى مثل الجغرافية النظرية او الثورة الكمية : ان هذين المصطلحين وان استخدما في الآونة الاخيرة للتعبير عن التحولات الجديدة في الجغرافية فهما لايغطيان الا نصف الحقيقة (١) فهما تغير في المنهج اما النصف الآخر فيكون في المضمون .

وبالنظر لفقر المكتبة العربية الى الدراسات التي تبين وتفسر مثل هذه المفاهيم ارى من الضروري التطرق اليها في محاولة لتوضيح ماهية هذه المفاهيم والاتجاهات الجديدة في الجغرافية سواء فيما يتعلق باهدافها او بمناهج بحثها .

لقد مرت الجغرافية في تاريخ تطورها بمراحل مختلفة فظهر لها مفاهيم مختلفة فهي تلاحق نماذج مختلفة لمفهوم مادتها : البيئة ، دراسة الاقاليم ، تحليل المواقع تخطيط اقليمي (٢) ومنذ حوالي ربع قرن تقريبا حدثت تحولات سريعة جدا في اهداف وطرق بحث الجغرافية فظهر مايطلق عليه بعض الجغرافيين (الجغرافية الجديدة) والتي تكون كمية تستخدم الطرق الاحصائية والرياضية في تحليلاتها للوصول إلى نتائج الابحاث باعتمادها قياسا دقيقا للظواهر الجغرافية وعناصرها.
ان هذه الجغرافية الجديدة جاءت بعد ان اصبح الجغرافيون يمتلكون من الوسائل الرياضية والاحصائية مايمكنهم من التفاعل مع اعداد كبيرة من المعطيات والمتغيرات بهدف الوصول الى قياس درجة الارتباط المكاني للظاهرة مع الظواهر الاخرى لان الظاهرة الجغرافية لاتوجد بمعزل عن بقية الظواهر الجغرافية الاخرى. ان هذه الصلة وهذا التشابه ودرجة البعد يمكن قياسها رقميا بعيدا عن النظرة

---

1) paul Clava!:Nouvelle Geographi que sais- je paris 1978 p 6
2) C. MANZAGOL: Forces et Faiblesses del'Analyse Quantitative. Annales de Geographie No 413-414, 1978 p 234.

الذاتية التي قد تؤثر على نتائج الابحاث وبجانب هذه الجغرافية الجديدة استمر عدد كبير من الجغرافيين في اتباع مناهج البحث التقليدية في الجغرافية .

وفي وقتنا هذا تتعايش ثلاث مدارس من حيث المفاهيم والمضمون كل منها ينظر بمنظار مختلف للجغرافية (٣) وهي :

١ – مدرسة مظهر الارض : وهي التي يعتبر انصارها ان الجغرافية فرع من فروع المعرفة يدرس سطح الارض على اساس الخلفية التاريخية للاقاليم .

٢ – المدرسة البيئية : وهي التي تعتبر ان الجغرافية هي دراسة العلاقة مابين البيئة والانسان والتأثير المتبادل بينهما .

٣ – مدرسةالموقع : حيث يؤكد انصارها المفهوم القائل بان الجغرافية هو ذلك العلم الذي يهتم بدراسة موقع الظواهر على سطح الارض .

ان المفهوم الاخير قد تغلب على المفاهيم الأخرى في ميدان الابحاث الجغرافية وذلك بعد افول نجم المدرستين لسابقتين وبعد ان احتل انصار المدرسة الاخيرة مراكز رفيعة بين الجغرافيين في العالم. ان افكار هذه المدرسة ليست جديدة كليا فهي تعود إلى مارثة MARTHE (١٨٧٨) الذي عرف الجغرافية في ذلك الوقت بأنها تدرس ، اين تقع الاشياء(٤) وكذلك تعود بعض جذورها إلى الابحاث الجغرافية التي قام بها في فترة مابين الحربين ستن دى جير STENdeGEER في السويد والذي كان مهتما بمقارنة مواقع النشاط الحضري والصناعي (٥) ذلك الوقت الذي كانت الجغرافية متأخرة فيه عن بقية العلوم الاخرى بسبب ارتباطها بالتاريخ والجيولوجيا ، وحيث ان أعداداً هائلة من الجغرافيين ولاسيما في المانيا وامريكا ينادون بحتمية البيئة الطبيعية واثرها على الانسان .

---

٣) يعترض دريش DRESCH رئيس الاتحاد الدولي للجغرافية سابقاً على فكرة وجود مدارس جغرافية متعددة ويذكر بان هنالك اتجاهات مختلفة (بمقابلة شخصية).

4) Peter HAGGRTT : L' Analyes Spatial en Geographie Humain. Traduction de FRECHOU paris 1973 P23.

5) Paul CLAVAL: Elements de Geographie Humain Paris 1973 P57.

وتحتل دراسة الموقع اهمية لدى علماء الاقتصاد فنظريات الموقع التقليدية قد جاء بها الاقتصاديون الالمان قبل قيام الجغرافيين بتوجيه اهتمامهم المركز للمواقع فنظرية فون تنين THUNEN (١٨٧٥) كانت حول مواقع زراعة المحاصيل الزراعية ، ونظرية فيبر WEBER (١٩٠٩) كانت عن موقع الصناعات فالركرستالر W. CHRISTALLER (١٩٣٣)ونظريته التي تبحث عن النمط الهندسي الذي تتخذه المدن في الوسط الريفي من وجهة نظر الجغرافي فكريستالر كان جغرافيا اهتم بالمواقع فكانت آراءه أكثر واقعية من اراء لوش LOSCH(١٩٣٨) الذي وضع نظرية الاقليم الاقتصادى ، ومن ثم تبعهم عدد كبير من الباحثين من امثال برودوبل PRODOHL واهلين OHLIN وبلاندر PALANDER وهوفرHOOVER (١٩٤٨) الذي بحث عن مواقع النشاط الاقتصادى بمختلف انماطه (٦) وايزارد ISARD (١٩٥٦) الذي بحث في علم الاقاليم (الاقتصادى والحضرى واالجغرافي) (٧) وفرانسوا بيرو PERROUX وجاك بود فيل BOUDE-VILLEالذي بحث في الاستقطاب وجيجوGUIGOU(١٩٧١)الذي بحث في موضوع النظريات الاقتصادية وتغيرات مظهر الارض الزراعي (٨) ان دراسة الموقع ونظرياته قد اخذت جزء مهماً من ابحاث الجيل الجديد للجغرافيين فالجغرافية في نظر بعضهم علم تخطيط الحيز المستخدم من قبل الانسان (٩) . ومنذ حوالي ٢٠ عاما اتجه جزء من ابحاث اقتصادى المكان والجغرافيين نحو

---

6) E. HOOVER: The Location of Econcmic Activity. New york 1948.
7) ISARD: Locatuion and Space Economy New York 1956 Methods of Regional Analysis New York 1970
8) J. L. GUIGOU: Theorie Economique et Transformation de L' espace agricole paris 1971 These .
9) REYMOND Actualite des Methodes Quantitative en Geographie in H.M. FRENCH and Jean - Bernard RACINE Quantitative and Qualitative Geographe la Necessite d'un Dialogue Ottawa Canada 1971 P gl.

دراسة ظاهرة الاستقطاب (١٠) بعد ان بدأ قبل ذلك بعدة سنوات تعاون واسع بينهم في دراسة الاقليم الاقتصادى وفي السنوات الاخيرة اخذت الابحاث عن الموقع تتبع نمطا جديدا، بعد ان كانت تقوم على اساس الموازنة ودوروميكانيكية توزيع الدخل فتحول ارتباط الجغرافية نحو العلوم الاجتماعية واخذت الافكار الامكانية الاحتمالية تحل بسرعة محل الحتم الطبيعي فاخذت الجغرافية تمر الان بمرحلة دراسة الادراك الحسي وبذلك اصبحت اكثر واقعية واكثر اجتماعية وهو الامر الذي كانت تهمله نظريات الموقع الاقتصادية التقليدية فاصبحت الجغرافية تهتم بالسلوك الانساني (١١) وبنمط اتخاذ القرارات على اساس المؤثرات الاقتصادية والاجتماعية التي يتعرض لها الانسان وهي مدعمة بالنتائج التي توصلت اليها فروع المعرفة الاخرى والتي تبحث عن ايجاد نظام لتحليل ودراسة النشاط البشرى : كعلم الاجتماع والاقتصاد وعلم الانسان وعلم النفس . ان هذه التحولات في المضمون ادت إلى تحولات في المنهج فنرى مناهج جديدة وهي مناهج كمية تعتمد التحليل الرياضي والاحصائي واستخدام كل الوسائل الممكنة التي سبق واستخدمت من قبل العلوم الانسانية الاخرى للوصول إلى نتائج ذات طابع موضوعي، وبهذا فيمكن الارتفاع بالجغرافية لكي تصبح علما كبقية العلوم الاخرى، فان اى علم من العلوم يقاس بطرقة (١٢) كي تصبح الجغرافية قادرة على صياغة القوانين ونظريات استنتاجية .

إنالاتجاه نحو العلمية في منهج االجغرافية قد لاقى اهتماما كبيرا من قبل الجغرافيين الشباب منذ ان ظهرت بوادره في السويد في جامعة لند حيث قام ابرز علمائها

---

10) J. Bou DEVILLE: Amenahement de Territoire at polaris-m

11) P. CLAVAL: principes de Geographie Social paris 1973'.
K. COX Man, Location and Behavior, An Introduction to human Geograaphy New York 1972.

12) J, Beaujeu- Garnier: La Geographie, Methodes et perspective paris 1971 P 53.

هجر ستراند HAGERSTRAND (١٩٥٣) باستخدام نماذج التشبيه والانتشار Diffusion and Simulation Models و من السويد انتشر هذا المنهج الجديد حيث لاقى تجاوبا سريعا لدى جغرافي نيوزلاند واستراليا والولايات المتحدة في جامعات ايوا وشيكاغو وواشنطن وجامعة الشمال الغربي وبنسلفانيا وكلارك وفي انكلترا حيث كانت السباقة جامعة كمبرج فلندن ولفربول وبرستول وفي فرنسا في جامعات باريس وغرنوبل وليل فالجامعات السويسرية ودول شرقي اوربا ولاسيما بولندا حيث كان الاهتمام منصبا في مجالات الجغرافية الريفية والتخطيط الاقليمي وجامعات الاتحاد السوفيتي واليابان ، وفي دول العالم الثالث تأتي الهند في المقدمة وبصورة ضيقة في بعض جامعات الوطن العربي حيث تدل بعض الاعمال الرائدة في هذا المضمار ففي العراق مثلا ظهرت بوادر هذا الاتجاه الجديد في المنهج في مطلع الستينات عبر عدد من المقالات(١٣) والاطروحات المقدمة إلى جامعة بغداد استخدمت فيها وسائل احصائية بسيطة كمعامل الارتباط البسيط والمتعدد والانحدار وكذلك التحليل العاملي (١٤) واختبار النظريات كاختبار نظرية كريستالر (١٥) ان التجاوب مع المنهج الكمي قد اختلف مابين فروع الجغرافية نفسها ، وكان الفرع الاكثر تجاوبا هو علم الخرائط والجغرافية الاقتصادية وبعض فروع الجغرافية الطبيعية وكنت الجغرافية السياسية هي الفرع الاقل تقبلا لهذا المنهج على الرغم

---

١٣) علي المياح : التحليل الكمي في دراسة الجيومورفولوجي ، مجلة الاستاذ ، بغداد المجلد التاسع ١٩٦١ص١٢٩ - ١٣٨

علي المياح : مصادر الثروة الحيوانية الرئيسية في العراق (دراسة لتطبيق التحليل الاحصائي في البحث الجغرافي) مجلة الاستاذ بغداد ٩٦٢=١٩٦٣ص ١٠٦ - ١١٧

علي المياح : تغيير الانتاج الزراعي في جنوب العراق (دراسة في الجغرافية الكمية) في المؤتمر الجغرافي العربي الثاني بغداد ١٩٧٦ .

١٤) عبد الرزاق البطيحي انماط الزراعة في العراق بغداد ١٩٧٦ .

١٥) صبيح يوسف طاهر : مراكز الاستيطان في محافظات ديالى واسط ميسان والقادسية - دراسة جغرافية لمواقعها واحجامها - اطروحة م- جامعة بغداد - ١٩٧٦ .

من ظهور بعض الابحاث والكتب الجغرافية السياسية التي استخدمت هذا المنهج.(١٦)
ان الامر الذي ساعد على هذا الانتشار السريع للمنهج الكمي هو عقد المؤتمرات العلمية لاجل تبادل المعلومات الجغرافية النظرية والكمية عام ١٩٦٠ ، ١٩٦٢ ١٩٦٤ وفي مؤتمر الاتحاد الدولي للجغرافية عام ١٩٦٨ في دلهي شكلت لجنة للاشراف على الجغرافية الكمية الامر الذي اعطى لهذا المنهج اهمية اكبر وانتزع اعترافا به .

ولقد تنامت تدريجيا اعداد الابحاث الجغرافية التي تنتهج المنهج الكمي إلى مايقرب نصف عدد الابحاث المقدمة في الدول المتقدمة واصبح لها دوريات جديدة تنشر هذه الابحاث ومن هذه الدوريات: الدراسات الاقليمية Reginal Studies والتحليل الجغرافي Geographical Analysis والمجال الجغرافي L'espace Geographique
ان هذا التحول السريع في المنهج والاهداف للجغرافية قد اوجد آراء جديدة حول الجغرافية ومستقبلها فيذهب البعض على ان الجغرافية تمر سريعا من وصف الظواهر ومن الاستقراء إلى اعادة انشاء الظواهر والتنبؤ بها ، فنقوم بايجاد نظرية استنتاجية تسمح بالتنبوء بالظواهر (١٧) اى ان تنقل الجغرافية إلى مرحلة التصميم وبذلك تصبح هذه الجغرافية هندسة جغرافية فمثلا ان الجغرافية الاقتصادية تقوم ليس فقط بدراسة توزيع الظواهر الاقتصادية ، وانما تدرس الاوجه المكانية لصراع الانسان ضد الندرة، فهي تفسر حركة وتوزيع الثروات وخلقها وهي تبين الصعوبات التي يعاني منها المنتج وتميز مايعود منها إلى الطبيعة وما يعود منها إلى المؤسسة وهي تبين كيف ان مظهر الارض وتنسيق المجموعات الواحدة بالنسبة للاخرى هي نتيجة قرارات اتخذت للوصول إلى افضل استغلال.(١٨)

16) COX: locational Approaches to power and conflict New York 1974

17) Paul CLAVAL: Geographie et Economie: Travaux Su r L'Espace Economique Reuve TEM nO4 paris 1966 P 30.

18) Paul CLAVAL: Elements de Geographie Economique Paris P g

فمثلا عند دراسة الزراعة في ليبيا فان الباحث في الجغرافية التقليدية سيقوم بدراسة الامور التالية مع اختلاف في تدرجها من باحث لاخر :

١ – التوزيع الجغرافي للمحاصيل الزراعية .
٢ – الشروط الطبيعية للانتاج الزراعي .
٣ – الشروط البشرية والاجتماعية للانتاج الزراعي .
٤ – الانتاج الزراعي وانواعه .
٥ – التسويق .

بينما الباحث بحسب مفهوم الجغرافية الجديدة سيستخدم نفس المعطيات مع معطيات اخرى اضافية ويعالجها بمنهج كمي للوصول إلى اهداف تخطيط الجوانب المكانية للزراعة فهو سيقوم بمعالجة الامور التالية :

١ – مشكلة التوازن العام .

أ – عرض الانتاج الزراعي والعوامل المؤثرة فيه .
– عنصر الارض .
– عنصر الماء .
– عنصر العمل
– عنصر رأس المال .

كل هذه الامور تدرس على اساس انها كقيود البرمجة الخطية المحددة للانتاج الزراعي .

ب – الطلب على الانتاج الزراعي والعوامل المؤثرة فيه .
– النمو الديموغرافي .
– النمو الاقتصادي .
– نمط الغذاء .

ج – مشكلة موازنة العرض والطلب .
– التوازن التقليدي ، الاكتفاء الذاتي ، التسويق .
– التدخل الحكومي والتخطيط .

د – مرونة العرض

– عنصر الارض – مرن

– عنصر الماء – قسم منه يمكن تعويضه وقسم آخر لايمكن تعويضه .

– عنصر العمل – مرن

– عنصر رأس المال – مرن إلى حد كبير .

٢ – التوازن الموقعي .

أ – ضوابط الموقع الحالي .

ب – الضوابط المتوقعة للموقع في المستقبل .

٣ – مشاكل التخطيط .

ان الاخذ بوسائل التحليل الرياضي والاحصائي يعطي القدرة على وضع قوانين يمكن لها القيام بالتنبؤ الامر الذي سيدعم الجغرافية ويزيد نفعها اويجعلها علما .فهدف كل علم هو السيطرة على الظواهر (١٩) ونظرية الاحتمالات التي تعتبر قمة العمل الرياضي والاحصائي قام الكثير من الباحثين الجغرافيين باستخدامها وتوصلوا الى نتائج ملموسة فجامعة كلارك الامريكية قامت بوضع اطلس يبين الاضرار التي تسببها الكوارث على المناطق بحسب ظروف كل منطقة .

وقد لاقى المنهج معارضة من جانب بعض الجغرافيين وشككوا في فوائد استخدام هذا المنهج مثل روجر منشل (٢٠) R.MENSGULL وادعى

19) J. C. CHEVAILLER: Classification en Analyse economique Spatial, Paris 1974 P 15.

٢٠) روجر منشل : تطور الجغرافية الحديثة ، ترجمة محمد السيد غلاب ودولت صادق القاهرة ١٩٧٣ص ٩٩ – ١٠٠

بير جورج GEORGE بان الجغرافية الكمية عبارة عن حتمية جديدة (٢١) وان تطبيق الصيغ على المعطيات الجغرافية يظهر اتجاها غامضاً خطرا (٢٢) وادعى آخرون بان الجغرافية البشرية لايمكن ان تخضع إلى المعادلات الرياضية الجامدة بينما يرى بعض الجغرافيين بان الجغرافية يمكن أن تأخذ منهجين:

١ – منهجاً تقليدياً وصفياً يمكن أن يستخدم بعض الوسائل الاحصائية الوصفية.

٢ – منهجاً كمياً رياضياً: يستخدم الوسائل الرياضية المعقدة والنماذج. والواقع أن هذه المعارضة والانتقادات الموجهة نحو المنهج الكمي يمكن أن ترد إلى جهل الجغرافيين التقليديين بالاساليب الرياضية والاحصائية.

وبعد هذا الانتشار الكبير للمنهج الكمي يشعر الكثير من الجغرافيين الشباب أن معارفهم الجغرافية مواضعة مالم تكن لديهم أسس جيدة في الرياضيات والاحصاء والبرمجة ،وذهب بعضهم الى التطرف والادعاء بان الجغرافي يجب يكون، قادراً على اسخدام جيد لرياضيات العلاقات المكانية وان الابحاث الجيدة يجب أن تقوم على اسس رياضية كمية (٢٣) بعد ان امكن قياس الكثير من الظوهر الجغرافية قياساً دقيقاً ومعبراً عنه بارقام بل ذهب بعضهم الى أبعد من ذلك وادعو بان عمل الجغرافي ينحصر في استخدامه الكفؤ لرياضيات العلاقات المكانية لاجل الوصول الى علم العلاقات المكانية (الجغرافية) (٢٤)

21) Pierre GEORGE La Geographie quantiative, un nouveeau Determinisme ? Notiziario de Geographia Economica n° Special "Scritti in Onore de Ferdinando Milone Rome 1971 P33- 43

22) Pierre GEORGE. Difficultes et Incertitudes de Geographie Annales de Geographie Paris 1976 No 467 P54.

23) A. ACKERMANE, Geography As a Fandamatal Research disipliney, university of Chicago Pressno 53 1958 P30.

24) W. WARNTZ. Geography, Geometry and Graphies. Princeton university press 1963 P40.

نخلص من هذا الى أن الجغرافيـة تقف اليوم على أعتاب تحولات في المنهج والمضمون وان الاتجاه الذي بدأ يتغلب الان هو جعل الجغرافية علماً من العلوم يسعى للوصول الى نظريات استنتاجية متبعاً خطوات الطريقة العلمية والاخذ بمختلف الوسائل التي تسمح بذلك ومنها الوسائل الرياضية والاحصائية .

المراجع العربية والمترجمة :

١ – عبد الرزاق البيطحي : انماط الزراعة في العراق ، بغداد ١٩٧٦.

٢ – علي المياح : التحليل الكمي في دراسة الجيمورفولوجي ، بمجلة الاستاذ ، بغداد المجلد التاسع ١٩٦١

٣ – علي المياح : مصادر الثروة الحيوانية الرئيسية في العراق (دراسة لتطبيق التحليل الاحصائي في البحث الجغرافي) مجاة الاستاذ بغداد ١٩٦٢ – ١٩٦٣

٤ – علي المياح : تغير الانتاج الزراعي في جنوب العراق (دراسة في الجغرافية الكمية) المؤتمر الجغرافي العربي الثاني بغداد ١٩٧٦.

٥ – صبيح يوسف طاهر : مركز الاستيطان في محافظات ديالى واسط ميسان القادسية دراسة جغرافية لموقعها واحجامها اطروحة كلية الآداب جامعة بغداد ١٩٧٧.

٦ – منشل : تطور الجغرافية الحديثة ، ترجمة محمد السيد غلاب ودولت صادق ، القاهرة ١٩٧٣.

المراجع الاجنبية

1) A.ACKERMANNE, Geography As a Fundamental research disipline , University of Chicageo press No 33, 1958.

2) J. Beaujeu- Garnier : la Geographie : Methodes et perspectives, Paris 1971,

3) J. BOUDEVOILE, Amenagement de territoire et polarisation Paris 1972.

4) J. C CHEVAILLER, Classification en Analyse économique Spatiale, Paris, 1974.

5) Paul CLAVAL, Geogrphie et Economie dans: Travaux sur L, espace Economique Reave TEM No4 Paris 1966.

6) Paul CLAVAL, Principes de Geographie Sociale Paris 1973.

7) Paul CLAVAL, Elements de Geographie humain. paris 1973

8) PaulCLAVAL, Elementsde Geographie economique. paris 1976.

9) Paul CLAVAL, La Nouvelle Geographie [illegible] ,Paris 1978.

10) Kevin COX, Man, Location and Behavior, An Introducation to human geography , NEWYORK 1972.

11) Kevin COX, Locational approaches to power and Conflict; New York 1974.

12) pierre CEORGE La geographie quantitative, unnouveau determinisme,? Notiziatrio de geografia econicaNo special , Scritt in, onore di Ferdnando MLLONE Rome 1971.

13) pierre CEORGE, Difficultes e incertitudes de la Geographie, Annales de Geographie ,No 467, paris 1976.

14) J.L. GUIGOU, Theorie Economique et Tranaformatin de , Lespace agricole Paris 1971, These .

15) peter HAGGETTE; L' Analyse Spatial en geographie humaia; Traduction de FRECEOU, Paris 1973.

16) E.N. HOOVER, The Location of Economic Activity , New York 1948 .

17) W. ISARD. Location and Space Economy , New York 1956.

18) W. ISARD, Methods of Rrgional Analysis, New York 1960.

19) C.MANZAGOL Forces et Faiblesses de L' Analyse quantitative; Annales de geographie No 413-414, Paris 1973.

20) H. REYMOND. Actualite des Methodes Quantitative en Geographie in Quantitative and Quanitative la Necessited un Dialogue, Ottawa, canada 1971.

21) W. WARNTZ; Geography, Geometry and Geometry and Graphies, princeton University press ,1963.

الأيوبيون في اليمن . تاريخهم السياسي من
(٥٦٩ هـ - ٦٢٦ هـ)
(١١٧٤م - ١٢٢٦م) الدكتور محمود ياسين التكريتي

تمهيـــد :

أصبح بمقدور الدولة الايوبية عـــــلى عهد ملكها صلاح الدين بأن تمارس الحكم الساسي في اليمن اذ استطاعت هذه الدولة بأن تخضع اليمن إلى نفوذها مند سنة ٥٦٩هـ/١١٧٤م . حيث يعود الدور الاكبر إلى الملك تورانشاه بن ايوب في فرض مثل تلك السيطرة إلا أن وفاة هذا الملك سنة ٥٧٦هـ/ ١١٨٠م . فسح المجال أمام نوابه من الامراء الايوبيين في التحرك باتجاه الاستقلال عن دولة صلاح الدين في مصر والشام .

وكان للظروف المرحلية التي تمر فيها الدولة الايوبية (١) في مصر والشام اثر كبير في ذلك التحرك والذي انتهى في نشوب الخلاف بين الاميريين خطاب (حطان) بن مبارك بن منقذ الكناني والي زبيد — والامير عز الدين بن عثمان الزنجيلي — والي عدن (٢) — حيث عكس هذا انطباعاً عاماً لدى الجميع عن ضعف الحكم الايوبي في اليمن : كما نتج عنه ادراك صلاح الدين ابن يوسف صاحب مصر والشام خطورة ما يبيته ذلك الوضع السياسي في اليمن بالنسبة للحكم الايوبي ، وكما ذكر في المصادر التاريخية عن خوف صلاح الدين بأن تخرج اليمن من حكمه (٣) ، ولهذا كله بعث مملوكه خطلبا (قتلغ أبة) على رأس حملة عسكرية إلى اليمن وما أن وصلها حتى استقرت الاحوال السياسية فيها إلا أن خطاب مات تاركاً حكم اليمن، وبهذا فسح المجال أمام الأميرين حطان الكناني ، وعز الدين الزنجيلي بالعودة إلى ولايتيهما فاستجد الخلاف بينهما من جديد واشتدت الفتنة باليمن ، وما أن تسربت اخبار اليمن إلى صلاح الدين هذه وحرصاً منه على استقرار الاوضاع السياسية

---

(١) عرفت الظروف المرحلية تلك التي تمثلت في سياسة صلاح الدين في الشام والجزيرة والتي اتخذت صفة الفتح والتحرير من ايدي الحكام المحليين ، كحصاره لدمشق وفتحه لحلب وبلاد الجزيرة ، فضلا عن حروبه مع الفرنج في مصر وبلاد الشام.

(٢) سيأتي شرح ذلك الخلاف وأبعاد التحرك السياسي للاميرين .

(٣) عز الدين ابي الحسن علي بن الاثير : الكامل في التاريخ ١ : ٤٧٢ ، شهاب الدين عبد الرحمن المقدسي ابو شامة : الروضتين في اخبار الدولتين : ٦/٢

والقضاء على الفتنة بادر إلى تجهيز حملة عسكرية ترك قيادتها إلى أخيه الملك سيف الاسلام طغتكين وذلك في أواخر سنة ٥٧٧هـ/ ١١٨١ لتعود اليمن في وصوله اليها/سنة ٥٧٨هـ/١١٨٢م إلى الحكم الايوبي .

ان عودة اليمن إلى الحكم الايوبي يعني بلا شك عودة الوحدة بين مصر والشام ، واليمن ، كما يعني فتح الطريق أمام الجيش الايوبي للوصول إلى مكة المكرمة . لتنضم هي الاخرى إلى وحدة العرب ودولة المسلمين.

لقد تركت المنازعات السياسية بين حكام اليمن اثرها الواضح في تسهيل، مهمة مد دولة صلاح الدين في مصر باتجاه اليمن وتوسيع رقعتها الجغرافية، فقد كانت عدن ومخلاف في يد بني زريع ، وكانت صنعاء وبعض مخاليفها في يد بني حاتم وكانت صعده والجوف في يد الامام المتوكل على الله أحمد بن سليمان وكان المخلاف السليماني في يد الشريف غانم بن يحيى بن حمزة وزبيد وماحولها في يد عبد النبي مهدي الحميري ، وكانت الخلافات مستفحلة بين تلك الاطراف السياسية الحاكمة كتلك التي دفعت بين حاكم مخلاف السليماني الشريف غانم ، وبين حاكم زبيد ابان وصول عسكر بني أيوب إلى اليمن مما سهل مهمة فتح اليمن ومد سيطرتهم فوق اراضيها .

لقد وفر الحكم الايوبي في اليمن لنفسه الكثير من الضمانات السياسية التي مكنته بالبقاء والاستمرار بالرغم من ضعف الحكم وفي بعض الفترات الزمنية منها ماسجله صلاح الدين من انتصارات في مصر وبلاد الشام على القوى الصليبية وخاصة في تحريره لفلسطين وبيت المقدس ... مما لفت معه نظر الجماهير العربية والاسلامية ، بأن تلتف حوله إلى جانب ماأسدله اعتراف الخليفة العباسي على حكمهم من شرعية وهيبة في النفوس ومن ضمنها اعترافه في حكمهم على اليمن واحتلالهم لمكة المكرمة فضلا عما سجله الحكم الايوبي بنفسه من انتصارات ساحقة على المعارضة القبلية والسياسية في اليمن بالاضافة إلى ماأثبته حكمهم من تقدم على طريق البناء الحضاري .

---

(٤): حسن سليمان محمود تاريخ اليمن السياسي: ٢٥٢

ان ماسبق لايعني بأن الحكم الايوبي لايخلو من الصعوبات التي واجهها وعلى رأسها المعارضة السياسية والتي تكشفها سلسلة الوقائع والحروب التي خاضتها عساكرهم والتي استغرقت الكثير من الوقت وعلى مدى خمسين عاماً من حكمهم تقريباً ، مما يفصح لنا أن حكمهم لم يستقر ، كما انه لايملك القدرة الكاملة في فرض هيمنته على جميع الاراضي اليمانية ، وقد تمثل هذا في الفتنة التي عصفت بحكمهم على اثر وفاة الملك المعظم تورانشاه بن أيوب ، وأخيه سيف الاسلام طغتكين .

وأخيراً فان فاعلية الحكم الايوبي في السيطرة المباشرة كانت قد تمت منذ سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م على اليمن على الرغم من معرفتنا بأن الحكم بدأ منذ سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م ،وعلى أثر وصول أول حملة أيوبية إلى اليمن بقيادة تورانشاه بن أيوب وبالرغم مما اتصف به حكمه من الحزم والشدة الا أن عودته إلى مصر والشام جعلت نوابه يتمتعون بالحكم الذاتي ، ولهذا كان عام ٥٧٨هـ يمثل مرحلة جديدة للحكم الايوبي في اليمن .

الملك سيف الاسلام طغتكين وحكم اليمن :

اختير الملك طغتكين ليكون قائداً للحملة الايوبية إلى اليمن من قبل صلاح الدين فوصل إلى زبيد سنة ٥٧٨هـ فخاف حاكمها خطاب بن منقذ وتحصن في بعض القلاع فلاطفه طغتكين حتى أمن جانبه فنزل اليه وتلقاه طغتكين مترجلا وقال له « أنت أخي» (١) فأحسن صحبته ، وأخيراً أذن له بالعودة إلى الشام (٢) فلما كان الغد دخل على سيف الاسلام ليودعه فقبض عليه وأودعه السجن وصادر أمواله وذخائره(٣)، وهكذا استطاع الملك طغتكين من ردع خطاب وعودة زبيد إلى بني أيوب .

---

(١) الزبيدي : قرة العيون : ٣٨٦/١ .
علي ابو الحسن بن ابي الكرم الجزري ابن الاثير : الكامل /٤٨/١١ سبط بن الجوزي مرآة الزمان : ق ٨ـ ٣٦٨/

(٢) ، ابن واصل : مفرج الكروب :٢ :١٠٥ .

(٣) ابن الاثيرة الكامل : ٤٨٠/١١ ،احمد بن ابراهيم الحنبلي : ١٩٩

أما عدن فان حاكمها عثمان الزنجبلي لما علم بما حل في صاحب زبيد خاف وأرتحل إلى الشام هارباً مما أتاح الفرصة أمام طغتكين أن يرسل نائبه إلى عدن فتسلمها وعندها صفت بلاد اليمن لسيف الاسلام وامتدت سيطرته على البلاد الواقعة بين زبيد وحضرموت (١) وبلغ الجوف وغيره وأخضع لحكمه جميع الحصون وما أن حل عام ٥٨١هـ / ١١٨٥ م حتى سيطر على حصن خدد وريمة الحديا ونعم .

لم تقتصر الانتصارات التي حققها سيف الاسلام طغتكين باليمن وعلى مدى خمس سنوات من حكمه فيها على ازالة الفتن والمستغلين على الحكم من امرائه فحسب وانما اتخذت بعداً سياسياً آخر شمل تحديد موقفه السياسي من بعض الامراء المحليين من حكام اليمن كبني همدان (بنوحاتم) في صنعاء وما جاورها فليس من السهل ان يذعن اولئك الحكام إلى الحكم الجديدكمالا يمكن للحكم الجديد ان يستمر مالم يوفر الحماية الكافية له وخاصة وانه ينشأ دولته في وسط أنظمة متعددة تمثل الخوارج والباطنية ذات النزعة القبلية... وضمن هذا الاتجاه سارت سياسة طغتكين في اليمن.

كانت صلتة الاولى مع بني همدان (بني حاتم) عندما نزل على حصن قب ليفتحه وجد فيه السلطان زياد بن حاتم الزريعي.. مما دعا زياد أن يستنجد بالسلطان علي الوحيد بن حاتم وبغيره .وعلى الرغم من استعداد زياد لنجدته إلا أنه حدث ما أفسد الحال بينهما مما أدى إلى خذلانه بالاضافة إلى أن سيف الاسلام توجه إلى مكة سنة ٥٨١هـ/١١٨٥م فاذا مارجع من مكة عاود الحصار الى ان فتحه سنة ٥٨٢هـ ١١٨٦م(٢) وقد أعطاه هذا الانتصار القوة السياسة ودفعه إلى أن يتقدم لاكمال مهمة السيطرة على مناطق أخرى بالاضافة إلى اعلان وجوه البلاد الطاعة له (٣) ثم سار بعسكره حتى وصل إلى ذمار فاوقع بقبيلة جنب فاستولى على بلادها

---

(١) الحنبلي : شفاء القلوب : ١٩٩ ، حسين بن احمد العرشي : بلوغ المرام : ٤١

(٢) الزبيدي : قرة العيون ٣٨٠/١ ، يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ٣٢٨/١

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ٣٢٨/١

وملك مهران– أما علي بن حاتم فلم يبق أمامه شيء الا أن يصدر الامر إلى أتباعه بخراب قصر غمدان وسور صنعاء وذلك سنة ٥٨٣هـ ١١٨٧م مما يدل على عدم امتلاكه القدرة لمقاومة سيف الاسلام ويؤكد لنا هذا انتقاله مع اخيه إلى حصن براش شاحناً العتاد والذخائر منه (١) بعد ان احرق جميع ما كان لهما من غلة، امر الرعايا بالخروج إلى حيث يمتنعو عن وطأة الجيش الايوبي (٢) فلجأوا إلى اتباع سياسة المهادنة الا ان جميع التدابير تلك لاتنفع بنو حاتم بتوفير الحماية الكافية لحكمهم ونفوذهم . فقد قدم حاتم بن اسعد إلى سيف الاسلام وهو مقيم في مشرق ذمار فعرض عليه الصلح فصالحه على ثمانين الف دينار ومائة حصان ، ولمدة سنة . ثم عاد سيف الاسلام الى اليمن (صنعاء) تاركاً الامير مظفر الدين قيماز حاكماً على ذمار الا ان قبيلة جنب عاودت الهجوم على عسكره بذمار يقودها الشيخ عمران ألجنبي (٣) تسندها قبيلة عيسى مما اضطر سيف الاسلام ان يسرع لنجدة عسكره في ذمار ، فلما رأت جنب عساكر بني ايوب ولت الادبار فتبعها سيف الاسلام واوقع بها وشتت شملها (٤) وغنم اموالها وقتل الكثير من رجالها ، ولهذا اضطر علي بن حاتم ان يعقد الصلح مع الايوبيين للعام المقبل وعلى شروط الصلح نفسها للسنة السابقة (٥) .

---

(١) اخطأ احمد بن حسين شرف الدين في ادراج هذه الحوادث ضمن سنة ٥٧٠هـ كما نسبها خطأ الى عهد تورنشاه بن ايوب والصحيح انها وقعت سنة ٥٨٣ هـ وتعود بلا شك الى عهد الملك سيف الاسلام طغتكين : انظر احمد حسين شرف الدين :
اليمن عبر التاريخ : ٣١١ (هامش١) مطبعة السنة المحمدية /ط٢ القاهرة /١٩٦٤ .

(٢) الزبيدي : قرة العيون : ٣٨٩/١

(٣) اورد اسمه يحيى بن الحسين تحت اسم زيدان عمر الجنبي : انظر يحيى بن الحسين غاية الاماني . ٣٣٩/١ :

(٤) قيل ان عدد قتلى قبيلة جنب على يد سيف الاسلام بلغ ستمائة في حين هرب شيخها عمران من وسط المعركة ناجياً : انظر الزبيدي : قرة العيون : ٣٨٩/١–٣٩٠ يحيى بن الحسين غاية الاماني ٣٢٩/١

(٥) غاية الاماني : ٣٢٩/١

لم يذعن بنو حاتم إلى السلطة الايوبية واستمرت الحرب سجالا بين الطرفين ففي سنة ٥٨٤هـ تقدم سيف الاسلام الى الدملوة (١) فحاصرها وطال امد الحصار حتى استسلم صاحبها جوهر المعظمي (٢) فنزل وعرض بيعها بعشرة الاف دينار ملكية واشترط ان لاينزل من الدملوة ولا يطلع اليه احد حتى يصل اولاد مولاه — اى موضع يقصدونه من جزائر بحر اليمن — فوافقه الملك الايوبي الا انه نقض هذا ، حيث هرب متخفياً وبصحبة اهله الى الحبشة عن طريق البحر بعد ان ترك نائبه في الدملوة (٣) فلما علم سيف الاسلام بامره ارسل إلى نائبه يطلب منه تسليم الحصن فامتنع فحاصرها وبينما هو على هذه الحال وصل اليه بشربن حاتم فأحسن ضيافته واكرمه الا ان قومه خالفوه فرجع إلى سيف الاسلام بالامر فقال له « تعهد لنا وكن منا ونطلق رهائنك » (٤) فتعهد له وكساه وأطلق رهائنه وأستمر تهديد طغتكين لقلاعهم وحصونهم حتى اضطرهم إلى مفاوضته وطلب الامان فخرج كل من الأخوين عمر بن بشر ابن حاتم وعلوان من حصن الفص إلى ذي مرمر بصحبة عوائلهم فتسلم الحصن ، وأتجه منه إلى قتال أهل الظفر حتى أجبر أميره سالم بن علي بن حاتم على التسليم (٥) ، وأخيراً حاصر حصن كوكبان وضربه بالمنجنيقات وفي داخله عمر بن حاتم ، فلما سئمت رجاله الحصار والحرب اضطر الامير إلى طلب الصلح من بني أيوب فوقع ذلك على أن يكون لبني حاتم العروس وبلاد يعينها الملك طغتكين (٦) لعمر بن علي بن حاتم وأن يطلق له أمواله فحصل ذلك ، ودخل الايوبيون كوكبان منتصرين .

---

(١) الدملوة : حصن عظيم باليمن كان يسكنه آل زريع ياقوت : معجم البلدان : ٤٧١/٢

(٢) جوهر المعظمي : —قيل هو مولى الدعاة بني زريع وولد الداعي عمران بن محمد بن سبأ ، انظر الزبيدي : قرة العيون : ٣٩٠/١

(٣) المصدرين السابقين .

(٤) الزبيدي : قرة العيون : ٣٩٣/١ ، يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ٣٣٢/١ .

(٥) المصدر السابق : ٣٩٤/١ .

(٦) الزبيدي : قرة العيون : ٣٩٤/١—٣٩٥ ، غاية الاماني : ٣٣٤/١ .

ان الصلح السابق لم يضع حداً للحروب بين الطرفين بل استمرت إلى سنة ٥٩٣هـ على مايبدو ، وأنتهت بسيطرة الملك طغتكين على سائر جبال اليمن ومدنه وحصونه ومخالفه من صعدة إلى عدن (١) وزالت مع هذه السيطرة دولة آل الصليحي وآل حاتم الاسماعيلية من اليمن .

شهدت فترة حكم سيف الاسلام طغتكين لليمن حروباً ومعارك متعددة أظهر خلالها شجاعة فائقة ومع ذلك فان تلك الحروب لم تشغله عن الانصراف إلى البناء الحضاري فقد عين الامراء نواباً على مدن اليمن وترك عند كل أمير مايحتاج اليه من الخيل والعسكر هذا في مجال البناء الاداري أما في مجال العمارة والبناء فقد انصرف في فترة استقرار إلى بناء الدور وتشييد القصور بالاضافة إلى بنائه مدينة المنصورة (٢) .

أشاد الكثير من المؤرخين في سياسة دولته التي أمتدت من زبيد إلى حضرموت ، وما أن حل شوال من سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٩م حتى توفي الملك المعظم سيف الاسلام طغتكين في مدينة المنصورة بعد أن دام حكمه ست عشرة سنة (٣) .

اليمن في عهد الملك اسماعيل بن طغتكين بن أيوب :

هو الملك اسماعيل بن طغتكين بن أيوب بن شاذى الملك شمس الملوك بن العزيز كان اكبر اخوته سناً واكثرهم قرباً الى أبيه حيث يعول اكثر امور الدولة اليه (٤) الا أنه لم يستمر بالعيش قريباً من الحكم اذ طرده والده الى الحجاز(٥)

---

(١) يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ٣٣٥/١ .

(٢) سوف لا أتناول في البحث الجانب الحضاري للايوبيين في اليمن انظر : سبط بن الجوزي مرآة الزمان : ق٢جـ٨ /٤٥٣ ، الذهبي : تاريخ الاسلام : م٢٨ :ورقة ٧٠

(٣) ابن الاثير الكامل : ١٢٨/١٢ الخزرجي : تأريخ دولة الاكراد والاتراك : ورقة ٢٦٣ سبط بن الجوزي : مرآة الزمان : ق٢جـ٨ /٤٥٣ ، الذهبي : تأريخ الاسلام : م٢٨ ورقة ٧٠ .

(٤) ابو مخزمة /تاريخ ثغر عدن : ٢٩/٢ .

(٥) الحنبلي : شفاء القلوب : ٢٧٠ .

الامر الذي جعله ينقم عليه (١) إلا أن وفاة ابيه اعقبت خروجه فادركه العلم بها (٢) وهو في المخلاف السليماني فرجع إلى اليمن وتسلم حكمها فدخل زبيد في ١٩ ذى القعدة سنة ٥٩٣ هـ/١١٩٦ م ومنها رحل إلى تعز ثم جبلة (٣) وكان يهدف من هذه الجولة التأكد عن مدى ولاء هذه المناطق لحكمه السياسي حيث نراه في مطلع عام ٥٩٤هـ يختتم جولته هذه بالسير إلى صنعاء وهناك يقدم على قتل الامير الهمام — نائب ابيه على صنعاء — وجعل في عهدته شهاب الجزرى (٤) وما أن تأكد من ولاء صنعاء له حتى نراه يعود إلى اليمن ...

وعلى الرغم من تلك الجولة التي قام بها الملك المعز بن طغتكين فلا تزال بعض الصعوبات تعترض حكمه مما استوجب عليه معالجتها منها.

اعادة النظر في علاقة بني أيوب مع الحواتم من بني همدان — لقد استجد على ساحة اليمن السياسية بعض الامور التي كان لها الاثر في تحديد علاقة بني ايوب مع الحواتم منها تجديد امامة المنصور عبدالله بن حمزة الحسين، واخذ البيعة له من اعيان اليمن ومن بينهم السلطان علي بن حاتم فاجابه واعانه (٥) في وقت كانت علاقة بني ايوب غير طيبة مع الامام المنصور بالله حيث اوقعوا في جيشه الهزيمة وقتلوا الامير محمد بن علي احد

---

(١) ان كل ما ذكر عن سبب نقمة ابيه عليه هو ما ظهر لابيه منه الخروج عن مذهب السنة اي اصبح على مذهب الامامية والشيعة فطرده من اليمن فخرج مغاضباً لابيه يريد بغداد ...
راجع ابا مخرمة ٢ ١٩، الزبيدي : بغية المستفيد ورقة ٤٠ .

(٢) وذكر بان جمال الدولة كافور احد اعيان دولة بني ايوب بعث بعده النجي وعرفه بوفاة والده فحضر وملك اليمن : انظر ابن واصل : مفرج الكروب : ٧٣١٣ شفاء القلوب ١٩٩ الزبيدي قرة العيون : ٤٠/١ ، الحنبلي / ١٩٩ .

(٣) الخزرجي : تاريخ دولة الأكراد والاتراك ورقة :٦٣ .
الذهبي / تاريخ الاسلام ، مجلد ٢٨ ورقة ٧٧٠ .
ابو مخرمة /١٩/١ ، الزبيدي ، قرة العيون ٤٠٠/٢١ .

(٤) يحيى ابن الحسين : غاية الاماني /٣٤١/١ .

(٥) يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ٣٤١/١

قادته (١) .. وهنا يتوجب على الملك المعز ان يجابه صعوبة التحالف السياسي بين الامام المنصور والسلطان علي بن حاتم ولم يبق امامه سوى مراسلة علي بن حاتم فكتب اليه يستميله إلى طاعته وانه سيعطيه صنعاء فاتفق الامر بينهما فبعث اليه علي بن حاتم اخاه بشـــراً وولده عمر بن علي فلما وصـــلا القى القبض عليهما ناقضـــاً عهده مما اســفر عنه ثبات عـلي بن حاتم على موالاة الامام المنصور (٢) حيث لجأ الامير الى معاضدة السلطان عـلي بن حاتم مصافياً له وجرت بينهما عهـود منها ان الامام اذا تمكن من البلاد ومن صنعاء ترك حصون السلطان علي بن حاتم جميعها وتكون صنعاء بينهما نصفين (٣) الا ان تحالف الامام مع الامير حاتم ضد بني ايوب لم يستمر طـويلا والسبب يعود الى تراجع الامام عن شروط الاتفاق فقد رفض تسـليم صنعاء الى الامير علي بن حاتم اذ منعه اصحابه وصرفوه عن العـهد فلما رأى علي ذلك لزم حصنه ذمرمر وبقي فيه الى ان توفى سنة ٥٩٧هـ/١٢٠٢م (٤).
هكذا تخلص الملك المعز منه اما موقف بقية امراء بني حاتم من حـكم الملك المعز فقد وقفوا موقف المعارضين لحكمه ومنهم الامير بشر بن حاتم الذي استطاع الملك المعز القاء القبض عليه وايداعه السجن بحصن التعكر (٥) اما عمرو بن علي بن حاتم فهو الآخر تلقى الهزيمة على يد الملك المعز حينما حاصر كوكبان في سنة ٥٩١هـ /١١٩٩م وفيه عمرو بن علي بن حاتم . مقيما وبصحبته عسكر من حمير وغيرهم ، فأضطرهم المعز إلى الهروب من شبام فتسلمها منهم (٦) .

ان الانتصارات المتلاحقة التي حققها بنو ايوب ضد بني حاتم اجبرتهم إلى سلوك خط العود للتحالف مع الامام المنصور على حرب الملك المعز ،

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب : ١٣٦/٣ ؛ وغاية الاماني : ٣٤١/١
(٢) تاريخ ابن الفرات م ٤ ح ٢٢٩/٢ .
(٣) الزبيدي : قرة العيون ٤٠٣/١-٤٠٤ .
(٤) نفس المصدر السابق : ٤٠٤/١.
(٥) يحيي بن الحسين : غاية الاماني ٣٥١/١ .
(٦) المصدر السابق : ٣٥٢/١ .

وعلى الرغم من اجتماع اهل الرحبة من حمير واهل سنجان حول عسكر الامام بقيادة اخيه الامير الحسن بن حمزة وهجومهم على الجيش الايوبي ولجوئهم إلى قطع طريق اليمن الاسفل ، لمنع ايصال الامدادات إلى الجيش الايوبي ، لم ينجحوا في قهر بني ايوب وذلك لاضطراب البلاد وانقطاع المواد عن محطة كوكبان وارتفاع الاسعار كل هذا اضطرهم إلى عقد الصلح مع الملك المعز على (ان يكون كوكبان وبكر له مقابل ان يطلق سراح الامير بشر بن حاتم من سجنه)(١) وما ان تقرر الصلح حتى دخل المعز كوكبان من جديد واذعنت لسلطته وعندها وصله بشر بن حاتم فاكرمه وخلع عليه وهكذا تقرر الصلح بين الطرفين في اليمن.

اما القوة السياسية الثانية التي ظلت تحمل لواء المعارضة للوجود الايوبي في اليمن وتشكل احدى الصعوبات المهمة التي وجب على بني ايوب تجاوزها هي قوة الامام المنصور عبدالله بن حمزة الحسيني والذي توجه الملك المعز إلى حربه وبصحبته الامير سيف الدين جكوا بن محمد الكردى وذلك سنة ٥٩٤هـ/ ١١٩٧ م فاذا ماالتقى الجيشان ثبت جكوا وقاتل بشجاعه حتى هزم جيش الامام ودخل المعز صنعاء منتصراً (٢).

ان الانتصار الذي سجله الملك المعز على الامام المنصور لم يغير من موقف الاخير تجاه الايوبيين وحكمهم بل استطاع ان يسيطر على جهات صعدة وتنقل بين معين وبراقش (٣) وفي الحصن الاخير وردت اليه كتب الاشراف والسلاطين يعرضون قوتهم عليه ومعاضدتهم له على حرب بني أيوب وقد وقع مايشير إلى ذلك حيث اجتمعت عساكر الامام على حربهم فتحالف بنو حاتم مع الامام سنة ٥٩٦ هـ / ١١٩٩ م وأشاروا عليه بقطع الطريق على جيش الايوبيين وذلك بالتحرك في اتجاه صنعاء ، فارسل أخاه الامير الحسن إلى ذى مرمر ، وهناك تحالف مع العرب من حمير وسنحان الا أن خططهم فشلت جميعاً ولم يبق

---

(١) انظر المصدر السابق /١/٣٥٢-٥٣ ٣

(٢) الزبيدي : قرة العيون :٤٠٢/١ .

(٣) معين وبراقش : حصنان من حصون اليمن .

امام تلك القوى السياسية والمحالفات العسكرية سوى عقد الصلح مع بني ايوب بسبب ماحققوه من انتصارات متتالية (١).

يتضح لنا مما سبق قدرة الملك اسماعيل على تجاوز الصعوبات التي واجهت حكمه بما فيها تحرك القوى السياسية المتواجدة في المناطق المحيطة بالاراضي التي يحكموها ، وهذا ناتج بلا شك من نظرة تلك القوى إلى بني أيوب بانهم يمثلون القوة السياسية الغريبة على بلادهم وجب ازالتها فضلا عن انعدام التجانس المذهبي بينهم وبين بني أيوب ، وقد كانت هذه النظرة وذلك التجانس يمثلان الدافع الرئيسي الذي يحرك جماهير اليمن باتجاه المعارضة السياسية والعسكرية لحكم بني ايوب وعلى طيلة فترة حكمهم في اليمن ، ومع هذا فان حكم الملك اسماعيل بن طغتكين لايخلو من السلبيات التي وقع فيها وكان ذلك من العوامل المهمة في انهاء حكمه ، ومنها : ١ — مغايرته لمذهب اسرته : — ففي سنة ٥٩٣ هـ/ ١١٩٦ م خرج من زبيد إلى تعز وهناك أظهر مذهبه المتمثل في مخالفة مذهب السنة وتشيعه (مذهب اسرته) فقويت به الاسماعيلية مما نتج عنه آثار سيئة انعكست على سياسته الداخلية وشق وحدة الاهالي .

٢ — ادعى انه أموي ورام الخلافة كما ادعى انه قرشي النسب وخوطب بأمير المؤمنين وتلقب بالهادي (٢)، وقطع خطبة العباسيين من منابر اليمن فلما سمع عمه الملك العادل ذلك انكره وساءه فعله وكتب اليه يلومه ونهاه عن ذلك ووبخه (٣) ففي تصرفه هذا اعطى بلا شك الصورة السيئة عن ضعف شخصيته وعدم اقتداره على تحمل المسؤولية كحاكم سياسي بحيث يتفق والارتفاع إلى مستوى تلك المسؤولية ولهذا سقط في نظر ملوك بني ايوب في الشام ومصر

(١) راجع بصدد تلك الانتصارات يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ٣٥٢/١ .

(٢) انظر : الخزرجي : تاريخ دولة الأكراد والاتراك : ورقة ٦٣ ، ابو محزمه : تاريخ ثغر عدن : ٢٠/١ ، الحنبلي : شفاء القلوب : ٢ : ٢٧٢ .

(٣) ابن الاثير : ١٣٠/١١ ، ابن واصل : مفرج الكروب : ١٣٦/٣ — ١٢٧ . ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات : م ٤ ج ٢ / ٢٣٠ .
الحنبلي : شفاء القلوب : ٢٧٢ ابو محزمة : تاريخ ثغر عدن : ٢٠/١ .

والجزيرة بالاضافة إلى سقوط شخصيته من نظر جماهير اليمن وحكامها .
٣ ـ ادعاءه النبوة : فكان هذا سببا رئيسا في خروج جماعة من مماليك ابيه عن طاعته وقتاله فانتصر عليهم(١) الا أن نقمتهم لم تزل مما حبا بهم إلى الاتفاق مع جماعة من الأكراد للتخطيط لقتله وفعلا نجحوا بمهمتهم وقتلوه في القوير من اعمال زبيد سنة ٥٩٩هـ/ ١٢٠٢م واقاموا اخاه الناصر محله على حكم اليمن(٢).
٤ ـ ظلمه للرعية وغلبة الشح في عطائه للجند بل ذكر انه منع ارازقهم في حين كان يصرفها على الشعراء والمسافر (المتمسخرين) (٣).

وهكذا اجتمعت عدة عوامل تمثل في مجموعها سوء سلوكيته وسياسته مع الاهالي وعساكره كما تعكس لنا من الجانب الاخر التناقض الواضح في الولاء المزدوج للمبادىء والقيم التي وجد من أجلها الحكم الايوبي في اليمن وهو وحدة الامة عن طريق توفير الحماية العسكرية لظهور المقاتلين العرب والمسلمين في الشام ومصر ضد الغزاة الصليبيين . خاصة وانه نعت من قبل بعض المؤرخين بانه كان شهما شجاعا، وشاعراً فصيحا متأدبا سفاكا للدماء سريع البطش (٤).

سمات الحكم الايوبي باليمن بعد وفاة الملك اسماعيل بن طغتكين :ـ

تركت وفاة الملك المعز اسماعيل بن طغتكين آثاراً واضحة على الحكم الايوبي في اليمن منها: ليس هناك شخص قدير من الاسرة الايوبية يتولى حكم المملكة مما اضطر الامراء الأكراد إلى تنصيب الملك الناصر سيف الدين بن العزيز بالملك اخي الملك المغر وهو طفل صغير ، وعينوا اتابكا له الامير سيف الدين سنقر مملوك والده فتولى الاتابك تدبير امر المملكة (٥) .

(١) ذكر ان عدد مماليك ابيه الذين خرجوا عن طاعته وحاربوه فكسرهم ثمانمائة مملوك .. . راجع : ابن واصل : مفرج الكروب : ١٣٦/٣ .
(٢) انظر : ابن الاثير : الكامل /١٣٠/١١ ابن واصل : مفرج الكروب : ١٣٧/٣ ، ابو الفداء : المختصر : ١٠٢/٣ (المطبعة الحسينية) .
(٣) ابو محزمة : تاريخ ثغر عدن : ٢٠ ، الزبيدي : قرة العيون : ٤٠٣/١ .
(٤) المصدران السابقين : نفس المكان .
(٥) ابن واصل : مفرج الكروب ١٣/٣ ، ابو محزمة : تاريخ ثغر عدن : ٢٤/٢ الخزرجي ، العقود اللؤلؤية : ٢٩/١ .

بالاضافة إلى هذا فقد كان لمقتل المعز اثر في اضطراب الحالة السياسية باليمن فقد تحرك الاكراد إلى زبيد ونهبوها(١)؛كما اضطربت الامور على الامير سيف الدين سنقر في كثير من البلاد ؛ وتحركت عليه العساكر وقاتلوه، وجرت حروب كثيرة بينهم حتى انتصر عليهم(٢)وذكر انه كاتب الاكراد وصالحهم(٣) واقطع الامير علم الدين ورؤساء صنعاء والامير حسام الدين بكتمر السيفي تهامة ما خلا زبيداً والكدري (٤)؛وحالف أهل صنعاء على وردسار،(٥)وبهذا تحرك كبار الامراء ضد حكم بن ايوب وعلى الرغم من ذلك فان المحالفات والمصانعات هذه لم تستمر طويلا ففي عام ٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ نقض الاكراد واستبدلوا بملك زبيد وما وراءها من التهائم فامر نائبه الامير وردسار بمصالحة الامام المنصور،ففعل وأتفق على قصد الاكراد فما كان على الامام المنصور الا أن يوافقه على هذا فخرج بجيش كثيف حتى التقى مع جيش الاتابك سيف الدين سنقر . وعندها جرت المعركة مع الاكراد . وثبت الامير علم الدين وردسار في وسط المعركة انتهت بانتصار جيش الاتابك (٦) وقتل جماعة من الاكراد والاتراك . والقي القبض على القسم الاخر وهكذا أصبح الحكم الايوبي للاتابك باليمن (٧) حيث استولى على زبيد والتهائم بأسرها .

---

(١) الزبيدي : قرة العيون : ٤٠٦/١ ، يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ٣٥٧/١ .

(٢) ابن واصل مفرج الكروب : ١٣٧/٣ .

(٣) الزبيدي : قرة العيون : ٤٠٥/١ .

(٤) الكدرى لم أجد لها تعريفاً ، بل ذكر ياقوت اسم مدينة نحت رسم كدراء بالمد ، وهي تأنيث الاكدر ، وقال هي اسم مدينة باليمن على وادي سهام ، واضاف الهمداني ، والكدراء مدينة يسكنها خليط من عك والاشعر .. انظر ياقوت : معجم البلدان : ٤٤١/٤ ، الهمداني : صفة جزيرة العرب : ٥٤ (طبعة ليدن) .

(٥) الزبيدي : قرة العيون : ٤٠٥/١ .

(٦) المصدر السابق : ٤٠٦/١ ، يحيى ابن الحسين : غاية الاماني : ٣٥٨/١-٣٥٩.

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب : ٢١٣٧/٣ .

ان ما سبق يمثل انقسام قادة الحكم الايوبي باليمن ، ويعكسه بلاشك تحرك الامراء للاستئثار بالحكم ، وما اضطراب الحالة السياسية الا دليل على ذلك مستغلين غياب الحاكم السياسي عن الساحة السياسية ، كما يفصح عن ضعف السلطة وفقدان سيطرتها .

والاثر الآخر الذي تركته وفاة الملك المعز باليمن هو اعادة الخطبة العباسية في زبيد وصنعاء (١) بعد ان قطعها الملك المعز «اذ خطب لنفسه بالخلافة على منابر اليمن ، وخطب بنفسه على المنبر يوم الجمعة »(٢) .

اما موقف السلطة الايوبية المركزية في مصر والشام من احداث اليمن هذه فلم تقدم لنا المصادر التاريخية معلومات عدا توفر نص تاريخي بيننا يشير الى كتاب ارسل من المختص والي البر بحماة الى الملك المنصور صاحب حماة، وكان المختص قد حج سنة ٥٩٨هـ ١٢٠١م يخبره بمقتل الملك المعز باليمن (٣) ويكشف لنا هذا ان السلطة الايوبية في الشام كانت على صلة مع اخبار وحوادث الحكم الايوبي في اليمن ومما يفصح عن هذا اكثر هو ان الشخص الذي تولى الكتابة الى الشام الامير شهاب الدين الجزري صاحب صنعاء اذ ارسل كتاباً الى الملك العادل الايوبي صاحب مصر والشام يذكر فيه جملاً من الحوادث في اليمن منها مقتل المعز بن طغتكين وذكره لامامه الامام المنصور (٤) ، ومن المحتمل ان الكتاب نفسه الذي ارسله المختص والي البر في حماة الى الملك المنصور وربما اوصله الملك المنصور بعد ذلك الى الملك العادل ملك الايوبيين وسلطانهم. اما علاقة الحكم الايوبي مع الامراء الموجودين باليمن فكانت تقوم على المهادنة والمصانعة تارة وعلى نقض العهود والمواثيق تارة اخرى ،ووفق ما تمليه الظروف المرحلية التي يمر بها الحكم الايوبي هناك ففي صنعاء كان يحكم الامير شهاب الدين

---

(١) الزبيدي : قرة العيون :٤٠٥/١، يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ٣٥٨/١.
(٢) ابن واصل : مفرج الكروب : ١٣٧/٣ .
(٣) المصدر السابق : ١٣٥ - ١٣٦ ، ابن الفرات :تاريخ ابن الفرات :م٤ج٢٣٢/٢
(٤) يحيى ابن الحسين : غاية الاماني : ٣٦٢/١ .

الجزري ولا يزال يدين بالولاء والتبعية الى الحكم الايوبي وانه نائبهم في صنعاء (١) اما الامير ورد سار ففي هذه الفترة اظهر الطاعة للأمام المنصور وعلى اثر وفاة الملك المعز ، فما كان على الامام المنصور الا أن يكرمه ويقدمه على جيشه الذي سار الى صنعاء وبصحبته الامير محمد بن ابراهيم ، بعد ان اعطاه حصاناً وخلع عليه الجند ووعده بولاية صنعاء فيما اذا انتصر على من فيها (٢) وما ان تجهز الامير ورد سار حتى وصله كتاب من الغز (الايوبين) بصنعاء يستدعونه للسير اليهم ففعل ، وما ان دخل المدينة اجتمع بالامير شهاب الدين الجزري وعرفه بما يريده من موالاة الامام المنصور : هو تحقيق هدف مرحلي يتجسد في تمرير الحوادث الجسام التي تسيطر على اليمن وذلك عن طريق الاعتصام بطاعته وفعلا تمت المراسلة بين الامير الجزري والامام انتهت بمبايعته للامام واعلان الطاعة له وبهذا يكون قد وقف علمياً الى جانب ورد سار واعطى صوته بالتأييد ظاهرياً لسلطة الامام المنصور (٣) ..اما موقف الامير سيف الدين سنقر فقد وافاه رسول الامام ، في الجند (٤) ، يدعوه الى الطاعة والولاء وطالبه بالجواب ، فقال له لايكون الجواب الا بعد الاجتماع بوردسار (٥) ، وعلى الرغم من ذلك لم يظهر الامير سنقر اي ميل الى تأييد الامام بل ماطل رسوله بالوعود حتى انصرف عنه ، فاذا كان هذا امر زبيد ، وصنعاء فتهامة لاتختلف عنهما بشيء اذ كانت هي الاخرى خاضعة الى حكم بني ايوب ، وكتب الامام المنصور بالله الى امير نصبه بنو ايوب يعرف بشيرياك (٦)

---

(١) يحيى بن الحسين /غاية الاماني : ٣٥٨/١

(٢) المصدر السابق : نفس المكان .

(٣) المصدر السابق نفس المكان ٣٥٩/١ – ٣٦٠ .

(٤) الجند مجبل باليمن هكذا ذكره ياقوت الحموي/ معجم البلدان : ٢/ ١٧٠ وأشار الهمداني، بأنها مدينة وهي من أرض السكاسك وإلى أعمالها ينسب في دواوين الخلفاء قرى تهامة اليمانية ، انظر الهمداني صفة جزيرة العرب : ٥٤ .

(٥) يحيى بن الحسن : غاية الاماني ٣٦٣/١ .

(٦) الامير شيرياك : لم أعثر على ترجمة له سوى ماشير بأنه كان من جملة من وصل إلى الامام المنصور مع الامير وردسار ايام الملك المعز : المصدر : انظر المصدر السابق ٣٦٦/١

يدعوه بالدخول في طاعته وما ان وصل الرسول وابلغه الامير الانقياد الى الامام القى بكتابه الى الارض ورد رسوله ، وتم هذا كله في عام ٥٩٨هـ ١٢٠١م واثبت لرسول الامام انه قادر على صيانة البلاد واستقلالها من الغزو الخارجي خاصة وقد وجده على حالة كبيرة ، وعنده من الخيل والمماليك مثلما كان عند المعز بن طغتكين (١)

أضف إلى هذا فقد سجلت عساكر الايوبيين عدة إنتصارات وعلى مدى خمس سنوات من حكم الامير سنقر شملت تحرير الكثير من الاراضي الواقعة مابين زبيد وصنعاء كان آخرها قهر بالسيف لبراقش (٢) واستمرت الحرب بين الطرفين إلى سنة ٦٠٨هـ/ ١١ ١٢م/ حيث تمت المراسلة بين الامير سنقر والامام المنصور انتهت بتوقيع الصلح بينهما لمدة سنتين (٣)، وبهذا الصلح انتهى الخلاف مع أقوى شخصية باليمن آنذاك تمثل المعارضة للايوبيين في اليمن .

كانت الخطوة التالية هو القاء القبض على الامير شهاب الدين الجزرى من قبل سنقر فاودعه السجن في قلعة تعكر ، منها توجه إلى تعز فادركته الوفاة فيها سنة ٦٠٨هـ/ ١٢١١م . مما اتاح الفرصة امام الملك الناصر أيوب أن يستقل بحكم اليمن على الرغم من حداثة سنه وأسند أمر دولته إلى الامير علم الدين وردسار (٤) الذى استطاع ان ينقذ موقف الحكم الايوبي من التداعي والانهيار خاصة وان الامام المنصور عبدالله بن حمزة عاد الى قتال العساكر الايوبية وبقي الامير وردسار في الحكم إلى سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م . حيث مات في هذا العام ، ثم توفي بعده الملك الناصر

---

(١) المصدر السابق : نفس المكان .

(٢) براقش : هي حصن من حصون اليمن : انظر : ياقوت : معجم البلدان : ٣٦٤/١.

(٣) غاية الاماني : ٣٩٥/١ .

(٤) ابن واصل :مفرج الكروب : ٣٧/٣ ، ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن : ٢٤/٢ .

ايوب وذلك في اوائل سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م تاركاً حكم اليمن إلى وزيره بدر الدين غازي (١).

استطاع الوزير بدر الدين غازى ان يضطلع بمهمة الملك، فخالف العسكر وأجتمع بالاكابر من الامراء وفرق عليهم الاموال واستخلفهم على حكمه ووضعهم على امارة المدن ودخل صنعاء وخطب له على منابرها، ثم خرج منها إلى اليمن الاسفل وفي الطريق وثب عليه مماليك الناصر فقتلوه في منطقة السحول (٢) وذلك سنة ٦١١هـ وقيل ان ام الملك الناصر حرضتهم على قتله انتقاماً وثأراً لدم ابنها الملك الناصر لان الامير غازى أتهم بقتل ولدها (٣).

بقي الحكم الايوبي بدون رجل يدير أموره واستطاعت ام الناصر التغلب على زبيد والاستيلاء على الاموال، وانتظرت وصول رجل من بني أيوب تسلمه ادارة البلاد وبعثت إلى مكة بعض غلمانها يكشف لها عن أخبار مصر والشام (٤) حيث انقطعت صلة اليمن بهما على مايبدو وما ان وصل الرسول إلى مكة حتى التقى مع الملك سليمان بن شاهنشاه بن أيوب الذى قدم إلى مكة حاجاً، فعرفه بأحوال اليمن، فسار معه حتى وصل اليمن وحضر عند الملكة ام الناصر ايوب وخلعت عليه وتزوجته وملكته اليمن وذلك في ربيع سنة ٦١١هـ/ ١٢١٤م. (٥)

---

(١) ذكر علي بن الحسين ان الملك الناصر أيوب جعل القائم بأعماله صاحب بابه وأستاذ داره غازي بن جبريل : انظر يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ١/٣٩٥ .

(٢) السحول : قرية من قرى اليمن يحمل منها ثياب قطن تدعى السحولية.

(٣) ذكر ابن واصل ، وأبو الفداء أن الذين قتلوه هم جماعة من عرب البلاد والصحيح هو أن المماليك الايوبية هم الذين تولوا قتله ، والتصريب من الحنبلي : شفاء القلوب : ٢٧٢.

(٤) ابن واصل : مفرج الكروب : ٣/١٣٨ - ١٣٩ ، ابن ايبك الداوندار :كنز الدرر: ٧/١٥٦ ، ابن خلدون : تاريخ : ٥/٣٣٤ .

(٥) الزبيدي : قرة العيون : ١/٤١١ .

أساء الملك سليمان بن شاهنشاه بن عمر التصرف بالملك وتنكر لحقوق الملكة زوجته ، وانشغل بالملذات ، وعرف حكمه بالجور والظلم (١) هذا من العوامل التي ادت إلى ضعف حكمه وانهياره ، إلى جانب هذا أساء التصرف مع السلطان العادل - الملك الايوبي - حيث ارسل اليه كتاباً جعل في اوله « أنه من سليمان وانه بسم الله الرحمن الرحيم» ، مما جعل الملك العادل يحكم على سوء تصرفه (٢) فضلا عما بلغ الملك العادل من أخبار تفصح عن اضطراب الحالة السياسية منها مقتل المعز وسم أخيه الناصر وما جرى من تآمر على الحكم من قبل الوزراء .. كل هذ الامور جعلته يرى ضرورة أن يولي أمر اليمن ملكاً قوياً حازماً يدير سياستها (٣).

ان ماسبق ليمثل بلاشك مرحلة ضعف وانحطاط للحكم الايوبي ويكشف، ذلك خروج بعض البلاد من سيطرتهم كصنعاء التي دخلها الامام المنصور عبدالله بن حمزة الحسين على أثر وفاة الملك الناصر ، ودانت له بعض الوقت كما حاصر ذمار واستولى على كوكبان وساد البلاد حالة من الفوضى والخراب (٤) بسبب حرب الامام للايوبيين مستغلا ضعف سلطتهم إلى جانب تعدد مراكز القوى والتي كان من نتائجها إنقسام البلاد إلى اقاليم ادارية يحكم في كل اقليم أمير من امرائهم ، كما ان الحكم الايوبي في اليمن بقي في صلة مع الحكم المركزي بمصر وبلاد الشام على الرغم من فتور تلك العلاقة أحياناً ويعود الامر إلى انشغال ذلك الحكم في الفرنج الذين استفحل أمرهم هناك بالاضافة إلى انشغال الملك العادل في تثبيت حكمه بالاقاليم الشرقية من دولته في بلاد الشام والجزيرة اذ

(١) ابو الفداء : المختصر : ١٠٢/٣ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ٣٠/١ ، قرة العيون: ٤١١/١ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ٣٠/١ ، قرة العيون : ٤١١/١-٤١٢

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب : ١٣٩/٣ ، الزبيدي : قرة العيون : ٤١١/١-٤١٢ه

(٤) راجع عن ذلك الخراب يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ٤٠/١ .

لايزال الملك الظاهر بن أخيه السلطان صلاح الدين يوسف بن ايوب يحمل لواء المعارضة بالمنطقة الى ان انتهى الامر معه بتوقيع الصلح سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م(١) واخيرا رحل الملك العادل الى مصر واستقر بدار الوزراة ، في وقت كان قد رتب اولاده في حكم اقاليم البلاد . فكانت مصر من حصة ابنه الملك الكامل الذى يرجع اليه امر تجهيز ولده المسعود صلاح الدين يوسف المعروف باطسيس (٢) (اطسز) الى اليمن لانقاذ الحكم الايوبي من الضياع آلت البلاد من تمزق بسبب ضعف السياسة التي سلكها الملك سليمان بن سعد الدين شاهنشاه بن تقي الدين بن عمر باليمن الى جانب هذا فقد وصل كتاب ابن النساخ المطرفي إلى الخليفة العباسي الناصر لدين الله ابو العباس احمد المستضيء الذى يشكو فيه ماحل باليمن فامر عندها الخليفة صاحب مصر الملك العادل بالتوجه إلى اليمن (٣) فوقع الاختيار على ارسال حفيده المسعود إلى اليمن فرحل من مصر يوم الاثنين ١٧ رمضان سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م. بالف من الجند وخمسمائة من الرماة (٤) وامده بالاموال ، وكتب إلى الامير شمس الدين علي بن رسول وإلى سائر الامراء المصريين باليمن يأمرهم بحسن صحبته وخلمته (٥) وكان المسعود

---

(١) انظر ابن واصل : مفرج الكروب : ٣ :

(٢) اطسيس : هي كلمة تركية معناها بالعربية ماله اسم ، ويقال انما سمي بذلك لا ن الملك الكامل ماكان يعيش له ولد ، فلما ولد له المسعود ، قال بعض الحاضرين في مجلسه من الاتراك في بلادنا اذا كان الرجل لا يعيش له ولد سماه اطسيس فسماه اطسيس ، والناس يقولون اقسيس بالقاف وصوابه بالطاء . وهكذا ذكره ابن خلكان : وفيات الاعيان : ١٦٧/٤ .

(٣) يحيى ابن الحسين : غاية الاماني : ٤٠٣/١ .

(٤) اتفقت المصادر على عدم ذكر عدد الجيش الذي كان بعهدته إلى اليمن الا ان الحنبلي انفرد في ايراد هذا الرقم . انظر ابن واصل : مفرج الكروب : ١٧٠/٣٠ الخزرجي العقود اللؤلؤية : ٣٠/١ ، الذهبي : تاريخ الاسلام : مجلد ٣٠ ، ورقة ٢٢٢ (قسم المخطوط - دار الكتب المصرية - رقم ٤٢) ، الحنبلي شفاء القلوب : ٢٦٢ .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ٣٠/١ .

حديث السن في حد البلوغ (١) ، وجعل اتابكة ومدبر ملكه جمال الدين فليت (٢)، فوصل مكة ودخلها في ثالث ذى الحجة سنة ٦١١هـ / ١٢١٤م واستقبله قتادة بن ادريس وحج المسعود وخطب له بمكة ، فما كان على المسعود الا أن يكرم قتادة فخلع عليه وحمل اليه الف دينار وقماشا بالف اخرى ، وذكر بانه اقام بمكة ستة أشهر (٣)، رحل منها الى اليمن ، فوصلها ودخل زبيدا يوم السبت الثاني من المحرم سنة ٦١٢هـ / ١٢١٥ م ، وأول عمل قام به هو مراسلة الملك سليمان بن تقي الدين يسأله الصلح على أن تكون الجبال لسليمان والتهائم له (٤) فلما سمع بذلك الامير بدر الدين الحسن بن علي بن رسول سار الى الملك المسعود وحثه بالتوجه الى تعز لحرب سليمان (٥) والعدول عن فكرة الصلح وقال له « انك لاتجد في الجبال من يصدك عنها والرأي ان تكتب الى المماليك بتسليم سليمان اليك» (٦) فكتب اليهم فعلا كما سار بنفسه الى تعز لمواجهة خصمه وراسل الجند الموجودين في داخل الحصن وأمر بالقاء القبض على سليمان فظفروا به ، وبعثه المسعود تحت الحفظ إلى مصر (٧)، ودخل المسعود حصن تعز يوم الاحد عاشر صفر من سنة ٦١٢هـ ١٢١٥م . ، وبهذا التاريخ يبدأ حكم المسعود لليمن ، حيث شرعت عساكره في اعادة المناطق التي خرجت عن حكم بني أيوب كذمار وصنعاء وبيت

---

(١) ذكر ابن بهادر أن عمره حينذاك عشر سنوات ، والايبك التركماني هو اتابكه انظر ابن بهادر : فتوح النصر : القسم الأول : و٧٥ ، (قسم المخطوط) .

(٢) راجع : قرة العيون : ٤١٢/١ ، يحيى بن الحسين : غاية الاماني ٤٠٣/١ .

(٣) الحنبلي : شفاء القلوب : ٢٧٢ .

(٤) الزبيدي : قرة العيون : ٤١٣/١ ، الخزرجي : العقود اللؤلؤية ٣١/١ .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ٣١/١ .

(٦) يحيى بن الحسين : غاية الاماني ٤٠٤/١.

(٧) ابن واصل : مفرج الكروب : ٢٢٧/٣ ، ابن تغري بردي : النجوم الزاهرة : ٢٧٢:٦، ابن الفرات : تاريخ بن الفرات : م ٤ جـ ٢ / ٢٤٧

انعم (١) وشبام ، ثم نهض إلى البلاد الحميرية والمصانع ، (٢) واجبرها على الاعتراف بسلطته ، وكان لاتابكة جمال المدين فليت الاثر الكبير في هذه الانتصارات حيث كان يقود جيشه في المعارك وفتح هذه المناطق . واخيراً اجبر الامام المنصور بالله على مراسلته ، فتمت بينهما وكان من نتائجها توقيع الصلح في اواخر سنة ٦١٢هـ /١٢١٥م « على يد الأمير محمد بن حاتم ولمدة ستة عشر شهراً» ،(٣) وعلى مايبدو ان الصلح استمر بين الطرفين إلى سنة ٦١٤هـ/ ١٢١٩م وهي السنة التي مات فيها الامام المنصور بالله عبدالله بن حمزة ، ثم قام ولده عز الدين محمد محتسبا ». (٤) وقام بالامامة بعد ابيه وتلقب بالناصر لدين الله (٥) .

ان علاقة الملك المسعود بالامير عزالدين محمد بن عبدالله قد ساءت من جديد ففي سنة ٦١٧هـ/ ١٢٢٠م تقدم الملك مسعود إلى صنعاء ومنها سار إلى بكرة فحاصرها ثمانية أشهر ، (٦) إلى أن وقع الصلح بينه وبين أهل بكر وتم بموجبه شراء الملك المسعود للحصن منهم بعشرة الاف دينار مصرية وذلك سنة ٦١٨هـ / ١٢٢١م .(٧) ان ابرز التاريخ السياسي للحكم الايوبي باليمن خلال هذه الفترة هو انشغال الملك المسعود في الوقائع والحروب ويعكس هذا

(١) بيت انعم : حصن قريب من صنعاء اليمن نازله الفارس جمال الدين فليت (قليس) اتابك الملك المسعود مدة طويلة حتى تمكن من اخذه . انظر ياقوت : معجم البلدان : ١/٥١٩.

(٢) المصانع : منطقة من جبل السراة باليمن وفي اعلا ها جبل ذخار وخضور انظر الهمداني: صفة جزيرة العرب : ٦٨ .

(٣) يحيى ابن الحسين : غاية الاماني : ١/٤٠٥

(٤) المصدر السابق : ١/٤٠٧.

(٥) اعلن الامام المتضد بالله يحيى ابن المحسن بن محفوظ بن محمد بن يحيى من اولاد الهادي الدء ؛ بالا مامة لنفسه وعارض فيها الامير عز الدين محمد بن المنصرر فجرت بينهما وقائع وحروب راجع : -غاية الاماني : ١/٤٠٧-٤٠٨ ، العرشي : غاية المرام : ٤٣

(٦) بكر : بضمتين : من مشهور قلاع صنعاء بالقرب منها قلعة يقال لها ظفرة . ياقوت الحموي : معجم البلدان : ١/٤٧٥ .

(٧) الزبيدي : قرة العيون : ١/٤١٦

عدم استقرار حكمهم السياسي في المناطق التي سيطروا عليها وبدليل ما واجهه ذلك الحكم من مقاومة اتسمت بتحرك عساكر الامير عزالدين محمد بن الامام المنصور وعساكر الاشراف ضدهم (١) حيث استمرت الوقائع والحروب بين الطرفين إلى سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م لم يتحقق خلالها للحكم الايوبي السيطرة التامة على بلاد اليمن ، الا أن هذا لم يمنع المسعود من تنظيم ادارتها وكان لبني رسول (٢) دور في تحمل مسؤولة تلك الادارة وتثبيت السيطرة الايوبية باليمن خاصة وان رجال اسرتهم كانوا بصحبة الملك المسعود في أيام دخوله اليمن ، وظلوا مقيمين معه باليمن فوثق بهم وولاهم الولايات ، واعجبته طاعتهم وشدة بسالتهم فولى أمر صنعاء إلى بدر الدين بن علي بن رسول وجعلها اقطاعا له وولى اخاه الأمير نورالدين عمر بن علي بن رسول الحصون الوصابية ، ثم ولاه بعدها مكة المشرفة وبقى فيها مدة الى سنة ٦١٩هـ ١٢٢٢م ولما عزله عن ولايتها جعله اتابكا لابنه الملك المظفر يوسف بن عمر (٣) وعليه كان لهم دور في مساندة الملك المسعود وادارة الحكم حتى استقررت الاحوال وهدأت الحروب والفتن (٤) وضبط اليمن (٥) ورافقت مسيرة

---

(١) في سنة ٦١٧هـ قرر الامير عز الدين محمد بن المنصور واخوته ان يشغلوا الملك المسعود عن بكر فجمعوا له العساكر واجمعوا على غزو تهامة فخالفهم عن هذا الرأى الامير سليمان بن موسى الحمزى وقصد المسعود فاكرمه بالصلات الجزيلة وجهز معه الجند لقتال الاشراف الا الاشراف أولاد المنصور تتلوه . راجع يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ١/٤٠٩ .

(٢) بنو رسول : هم من ملوك اليمن ، واسم رسول : محمد بن هارون بن ابي الفتح بن نوح بن رستم ، وهو من ولاية جبلة بن الايهم بن الحارث تغلبه بن عمر بن جفنة بن عمرو مزيقياء بن عامر ينتهي نسبهم إلى يعرب بن قحطان ، ونسبوا إلى التركمان خطأ ، ويسمى محمد بن هارون رسولا لان الخليفة العباسي قربة اليه واختصه فكان سفيره الخاص يحمل رسائله إلى الشام ومصر ، ولهذا اطلق عليه اسم رسول فاشتهر به وترك اسمه الحقيقي، ويطلق عليهم آل غسان . انظر الخزرجي العقود اللؤلؤية : ١/٢٦ – ٢٧، العرشي : غاية المرام : ٤٤ .

(٣) راجع الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ١/٣٣ / ٢٢

(٤) المصدر السابق العقود اللؤلؤية : نفس المكان / ٢٢

(٥) ابن الفرات : تاريخ ابن الفرات : م ٤ ج ٢ / ٢٣٨

الحكم الايوبي في اليمن عدة احداث سياسية اثرت بصورة غير مباشرة على مكانته السياسية خلال هذه الفترة منها :

١ – انضمام مكة الى الحكم الايوبي باليمن : ففي سنة ٦١٩هـ / ١٢٢٢م غادر الملك المسعود اليمن الى مكة حاجا فلما كان يوم عرفة ، تقدمت اعلام الخليفة العباسي الناصر لدين الله لترفع على الجبل الا أن الملك المسعود أمر بمنعها بتقديم اعلام ابيه الملك الكامل الواردة من مصر ، ولم يستطع اصحاب الخليفة منعه من ذلك فلما سمع الخليفة بذلك عظم الامر عليه (١) فراسلَ الملك الكامل لانكار ذلك ، فما كان على الملك الا أن يعلن اعتذاره وللخليفة وان ذلك لم يكن عن امره . فقبل الخليفة العذر (٢) .

وربما اثر تصرف الملك المسعود (٣) على علاقته مع السلطة الايوبية بمصر والشام – بدليل ان والده سر بموته عندما اخبره بذلك خزنداره (٤) – ان لم نقل على العلاقة بين بني أيوب والخلافة العباسية .

أقام الملك المسعود باليمن بعد عودته من الحج وبعد مدة يسيرة حدثته نفسه بالخروج الى مكة لانتزاعها من حاكمها الأمير حسن بن قتاده الحسني فسار اليها ودخلها في رابع شهر ربيع الآخر من سنة ٦٢٠هـ/١٢٢٣م (٥) وقاتل صاحبها

(١) ابن واصل : مفرج الكروب : ١٢٥/٤ ، أبو الفداء: المختصر: ١٣١/٣ – ١٣٢

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب : ١٢٥/٤ ، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات: م ٤ج٢/٢٣٨

(٣) ذكر عن شخصية المسعود بأنه ذا همة عالية وصرامة عظيمة فارساً مهيباً شجاعاً ذات سطوة الا أن حكمه فيه عزف وظلم . ومع هذه الازدواجية في الشخصية فقد ذكر عنه بأنه اساء التصرف بمكة سنة ٦١٩هـ بما لا يحمد عقباه وذلك برمي حمام الحرم بالبندق من فوق زمزم كما أقدم غلمانه على ضرب الناس بالسيوف على أرجلهم وهم بالمسعى . الخ وقد يكون مثل هذا الرأى أو الوصف من سلوكية المسعود وتصرفه فيها شيء من المبالغة والتهويل : راجع عن شخصيته : الصفدي : الوافي بالوفيات : ٣١٦/٩ ، ابن الفرات: تاريخ ابن الفرات : م ٤ ج ٢٣٧/٢ ، المقريزي : السلوك : ٢١٧/١ ، الحنبلي ؛ شفاء القلوب : ٢٦٣ .

(٤) سبط بن الجوزي : مرآة الزمان : ٦٥٨/٨ ، الصفدي : الوافي بالوفيات: ٣١٦/٩ .

(٥) ابن واصل: مفرج الكروب : ١٢٥/٤ .

الحسن وهزمه واستولى عليها ثم عاد إلى اليمن بعد ان عين عليها الامير نورالدين عمر بن علي بن رسول واليا من قبل وجعله نائبا نيابة عامة عنه (١) وباستيلائه على مكة اتسعت دائرة نفوذه وحكمه فشملت مكة والحجاز واتسعت معها مملكة أبيه الملك الكامل حتى قال ابن خلكان معلقا على هذا الامر (ولقد حكي لي من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكة شرفها الله تعالى انه لما وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال : مالك مكة وعبيدها واليمن وزبيدها ومصر وصعيدها والشام وصناديدها والجزيرة ووليدها سلطان القبلتين ورب العلامتين) (٢)

واخيراً يمكن القول ان موقف المعارضة للدولة الايوبية في اليمن تغير موقفها السياسي تجاهها على الرغم من التغيير الذي حصل في الخارطة الجغرافية لسيطرتها.

٢ـ مغادرة الملك المسعود لليمن في شهر رمضان من سنة ٦٢٠هـ /١٢٢٣م (٣)

تاركاً نيابة البلاد إلى الامير نور الدين عمر بن علي بن رسول في حين ترك ولاية صنعاء إلى الامير بدر الدين حسن بن علي بن رسول (٤) وعلى الرغم مما اثبته ال الرسول من حسن ادارة البلاد تجسد في الحفاظ على الحكم الايوبي الا ان جملة من الاحداث غيرت مواقع الحكم الايوبي باليمن حيث تعرضت البلاد إلى ثورة قادها رجل في الحقل وبلاد زبيد اسمه مرغم الصوفي (٥) وزعم انه داع الامام حق وانه منصور حميد الذي سيخرج كنوزهم ويناصر المهدي الذي سيخرج في آخر الزمان، فتبعه الكثير من الناس وقوى امره بهم فما كان على الامير نور الدين بن رسول الا ان يقاتله فسار اليه وبصحبته راشد بن مظفر بن الهرش فوقع

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ٣٣/١ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان : ١٧٤/٤ .

(٣) ابن واصل : مفرج الكروب : ٢٦٠/٤ ، والخزرجي : العقود اللؤلؤية : ٣٣/١

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ٣٣/١ ويحيى بن الحسين : غاية الاماني ٤١٠/١.

(٥) مرغم الصوفي : لقب بالعبد الصالح وهو مرغم بن منيف الصوفي الحميري النسب من قوم اولي بأساً وقوة وسلطان يسكنون بلد حمير المصاقبة للنمان وعلى الرغم من صلاحه وزهده كان امياً يمتهن الحياكة في بلاد عبس اتخذ من التصوف على ما يبلو حرفة وبضاعه : انظر الزبيدي : قرة العيون : ٤١٦/١ هامش (٣) ويحيى بن الحسين غاية الاماني : ٤١١/١ .

القتال بين الطرفين قتل فيه راشد بن مظفر وذلك سنة ٦٢٢ هـ/١٢٢٥م(١) فلما كثر القتل سلب حاله وضعف مركزه بين اتباعه ، وظهر للناس كذبه وفساد مذهبه فخرج هاربا من بلد إلى بلد (٢) وهكذا تخلص الناس من فساد رأيه وفتنته باليمن ، كما تعرضت عساكر بني ايوب إلى وقعة اخرى خاض غمارها ضدهم هذه المرة الشريف عز الدين محمد بن الامام المنصور عبد الله بن حمزة الذي خرج قاصداً صنعاء (٣) الا ان العساكر الايوبية بقيادة الامير بن نور الدين عمر بن علي واخيه الحسن بن علي استطاعا ان يوقعا الهزيمة بعسكر الاشراف وسميت هذه الوقعة بوقعة عصر (٤) وذلك في شهر رجب من سنة ٦٢٣ هـ/ ١٢٢٦م (٥).

كان من نتائج انتصار العساكر الايوبية باليمن في المعركة السابقة ان تسربت اخبارها إلى مصر فلما علم بها الملك المسعود اشتد خوفه على حكم اليمن من بني رسول وذلك لما شاهده فيهم من الشجاعة والهمة ، وبعد الصيت وحسن السياسة وتمام مكارم الاخلاق ... ... الخ (٦) فخرج من مصر قاصداً اليمن فوصل تعز ودخل حصنها يوم الاثنين السابع عشر من شهر صفر من سنة ٦٢٤ هـ/ ١٢٢٦ م ثم تقدم إلى الجند فقبض على بني رسول وهم بدر الدين حسن بن علي وفخر الدين ابا بكر بن علي وشرف الدين موسى وأرسلهم إلى مصر في حين نجا أخوهم الامير نورالدين عمر لأنه

---

(١) انظر الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ٣٤/١ ، الزبيدي : قرة العيون : ٤١٧/١ .

(٢) الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ٣٤/١ ومن اجل الاستزادة والتفصيل راجع يحيى بن الحسين غاية الاماني : ٤١٥/١ .

(٣) يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ٤١٥/١ .

(٤) عصر بفتح العين : المهملة وكسر الصادر المهملة ايضاً آخره راء : قيل انها قرية وجبل غربي صنعاء ومن ضواحيها وفيها غيل وفواكه الرقاق والبليس والقات : هكذا وردت في حاشية قرة العيون : ٤١٧/١ : هامش ٤ وذكر ياقوت ان عصر بكسر العين وسكون الضاد هو كل حصن يتحصن به يقال له عصر : ياقوت : معجم البلدان : ٢٨/٤ .

(٥) الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ٣٤/١ : الزبيدي قرة العيون : ٤١٧/١ — ٤١٨ .

(٦) الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ١/ ٣٩ .

كان يميل إليه ويستأنس في رأيه دون اخوته (١)، فتقدم عنده حتى إستنابه على اليمن جميعها سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٧ م. (٢)

ان التنكيل بامراء بني رسول أثر على حكم الملك المسعود اذ اكسب الامير نورالدين تجربة سياسية جعلتـه بأن لا يستبق الأحداث او يستعجلها فنراة حينما يستمع بموت الملك المعز سنة ٦٢٦ هـ/ ١٢٢٨ م يقـوم بأمر الملك الايوبي خير قيـام ويضمر الاستقلال عن السلطة الايوبية فلم يغير سكة ولا خطبة لهم (٣) وأرسل إلى السلطان الايوبي الكامل الهدايا ، وقال له :« أنا نائب السلطان على البلاد» مما كان له الاثر في أن يصرف نظر السلطان عنه ويثبته في ولايته (٤) كما ولى على المدن والحصون يثق به ، ويعزل من يخشاه ، ويأسر او ينقل من يظهر العصيان .

ان مغادرة الملك المسعود لليمن سنة ٦٢٥ هـ/ ١٢٢٧ م اثـرت بشكل مباشر على مكانة ووجود الحكم الايوبي فيها كما فسحت المجال أمام الامير نور الدين عمر بن رسول بالتمكن في حكم البلاد كلها حتى ذكر أنه استدعاه عندما عزم السير الى مصر وقال له « قد عزمت السفر وقد جعلتك نائبي في اليمن فان مت فأنت اولى بملك اليمن من اخوتي » .. ويمضي إلى ان يقول : واياك ان تترك أحداً يدخل اليمن من أهلي ولو جاءك الملك الكامل والدي .. الخ » (٥) . ان هذ الثقة التي اودعها المسعود في الامير نور الدين جعلت الاخير بـأن يتصرف في البـلاد ، وان انفراده في حكم اليمن دون امراء بني ايوب من المصريين هو الأخر جعله بأن يفكر في الاستقلال عـن حكم الايوبين بمصر والشام » بالاضافة إلى هذا فمجرد تعرفنا على بقية الحديث الذي جرى بين الملك المسعود وبينه جعله ان يتلمس

---

(١) الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ١/٤٠ .
(٢) يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ١/٤٠٧
(٣) الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ١/٤٦ .
(٤) المقريزي : السلوك : ق١ ج١ : ٢٣٧ .
(٥) انظر الحديث في ابن واصل : مفرج الكروب : ٤/٢٦٠ .

وجود خلاف بين بني أيوب يمكن استغلاله في سبيل الاحتفاظ بملك اليمن . (١)

وهذا يتفق مع صحة ما ذكر عن مرض الملك المسعود عندما غادر اليمن الى مكة متوجهاً الى مصر (٢) حيث علق نور الدين عمر آماله على احتمال وفاة الملك المسعود وهذا ما يمكنه من الاستمرار في الحكم . خاصة اذا علمنا ان الملك المسعود لم يترك سوى ولداً صغيراً يعيش بكفالة جدة الملك الكامل بمصر (٣)اضف الى هذا ما اتصف به الامير نور الدين من « صلاح السريرة ومحبة الناس له وأنقيادهم لامره طوعاً وكرهاً وكان صاحب حلم ودهاء » (٤) بالاضافة الى سرعة تحركة لحسم الموقف مع المعارضة السياسية للحكم الايوبي والتي تتكون من الاشراف خاصة الامير يحيي بن حمزة وسلاطين بنو حاتم (٥) ففي سنة ٦٢٨هـ /م ١٢٣٠وقع الصلح معهم في حصن ذمرمر وقالوا له : « يامولانا نور الدين تسلطن باليمن ونحن نخدمك ونبايعك على أن بني ايوب لايدخلو ن اليمن » (٦) فتبايعوا على ذلك وأقرهم على البلاد .

نهاية الحكم الايوبي باليمن :—

وكل العوامل السابقة كانت قد عجلت من انهيار الحكم الايوبي وسقوطه وآخرها وفاة الملك المسعود سنة ٦٢٦هـ/١٢٢٨م تاركاً الحكم الى نائبه نور الـدين عمر بن رسول اذا تمكن بعدها من اعلان الحكم الرسولي ، وازالة الحكم الايوبي ،وما ان حل عام ٦٢٨هـ/ ١٢٣٠م حتى اعلن الاستقلال

---

(١) من أجل الاستزادة راجع بقية الحديث الذي دار بين الامير بدر الدين عمر بن رسول والملك المسعود عندما حضر عنده سنة ٦٢٥هـ في : الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ٤١/١ .

(٢) ابن واصل : مفرج الكروب : ٢٥٩/٤ – ٢٦٠ ، الصفدي : الوافي بالوفيات : ٣١٦/٩.

(٣) أنظر عن حياته : مفرج الكروب : ٢٦٣/٤ ، أبو الفداء : المختصر : ١٤٢/٣ .

(٤) الخزرجي : العقود اللؤلؤية : ٤٤/١،٤٦ .

(٥) الخزرجي : العقود : ٤٧/١ ، يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ٤١٩/١ .

(٦) المصدر السابق : ٤٧/١ .

باليمن وقيام الدولة الرسولية فيها فتلقب بالملك المنصور (١) ومن أجل اسدال الشرعية على حكمه كاتب خليفة بغداد العباسي المستنصر بالله ابو جعفر المنصور ابن الظاهر محمد (٢) فأقره على اليمن وجعل له النيابة عليها (٣)

وما ان حل عام ٦٢٩هـ/ ١٢٣١م حتى جهز نور الدين بن رسول جيشه الى مكة لانتزاعها من الحكم الايوبي ، فلما وصلها حاصر اميرها طغتكين فأضطره الهرب الى ينبع (٤) .

فكاتب الملك الكامل بالامر كله : مما اضطره الى ان يجهز جيشاً من مصر بقيادة فخر الدين شيخ الشيوخ ، فلما وصل مكة حاصر الجيش نور الدين واجلاهم عنها (٥) واستمر النزاع حول مكة والسيطرة عليها بين الطرفين الى سنة ٦٣٣هـ / ١٢٣٩م حيث استطاع اخيراً السلطان نور الدين ان يوقع الهزيمة بعساكر الملك الايوبي الصالح نجم الدين ايوب التي كانت تحت قيادة الامير شيحة بن قاسم (٦) حيث هرب الامير شيحة الى الديار المصرية ولم يستقر الحال فيها الى ان دخلها السلطان نور الدين سنة ٦٣٩هـ /١٢٥١ اذ استطاع ان يخضعها الى نفوذه (٧) وهكذا قضى على آخر ما تبقى من المدن الخاضعة الى نفوذ بني ايوب في اليمن والحجاز .

(١) غاية الاماني : ١:٤٢٠ .

(٢) راجع الخزرجي : العقود : ٤٩/١.

(٣) في سنة ٦٣١ هـ بعث الامير نور الدين هدية إلى الخليفة المستنصر وطلب منه تجديد التشريف على اليمن كما جرت به عادة الملوك ،. غاية الاماني : ٤٢١/١ .

(٤) الخزرجي : العقود : ٥٠/١ .

(٥) راجع الخزرجي العقود اللؤلؤية : ٥٦ – ٥٧ ويحيى بن الحسين غاية الاماني : ٤٢٠/١.

(٦) شيحة بن قاسم : هو الوالي الايوبي على المدينة المنورة تولاها على عهد الملك الكامل والملك الصالح وقد ورد اسمه عند الخزرجي تحت رسم منحه ، راجع الخزرجي ، العقود اللؤلؤية ٥٠/١ و ٦٤ و ٧٥ .

(٧) راجع المصدر السابق ص ٦٩ ، يحيى بن الحسين : غاية الاماني : ٤٢٤/١: المقريزي: السلوك ٣١٣/١ .

ان اهم ما يمكن ملاحظته على التاريخ السياسي للايوبيين في اليمن هو عدم استقرار حكمهم فيه على الرغم من امتداده لفترة زادت على الخمسين عاماً تعاقب في حكم البلاد خلالها سته ملوك واتسمت معظمها بطابع الحروب كما اعتمدت سياسة دولتهم على القوة العسكرية في حكم البلاد .

وهذا يعود بلا شك الى عدة عوامل منها تعدد مراكز القوى السياسية الموجودة في اليمن وفي الاراضي المجاورة لها الى جانب فقدان التجانس الفكري الذي ينعكس بصورة مباشرة على اسلوب الحكم ونظامه ، ومن بين تلك القوى الاشراف ، وبنو حاتم الى جانب انتشار النزعة القبلية بين غالبية سكان اليمن من العرب الذين أخذوا ينظرون الى الايوبيين وسلطتهم نظرة الرجل الغريب عنهم وعن بلادهم بدليل ما كانوا يطلقون على بني ايوب من الاسماء كالغز والاكراد ، والاطماع الفردية كانت تلعب دورها الواضح في تحديد هوية الحكم باليمن ، ومن خلال هذا المنطلق فان المستقرىء للتاريخ السياسي الايوبي في اليمن يلاحظ ان حالة من عدم الاستقرار والفوضى السياسية والعسكرية كانت تسيطران على الوضع السياسي في اليمن ليس فحسب على العهد الايوبي وانما على العهدين السابق واللاحق له . وان ما انقاد اليهم من البلاد كان بلا شك بدافع القوة والسيف حتّى تركت اثارها الواضحة لما بعد عهدهم فيها حتّى قيل اصبح معه ان صاحب اليمن يهادي صاحب مصر ويداريه وذلك للامكانية التي تحتلها جغرافية مصر العربية إذ كان بالامكان تسلطها على اليمن من البحر والبر الحجازي (١) بالاضافة الى ارتباطها التجاري والبشري مع مصر وبلاد الشام حيث كانت ولا تزال ملوك اليمن تستجلب من مصر والشام طوائف ارباب الصناعات لقلة وجودهم باليمن (٢) واخيراً فان الاهمية السياسية لليمن تبقى غير وأضحة المعالم في هذه الفترة من خلال مساهمتنا العملية من اجل خدمة المبادىء والاهداف

---

(١) ابن فضل الله العمري : مسالك الابصار : ٥٠ (القسم الخاص باليمن تحقيق ايمن فؤاد السيد)
(٢) نفس المصدر السابق ٥١ .

قياساً الى ما كانت تلعبه مصر والشام وبلاد الجزيرة من دور بارز في مقاومة الصليبيين (١) وعساكرهم ، وقد يعود الامر الى طبيعة الحكم المحلي باليمن الى جانب حاجة ذلك الحكم الى مزيد من القوة العسكرية التي يمكن توظيفها واستخدامها بالرد على المعارضة والمقاومة العسكرية لحكمهم على الرغم من توفر وحدة المبادىء والاهداف التي تجمع بين اليمن ومصر والشام وبلاد الجزيرة الا أن درجة الوفاء لتلك المبادىء والقيم من قبل انظمة الحكم السياسية تختلف من قطر لآخر ، وبصورة عامة فان الحكم الايوبي في اليمن لم يحقق أي هدف ستراتيجي على مدى فترة وجوده باليمن ؛ وعليه يتمكن القول ان مردوده السلبي كان اكثر مما ينتظر ان يحقق ايجابياً لأن بقاء العساكر الايوبية مرابطة في اليمن معناه ابعادها عن مهمة التحرير التي كان يخوضها الجيش الايوبي المركزي في بلاد الشام ومصر ضد الغزاة الصليبيين..

(١) ذكر حسن سليمان محمود عن حكم الايوبيين في اليمن انها لعبت في هذه الفترة مع مصر والشام والجزيرة دوراً هاماً في الجهاد الصليبي في عهد صلاح الدين وخلفائه وهذا قد يكون فيه شيء من المغالطة اذ لا يتوفر لدينا مايشير إلى مشاركة العساكر اليمانية شقيقاتها العساكر العربية والاسلامية في معارك الجهاد والتحرير ، راجع حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي في العصر الاسلامي : ص ٢٥٤ .

المصادر والمراجع

أ ـ المخطوطات

ابن بهادر : محمود بن محمد المؤمن (ت ٨٧٧ هـ) .
فتوح النصر ـ دار الكتب المصرية رقم (٢٣٩٩)

٢ ـ الذهبي : شمس الدين ابو عبد الله محمد بن احمد (ت ٧٤٨ هـ) نسخة دار الكتب رقم ٤٢ تاريخ الاسلام.

٣ ـ الخزرجي : محمد بن ابراهيم ابن ابي الفوارس الانصاري (ت حوالي ٦٥٥ هـ) تاريخ دولة الاكراد والاتراك. معهد المخطوطات جامعة الدول العربية رقم ١١٢.

٤ ـ الزبيدي : ابو عبد الرحمن بن علي البيع الشيباني (ت ٩٤٣ هـ) بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد (القاهرة/ معهد المخطوطات القاهرة والان تحت التحقيق) .

ب ـ المطبوعات

١ ـ ابن الاثير :أبو الحسن علي بن ابي الكرم الجزري (ت ٦٣٠ هـ) الكامل في التاريخ ١٢ جزء دار صادر بيروت ١٩٦٦م.

٢ ـ ابن ايبك : ابو بكر عبد الله الدواه داري (ت حوالي سنة . ٧٣٦ هـ) كنز الدرر وجامع الغرر (الدر المطلوب في اخبار ملوك بني ايوب) جـ٧ تحقيق سعيد عاشور القاهرة ١٩٧٢.

٣ ـ ابن تغري بردي : جمال الدين ابو المحاسن الاتابكي (ت ٧٠٤ هـ) النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٦ جزء ـ القاهرة ١٩٢٩/١٩٧١م

٤ ـ الحنبلي : احمد بن ابراهيم (ت ٨٧٦ هـ) شفاء القلوب في اخبار بني ايوب ـ تحقيق ناظم رشيد ـ مطبعة دار الحرية ـ بغداد ١٩٧٨ م

٥ ــ الخزرجي : موفق الدين علي بن الحسن الانصاري (ت ٨١٢ ﻫ)
العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية جزءان ــ تحقيق محمد بسيوني عسل ــ مطبعة الهلال ــ القاهرة ١٩١١ م .

٦ ــ ابن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨ ﻫ) العبر ، وديوان المبتدأ والخبر ٦ أجزاء منشورات الاعلمي بيروت ١٩٧١ م

٧ ــ ابن خلكان : ابو العباس شمس الدين احمد بن محمد (ت (٦٨١ ﻫ)
وفيات الاعيان ٦ أجزاء ــ مطبعة السعادة ــ ط١ القاهرة ١٩٤٨ م .

٨ ــ الزبيدي : ابو ضياء عبد الرحمن بن علي (ت٩٤٣ﻫ)
قرة العيون بأخبار اليمن الميمون ــ تحقيق محمد بن علي الاكوع الحوالي .
المطبعة السلفية ــ القاهرة ١٩٧١ م.

٩ ــ سبط بن الجوزي شمس الدولة بن قزاوغلي التركي (ت٦٥٤ﻫ)
مرآة الزمان في تاريخ الاعيان ــ جزءان ــ حيدر اباد ــ الدكن ــ ١٩٥١م .

١٠ ــ السبكي : تاج الدين عبد الوهاب بن تقي الدين (ت٧٧١ﻫ)
طبقات الشافعية الكبرى ــ ٦ أجزاء ــ المطبعة الحسينية الفاهرة ــ ١٩

١١ ــ ابو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن اسماعيل المقدسي (ت٦٦٥ﻫ)
الروضتين في أخبار الدولتين ــ تحقيق د. حلمي محمد احمد ج١ القاهرة ــ ١٩٥٦م، جاق٢ ١٩٦٢م.
وكذلك الاعتماد على النسخة المصورة ــ عن دار الجيل ط٢ بيروت ١٩٧٢م .

١٢ ـ ابن شداد: ابو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع الاسدي (ت٦٣٢هـ) النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية (سيرة صلاح الدين).
القاهرة ـ ١٩٦٤ م

١٣ ـ الصفدي : صلاح الدين خليل بن أيبك (ت٧٦٤هـ)الوافي با لوفيات الجزء التاسع باعتناء يوسف فان ريس . دارصادر ـ بيروت ١٩٧٤م .

١٤ ـ ابن العبري : غريغوريوس هرون المالطي (ت٦٨٥هـ)
تأريخ مختصر الدول ـ المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ١٩٦٨م .

١٥ ـ ابن العماد: ابو الفلاح عبد الحي الحنبلي (ت١٠٨٩هـ) .
شذرات الذهب في أخبار من ذهب ٨ أجزاء ـ مكتبة القدس القاهرة ـ ١٣٥٠هـ .

١٦ ـ العمري : مسالك الابصار في ممالك الامصار (القسم الخاص باليمن) تحقيق اليمن فؤاد السيد ـ مطبعة دار الاعتصام القاهرة ـ ١٩٧٢م

١٧ ـ الغساني : ابو العباس اسماعيل بن العباس (ت٨٠٣هـ)
العسجد المسبوك والجوهر المحكوك .جزءان في مجلد واحد ـ تحقيق شاكر محمود ـ دار التراث الاسلامي ـ بيروت ـ ١٩٧٥م .

١٨ ـ ابو الفداء : عماد الدين بن محمد (ت٧٣٢هـ)
المختصر في أخبار البشر ـ المطبعة الحسينية ـ القاهرة ـ ١٣٢٥هـ.

١٩ ـ ابن الفرات : ناصر الدين محمد بن عبد الرحيم (ت ٨٠٧ هـ)
تأريخ بن الفرات مجلدان ـ تحقيق حسن الشماع ـ
دار الطباعة الحديثة ـ البصرة ـ ١٩٦٩ ـ ١٩٧٠ م.
٢٠ ـ القلقشندي : ابو العباس احمد بن علي (ت ٨٢١ هـ) مأثرة الاناقة
في معالم الخلافة ـ الجزء الثاني.
٢١ ـ ابو مخزمة : ابو محمد عبد الله الطيب بن عبد الله بن احمد تأريخ
ثغر عدن ـ جزءان/ مجلد واحد ـ بريل ـ ليدن ـ ١٩٣٦ م .
٢٢ ـ المقريزي : تقي الدين احمد بن علي (ت ٨٤٥ هـ) السلوك لمعرفة
دول الملوك ـ ٦ أجزاء تحقيق ـ مصطفى زيادة ـ
مطبعة دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٦ م.
٢٣ ـ ابن المجاور : جمال الدين ابو الفتح يوسف بن يعقوب بن حمد
صفة بلاد اليمن ومكة وبعض من الحجاز المسماة ـ
تأريخ المستبصر ـ مطبعة ـ بريل ـ ليدن ـ ١٩٥١ م .
٢٤ ـ ابن منقذ : اسامة بن مرشد الكناني الشيزري (ت ٥٨٤ هـ) الاعتبار.
تحقيق (حرره) فليب متي
٢٥ ـ الهمداني : ابو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب (ت ٣٣٤ هـ)
صفة جزيرة العرب ـ طبعة ليدن ـ ١٨٨٤ م .
٢٦ ـ ابن واصل : جمال الدين محمد بن سالم (ت ٦٩٧ هـ) مفرج
الكروب في أخبار بني أيوب ٤ اجزاء جـ١ تحقيق جمال
الدين الشيال مطبعة جامعة فؤاد الاول ـ القاهرة ١٩٥٣ م .
جـ٢، المطبعة الاميرية القاهرة ١٩٥٧ م، جـ٣ مطابع
دار التعليم ـ القاهرة ـ ١٩٦٠ م. جـ٤ تحقيق د. حسنين
محمد ربيع ـ دار الكتب المصرية ـ ١٩٧٢ م.

٢٧ ـ اليافعي : عبد الله بن اسعد عفيف الدين اليمني المكي (ت ٧٦٨ هـ) مرآة الجنان وعبرة اليقظان ٤ أجزاء ـ دائرة المعارف حيدر آباد ـ الدكن ـ الهند ١٣٣٨ هـ.

٢٨ ـ ياقوت الحموي : شهاب الدين بن عبد الله الحموي الرومي (ت ٦٢٦ هـ) معجم البلدان ٥ أجزاء ـ دار صادر ـ بيروت ـ ١٩٧٥ م .

٢٩ ـ يحيى بن الحسين : بن الامام القاسم بن محمد (ت١١٠٠هـ) غاية الاماني في أخبار القطر اليماني ـ جزءان ـ تحقيق سعيد عاشور ـ دار الكتاب العربي للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٨م .

٣٠ ـ اليمني : نجم الدين محمد العلمي اليمني (ت٥٦٩هـ) النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية تحقيق ـ ديربتورغ ـ باريس ـ ١٨٩٧ م.]

المراجع

٣١ ـ بيومي : علي
قيام الدولة الايوبية في مصر ط١ دار الفكر الحديث ـ القاهرة ١٩٥٢م .

٣٢ ـ زامباور : أدواردفون .
معجم الانساب والاسرات الحاكمة في التاريخ ـ ترجمة زكي محمد وجماعته ـ مطبعة جامعة فؤاد الاول ـ القاهرة ـ ١٩٥١م :

٣٣ ـ سليمان : أحمد السعيد .
تأريخ الدول والاسرات الحاكمة ـ جزءان ـ دار المعارف ـ القاهرة ١٩٦٩م .

٣٤ـ العرشي : حسين بن أحمد .
بلوغ المرام في شرح مسك الختام من تولى اليمن من ملوك وامام عني بنشره ـ الاب أنستاس الكرملي . مطبعة برتيري ـ القاهرة ١٩٣١ م .

٣٥:محمود : حسن سليمان
تأريخ اليمن السياسي في العصر الاسلامي ـ مطبعة دار الجاحظ / بغداد ١٩٦٩م.

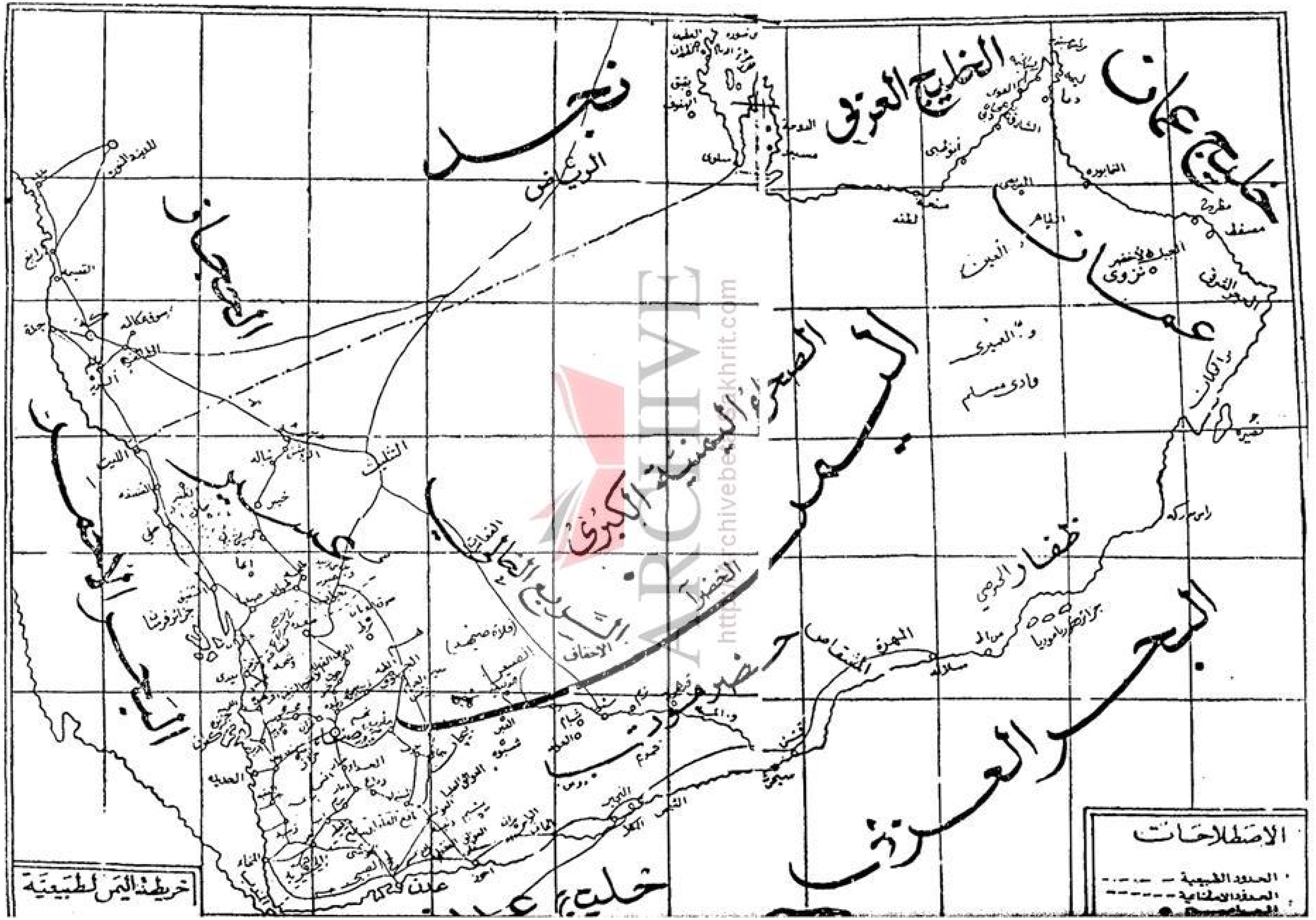
:٣٦ Lane, pool ; S :
A : Ahistory of Egpyt in the middile ages, London 1901.
B : Saladin and the Fall Kingdom of Jerusalem, London 1898
C : Mohammadan Dynastise, London 1896.

ملوك بني أيوب ممن أدركوا حكم اليمن:

نجم الدين أيوب

- العادل أبو بكر سيف الدين (ت / ٦١٥)
  - الاعظم عيسى
  - الكامل محمد (ت / ٦٣٥ هـ)
    - ٦ ـ المسعود يوسف (٤)
- الناصر صلاح الدين يوسف (ت / ٥١٨)
- ٢ ـ المعز (١) طغتكين (ت / ٥٩٤)
  - ٤ ـ الناصر أيوب (٣) (ت / ٦١١)
  - ٣ ـ المعز اسماعيل (١) (ت) / ٥٩٨
- ١ المعظم شمس الدين توارانشاه (ت / ٥٧٦)
- شاهنشاه الاول نور الدين (ت / ٥٤٣)
  - المظفر الأول عمر تقي الدين
    - شاهنشاه الثاني سعد الدين
      - الاعظم سليمان

١ ـ راجع زامباور: ادواردفون: ـ معجم الانساب والاسرات الحاكمة: ١٥٨ ـ ١٥٩ ، حسن سليمان محمود : تاريخ اليمن السياسي : ٢٤٥.


خريطة اليمن الطبيعية
الاصطلاحات
الحدود الطبيعية
نجد
الرياض
الخليج العربي
خليج عمان
عمان
الصحراء الكبرى
الربع الخالي
حضرموت
ظفار
البحر العربي
خليج عدن
عدن
عسير
تهامة
الحجاز
مسقط
نزوى
العين
وادي مسلم
الأحقاف
صلالة
المهرة
سقطرى
الحديدة
الطائف
جدة
مكة
المدينة
القطيف
مطرح
الجبل الأخضر
جزائر كوريا موريا
رأس مدركة
شبوة
الشحر
المكلا
سيحوت
مرباط
وادي العيري
الخضراء
تثليث
خيبر
الليث
القنفذة
الدوحة
دبا

الفاعلية الصوتية للكتابة العربية ومشروع الكتابة العربية الموسّعة للأغراض الخاصة .

الدكتور أدوريوحنا

تختلف اللغات فيما بينها من حيث مدى الانسجام بين الكتابة والنطق وهذا الانسجام يعتمد بالدرجة الاولى على مدى التطابق بين الرموز المستعملة في الكتابة والاصوات المتداولة في النطق. والوضع الامثل هو ذلك الذي يتوفر معه رمز واحد لكل صوت. وكلما ارتبكت هذه العلاقة كلما زاد التباين بين الكتابة والنطق وتعقد الامر. والارتباك يتجلى في الانماط الاساسية الاتية :

١. ان يتم التعبير عن صوت واحد برموز مختلفة.
٢. ان يتم التعبير عن اصوات مختلفة برمز واحد.
٣. ان تكون هنالك حروف مهملة في متن الكتابة.

الغاية من بحثنا هذا هو عقد مقارنة بين اللغتين العربية والانكليزية لتحديد مدى الانسجام بين النطق والكتابة ومن ثم التركيز على الاثار التطبيقية للأنسجام ان كان متوفراً في اللغة العربية. كما ان البحث سيعرض للمناقشة فكرة الكتابة العربية الموسعة للأغراض الخاصة.

الاستعراض والمناقشة

لو تناولنا الابجدية اللاتينية المستعملة لرسم الاصوات الانكليزية لرأينا انها تتكون من ٢٦ رمزاً يخصص منها خمسة رموز لتدوين الصوائت والاخرى لتدوين الصوامت. الرموز المستعملة لتدوين الصوامت هي :

b c d f g h j k l m n p
q r s t v w x y z

ومن بين هذه الرموز ماهو فائض عن الحاجة مثل c x q بدليل ان c اما ان يعبر عن صوت k اوصوت s وكل من هذين الصوتين له رمزه الخاص وبذلك تنتفي الوظيفة الصوتية الخاصة للرمز c . اما الرمز q فيمثل صوت k دوماً وهو بذلك رمز لايتمتع بوظيفة صوتية خاصة به طالما ان الرمز k يؤدى نفس الوظيفة الصوتية . وكذلك الامر مع الرمز x حيث لاوظيفة صوتية

له يختص بها فهو اما ان يعبر عن صوت z او صوت ks . وهكذا يبقى لدينا ١٨ رمزاً علماً بأن عدد الصوامت المتداولة في النطق الانكليزي هي ٢٤ صامتاً .

واذا إنتقلنا إلى ميدان الصوائت التي يبلغ عددها في النطق العشرين نجد ان الرموز المتوفرة لتمثيلها هي خمسة فقط . وبنظرة إجمالية إلى اللغة الانكليزية نرى انها تملك ٢٣ رمزا كتابياً للتعبير عن ٤٤ صوتاً . اى ان عدد الرموز يكاد يكون تقريباً نصف عدد الاصوات . والمعادلة البسيطة التي تترتب على هذه النسبة هي ان كل رمز يجب ان يستثمر مرتين للتمكن من تمثيل كافة الاصوات الانكليزية . فلو كان مفعول المعادلة السلبي يقف عند هذا الحد لكان الامر هيناً. غير ان الحالة القائمة فعلا في اللغة الانكليزية هي اعقد بكثير اذ ان تطور اللغة الانكليزية قد خلق وضعاً اكثر ارتباكاً من المعادلة الآنفة الذكر وأخل بالتوازن بين الكتابة والنطق اخلالا خطيرا .

وفي الامكان تلخيص هذا الوضع المعقد على النحو الآتي :

١. ان الرمز الواحد يستثمر للتعبير عن اكثر من صوت . امثلة :

الرمز s يستعمل لتمثيل الاصوات س، ز، ش، ژ.
كما في الكلمات الاتية : measure sugar his this
كما ويرد هذا الرمز مهملا ايضاً كما سنرى في ادناه .

٢. ان الصوت الواحد يمثل برموز متعددة . امثلة :

الصوت (f) يعبر عنه بـ gh ph f
كما في الكلمات الاتية rough elephant fat

٣. استعمال رمزين مجتمعين للتعبير عن صوت واحد او اكثر من صوت امثلة :

الرمزان ch للدلالة على الاصوات ش، ك، ج كما في الكلمات .
chap character chiffon

الرمزان th للدلالة على الصوتين ذ، ث كما في الكلمتين
breathe breath

٤. استعمال اكثر من رمزين وبتشكيلات مختلفة للدلالة على صوت واحد.
امثلة

الرموز tia ،tio ،cia تستعمل للتعبير عن صوت ش.

٥. ورود عدد كبير من الرموز في متن الكلمات دون ان تمثل اى صوت وهي التي نسميها بالحروف المهملة Silent letters . في الحقيقة ان اغلب الصوامت يمكن ان ترد بهذه الحالة . امثلة .

الكلمة	الحرف المهمل	الكلمة	الحرف المهمل
debt	b	psychology	p
judge	d	doctor	r
gnaw	g	island	s
where	h	listen	t
know	k	wrong	w
calm	l		
mnemonic	m		
condemn	n		

يضاف إلى هذا ان كل الحروف التي تثنى يكون احد الحرفين مهملا . ان الحالات السابقة الذكر تجعل اللغة الانكليزية تحتل الصدارة بين لغات العالم من حيث الانسجام بين النطق والكتابة مما حدا بالكثير من اللغويين والمثقفين البريطانيين المشهورين للدعوة إلى اعادة النظر في الكتابة لتطويرها او حتى استبدالها . ولاداعى هنا للخوض في تفاصيل هذه الدعوات لانها معروفة لدى الكثير من المعنيين (١). غير ان الذى يمكن الجزم فيه هو ان كل هذه الدعوات كانت لها مبررات منطقية جدا .

ورغم ان كل هذه الدعوات لم تلق النجاح لسبب او لاخر الا ان الذى نجح وبشكل منقطع النظير هو اللجوء إلى الكتابة الصوتية phonetic trans -cription (٢) لمعالجة الارتباك بين النطق والكتابة خاصة في المراحل . الاولى من تعلم وتعليم اللغة الانكليزية . واول ماتمتاز به الكتابة الصوتية هو توفير رمز واحد فقط للتعبير عن وحدة صوتية واحدة . ولما كان عدد الوحدات الصوتية في الانكليزية ٤٤ وحدة وجب ان تتكون الابجدية الصوتية المكرسة لرسمها من ٤٤ رمزا ايضاً .

وبالاستعانة بمثل هذه الابجدية الصوتية فان الرموز المختلفة للتعبير عن الصوت الواحد في الكتابة التقليدية سوف تتوحد في رمز واحد . فمثلا تؤول الرموز gh ph f التي تستعمل لرسم صوت f إلى الرمز f كما تؤول الرموز المختلفة للتعبير عن صوت (i:) كما في الكلمات receive , believe, read, people , peel إلى الرمز : i:

لاشك ان هذه الكتابة سوف تتغلب على كل انواع الارتباك بين النطق والكتابة غير ان المشكلة المهمة التي سترافق عملية استعمال الكتابة الصوتية هي مشكلة العودة ثانية الى الكتابة التقليدية لذا نرى ان الكتابة الصوتية تعين متعلم اللغة على تجنب صعوبات التهجئة لفترة ما فكان هدف الابجدية الصوتية في هذه الحالة هو تأخير عرض الكتابة لحين اتمام السيطرة النسبية على البناء الصوتي للغة وهو بحد ذاته امر معقول لانه يفسح المجال امام المتعلم للسيطرة على النطق اولا ومن ثم الانصراف للسيطرة على مشاكل الكتابة.

فيما يتعلق بالعربية نرى انها تملك حروفاً هجائية قوامها ٢٨ (٣) حرفاً هي:
أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن ه و ي
غير ان العربية لاتكتفي باستعمال الحروف الهجائية بل انها تلجأ إلى استعمال اشارات اضافية (الشكل والضوابط) تكمل مهمة التعبير عن الاصوات الاخرى التي ترد في العربية من هذه الرموز ـُـ ، ـَـ ، ـــ

لتمثيل الصوائت القصيرة والشدة ـــ لتمثيل تثنية الصامت والمدة ~ التي تمثل صوتياً الالف مسبوقة بالهمزة. والسكون (ـْـ) للدلالة على غياب الحركة والسماح بمجاورة صامتين في هيئة abutting consonants وبالتقائهما في هيئة consonant cluster عند الوقف على الكلمة (٤،٥)

وبذلك يكون عدد الرموز المستعملة في الكتابة العربية ٣٥ رمزا . اما عدد الوحدات الصوتية فالشائع لدى الكثير من اللغويين انها ٣٤ وحدة .
في الحقيقة نحن نعتقد بأن الوحدات الصوتية للغة العربية تبلغ ٣٦ وحدة بدليل ان«قَتَلَ»تختلف دلالياً «عن قَتّلَ»بسبب تثنية احدى الوحدات الصوتية بذلك تصبح لهذه التثنية وظيفة أدلالية اسوة بغيرها من الوحدات الصوتية وتضم إلى الصوامت (ولكن هذا ليس صامتاً بقدر ماهو عامل مفروض على الصوامت وهو الطول كما ان للسكون وظيفة دلالية مماثلة لأننا لانفرق بين الثنائيات من الكلمات الا بوجود السكون او عدم وجوده :

مدْ — مدى

حدْ — حدا

ان وجود السكون يعبر عن غياب صوت ما ، هو دوماً احد الصوائت. لذا يمكن تحديد قيمته بالصفر وتسميته بوحدة الصفر zero phoneme ومن ثم ضمه إلى الصوائت ليصبح عندنا ٢٩ وحدة صامتة ، و٧ وحدات صائتة. وبذلك يكون مجموع الوحدات الصوتية في العربية ٣٦ وحدة .

وفي ضوء المعلومات الانفة الذكر نرى انالوضع في اللغة العربية من حيث تطابق الرموز الكتابية والوحدات الصوتية هو وضع مثالي وهو لاريب ، افضل بكثير من اللغة الانكليزية لابل افضل من اغلب لغات العالم .

غير ان في واقع الممارسة ترد بعض حالات الاخلال بهذا التطابق المثالي التي يمكن حصرها بسهولة منها :

١. إن، «و» «و» «ى» يستعملان تارة لتمثيل الصوامت كما في «ولد» «و» يد وتارة اخرى لتمثيل الصوائت كما في حروب و سمير . كما نرى ان الحرف «ا»

يستعمل احياناً ككرسي للهمزة او المدة دون ان تكون له اية قيمة صوتية كما في أن«و»آن» ويستعمل احياناً اخرى لتمثيل الصائت مديد الفتحة كما في «كان» و « سبحان » .

٢. تمثيل الصوت الواحد باكثر من رمز . مثل رسم صوت الفتحة المديدة بالالف أو بالمدة، مع استخدام الالف ككرسي، او بالياء المهملة كما في «كان» و «والقرآن و«عيسى». كما نرسم صوت الهاء بالرمز«ه»احياناً واحياناً اخرى بالتا المربوطة عند الوقوف على الكلمات كما في«حديقة» او عند ماتكون الهاء في آخر الكلمات مثل «صه »وآسفاء .

٣. ورود بعض الحروف الهجائية في متن الكلمات دون ان تكون لها اية قيمة صوتية ــ رغم انها قد تعمل في الكتابة كمؤشرات نحوية ــ كما في كسروا ، كتبوا ، درسوا ، وهذه حالة تناظر ــ رغم الفارق الكبير في النسبة ــ وجود silent letters في الانكليزية .

٤. وجود عدد قليل من الكلمات التي لاتطابق فيها بعض رموزها لاصواتها مثل هؤلاء رحمن ، هذا .

ورغم كل هذه الحالات من الاخلال بالانسجام بين الكتابة العربية ونطقها تبقى العربية في صدارة اللغات من حيث درجة الانسجام . غير ان الانسجام مرهون بمدى استعمالنا للحركات وغيرها من رموز التشكيل فبدونها تصبح الكتابة العربية مصدرا خطرا للألتباس . وفي الحقيقة لما كانت هذه الحركات عرضة للأسقاط كما جرت العادة في الكتابة والطباعة ينشأ على اثر ذلك وضع معقد للغاية يختصره علي عبدالواحد وافي على النحو الاتي (٦) :

١ .«لانستطيع قراءة النص قراءة صحيحة الا اذا فهمنا اولا مانريد قراءته عكس مايحدث في اغلب اللغات حيث يقرأ الناس ماتقع عليه ابصارهم».

ولتوضيح هذا بشكل افضل نقول ان القراءة الصحيحة في اغلب اللغات تنفذ بشكل تتابعي اى كلمة اثر كلمة وبأدنى درجة من التداخل عبر حدود الكلمات كما هي الحالة في اللغة الانكليزية : This is a long trip

اما في العربية فان عملية القراءة الصحيحة تستدعي الجمع بين التتابع والتداخل كما في التخطيط الاتي :

ضرب الولد مرات عديدة

← ← ← ←

اذ من اجل ان يقرر القارىء هل ان ضرب . غير المعركة هي«ضَرَبَ» ام «ضُرِبَ» أم «ضَرْبٌ». عليه الانتقال بسرعة عبر«ضرب»الى الولد ومن ثم إلى مابعد الولد للتأكد من ماهية اللاحق للحكم على السابق . وعندما لايصاحب التتابع اي تداخل فان القارىء قد يتعرض لأرتكاب الاخطاء . وما اكثر هذا النوع من الاخطاء التي نرى القراء يتداركونها بعد انقضاء لحظات سريعة ينفذون خلالها عملية التداخل متبوعة بعملية التتابع .

٢. «انه من المتعذر في هذا الرسم قراءة اسماء الاعلام (اسماء الامكنة والبلاد والجبال بشكل موحد» .

اما اسماء الاعلام الاجنبية فانها احياناً تشوه بشكل غريب وبعيد عن حقيقة لفظها الاصلي .

٣. خلق انطباع سيء جدا لدى الاجانب الذين يقدمون على دراسة العربية نظرا للأرتباك والحيرة التي يعانونها من اجل العثور على الاداء الصحيح.

وهكذا نرى ان المخاطر الناجمة عن اهمال الحركات والضوابط في الكتابة العربية كثيرة لذا فمن البديهي ان يكون الوضع الافضل هو الابقاء عليها اما اذا ادعى البعض ان الابقاء الدائم للتشكيل يكلف الكثير من الجهد والمال فان الابقاء عليها في عملية التعليم ولمرحلة الابتدائية مثلا يجب ان يصبح اجبارياً اذا ما اردنا ضمان الكثير من المكاسب التي تحافظ على سلامة اللغة العربية في افواه ابنائها وغير ابنائها . وتصبح اغلب المخاطر التي ذكرناها امورا خيالية .

ومن الناحيتين اللغوية والتربوية فان مكاسب الابقاء على التشكيل تتجلى في النواحي الاتية :

١. استعادة اللغة العربية لقابليتها الكامنة في التعبير عن نطقها بشكل اقرب الى الكمال .

٢. لما كان التشكيل عنصراً اساسياً في التعبير عن الحقائق الصرفية والنحوية إضافة إلى الحقائق الصوتية فان وجوده يرفع نسبة الاداء الصوتي والنحوى بشكل يفوق التصور ودون الحاجة الى استظهار القواعد النحوية بشكل مجرد ومعزول عن السياق الواقعي . اقصد بهذا انه ليس من الضروري للمتعلم ان يستظهر ، مثلا ، قاعدة سلوك كان او ان اخواتهما مع الاسم والخبر اذا فسح المجال امام المتعلم لفترة لابأس بها للتعرف على الجمل التي تحتوى على كان او ان واخواتهما معروضة على سمعه بشكل شفوى صحيح او الى نظره بشكل كتابي كامل التشكيل . في هذه الحالة تنتقل عملية النطق الصحيح ، خاصة عند الاطفال — وهم اولى بهذا الاهتمام سيراً على قاعدة العلم في الصغر كالنقش في الحجر — من الوضع الميكانيكي إلى الوضع الالي دون الحاجة إلى استظهار القواعد . وهذا امر مشروع لغوياً وتربوياً لاننا نعرض القواعد من اجل ان يستقيم الاداء فاذا وفرنا الاستقامة في الاداء تنتفي عند ذلك الحاجة الماسة الى املاء واستظهار القواعد . وبهذه الطريقة نكون قد علمنا الطفل الاداء السليم للغتة دون تدريس قواعدها .

٣. سوف يختفي الاداء الثنائي او حتى الثلاثي لبعض الكلمات التي نرددها اليوم دون ان نعرف ماهو الاداء الاصح . فمثلا المئات من ابناء العربية لايعرفون ايهما اصح : فَلَسطين ام فِلَسطين ، الأُردُن أم ألأَردن ، طَرابُلُس أم طَرابُلْس ، بَعَلْبَك أم بَعْلَبَك مُسْبَقاً ام مُسَبَّقاً ، مُتْحف ام مَتْحف ، نِقاط أم نُقاط .... الـخ .

٤ . تصبح العربية اكثر دقة في رسم الكلمات الاجنبية التي نسمعها في حياتنا اليومية هذه الاوقات خاصة من الراديو او من شاشة التلفزيون تؤدى بشكل مشوه يثير الضحك في كثير من الاحيان . ان مثل هذه الكلمات سنجنبها التشويه بدرجة كبيرة لو اننا استعملنا الحركات والضوابط الاخرى .

سوف نستطيع مثلا تجنب قراءة الاسماء الاتية بشكل مشوه كما وردت على لسان العديد من المذيعين والمذيعات . وفي كتابة وقراءة هذه الاسماء تطبق القاعدة الاتية : كل حرف غير مشكل هو حرف ساكن وبذلك سوف نتجنب وضع اشارة السكون التي ترد كثيرا في رسم الكلمات الاجنبية عامة والانكليزية خاصة .

القراءة الصحيحة	القراءة الخاطئة	الاسم باللغة الاجنبية	
روي ميسِن	رَوي مَيسون	Roy Mason	(٧)
دِترويت	ديتِرويت	Detroit	
جويس	جَويس	Joyce	
لويدز	لَويدِز	Lloyds	
جِلسي	جَلسي	Chalsea	
بويبلو	بُويبلو	Peublo	
زمبابوي	زِيمبابوي	Zimbabwe	
كراكَر	كِراكِر	cracker	
لِندِن	لَندَن	Lindon	
آستِـن	أستون	Aston	
آرسِنِل	أرسنال	Arsenal	
سبيرز	سَبيرِز	Spuɹs	
آيدِيَل	إيديال	Ideal	
كريم	كَريم	Cream	

لاشك ان مانسميه بالقراءة الصحيحة ليست صحيحة بشكل مطلق ولكنها قريبة للغاية من النطق الاصلي لهذه الكلمات بحيث انها تكاد تكون بمنأى عن التشويه . ولكن يجب ان نقر اننا حققنا هذه الدقة في الرسم ليس بمجرد

ستعمال الحركات فحسب بل استعمال بعض الحروف الاعجمية (٨) والحركات الدخلية . وهذا بحد ذاته يفتح المجال امامنا لطرح مشروع الكتابة العربية الموسعة للاغراض الخاصة .

الكتابة العربية الموسعة للاغراض الخاصة:

THE AUGMENTED ARABIC SCRIPT FOR SPECIAL PURPOSES

لااريد هنا الدخول في تفاصيل المشروع المستقبلية الذى يمكن ان يتحول إلى ابجدية صوتية عربية . كل مااريد طرحه هنا وبشكل ضيق جدا هو مشروع الاستعانة ببمض الحروف التي سيكون في اعتقادى من الاجحاف تسميتها بالاعجمية لان شكلها الاساسي عربي وماطرأ عليها من تطوير نجم عن استعمال الرسم العربي لتدوين لغات غير عربية . يضاف إلى ذلك استعمال البعض من الضوابط الواردة ايضاً في تدوين لغات اخرى بالرسم العربي كما هي الحالة في اللغة الكردية .

فعلى سبيل المثال نستطيع استغلال الحروف الهجائية العربية المحورة والمستعملة في تدوين اللغة الكردية والفارسية منها :

پ P
ڤ v
چ tS
ژ 3
گ g

هكذا نرى ان استغلال هذه الحروف الهجائية التي سوف لاتغير من الشكل العام للكتابة العربية يمكننا مثلا من رسم كافة الصوامت الانكليزية باستثناء «ɳ»الذى تسوغ لنا الطريقة الانكليزية ـ الامريكية كتابته بشكل نكَ اى «ng»

اما وضع الشكل ـــٚـــ على غرار ماهو مستعمل في الكتابة الكردية(٩) فوق«و»و «ى» فاننا سنستطيع تدوين الصوائت (ه) و (e) اى :

و ← o

ى ← e (١٠)

وهذان الصائتان يعتبران من اكثر الصوائت شيوعاً في لغات العالم .

وبعد أن حصلنا على هذين الصائتين البسيطين نستطيع أيضاً تمثيل صوائت انكليزية وغير انكليزية مركبة أخرى (oi) و(ei) ونرسمها كالآتي:

وي ← oi

لي ← ei

وبهذه الوسيلة التي لاتجري أي تغيير جدير بالذكر على الرسم العربي سوى وضع اشارة كالفتحة المطوّلةفوق «ك» لنحصل على كَووضع ٧ فوق«ى»و«و» (أما اشارة النقاط الثلاث فهي ترد في الحرف ث) نستطيع أن نرسم النطق الانكليزي بدقة تصل إلى ٨٥٪ بدليل اننا قد غطينا كل الصوامت اضافة إلى حوالي ١٣ صائتاً بسيطاً ومركباً.

أما إذا أردنا رفع فاعلية الرسم العربي الصوتية في تدوين اللغات الاخرى بنسبة أعلى فان ذلك يتحقق بالطرق الاساسية الآتية:

١ . الاستعانة برموز واشارات اضافية أخرى أو مزاوجة رمزين أو حرفين لتمثيل صوت واحد .

٢ . استبدال القيم الصوتية لبعض الضوابط الموجودة في الكتابة العربية كأن نستغل مثلا رمز المدة لرسم الصائت (a:) والاحتفاظ بالالف لرسم الصائت(a:)

٣. اجازة استعمال حركتين في آن واحد فوق حرف هجائي واحد. بيد اننا يجب أن نتذكر ان كل هذه الوسائل ستؤدي إلى تشويه الرسم العربي .وهذابحد ذاته يفضي بنا إلى موقف المساومة .أي رفع الفاعلية الصوتية للرسم مقابل انتهاك بعض اعرافه .وهذه الحالة ليست بغريبة مع كل الابجديات والكتابات التي تميل إلى استعمال الكتابة الصوتية العالمية وأنا شخصياً لست في هذه المرحلةعلى الاقل ، من دعاة توسيع الرسم العربي أكثر من نطاق ادخال الحر وف الهجائية

العربية المحورة والمستعملة في تدوين بعض اللغات غير العربية والتي ذكرناها سابقاً. وحتى هذا الحد من التوسيع يجب حصره في ميادين خاصة مثل :

١. صناعة القواميس الاجنبية - العربية والتعبير عن بعض الحقائق الصوتية .

٢. تعليم تلفظ اللغات الاجنبية

٣. صياغة النشرات الاخبارية التي كثيرا ماتحتوى اسماء اعجمية .

٤. ضبط الاداء والالقاء في الفعاليات المسرحية التي كثيرا ما تتطلب من الممثل تقمص شخصيات تتكلم بلكنات ولهجات ولغات معينة .

٥. ضبط رسم اللهجات العربية المتداولة لتسهيل مهمة البحث اللهجوي المقارن .

٦. تدوين المصطلحات الطبية الاجنبية وبالاخص اسماء العقاقير والادوية.

قلت سابقا انني لاآتبنى فكرة توسيع الرسم العربي إلى الدرجة التي يلحقه التشويه لأن الكتابة الصوتية العالمية التي تعول عليها الان اغلب لغات العالم يمكنها ان تلبي حاجات الرسم الدقيق للتفاصيل الصوتية .

الاستنتاجات

يتضح لنا بعد الذى ذكرناه ان التطابق بين الرسم العربي ونطقه يعتبر مثاليا بين اغلب لغات العالم شرط الالتزام باستعمال الحركات والضوابط الاخرى . وعند توفير هذا الشرط تصبح الكتابة العربية في وضع مثالي وتصبح كل دعوات تطوير الرسم العربي او احلاله بالرسم اللاتيني دعوات لاتستحق المناقشة اصلا لان الرسم العربي هو في عداد الكتابة الصوتية التي تلجأ اليها اغلب اللغات باعتبارها الوسيلة المثلى التي توفر رمزا واحدا للصوت الواحد .

ثم ان استعمال الحركات والضوابط امر ضروري ليس فقط لتعليم النطق السليم بل وكذلك لتعليم القواعد النحوية السليمة . فالاطفال خاصة ، لايسيطرون على قواعد لغتهم بدراسة هذه القواعد بل انهم يستخلصونها من خضم المادة اللغوية التي تعرض عليهم في البيت اولا ومن ثم في المدرسة ليخزنوها في

ادمغتهم . وهذا لغوى مشهور معاصر يقول : ان الطفل يتعلم في المدرسة القراءة والكتابة ولا يتعلم فيها التكلم باللغة (١١). ولا يقصد بهذا ان المدرسة لادور لها ولكن الكاتب يود ان يلفت الانتباه إلى ان الطفل يتعلم الكلام بلغته حتى وان لم يذهب إلى المدرسة . وهذا بدوره يبرز اهمية اشاعة الانماط النحوية الفصيحة في احضان اللغة اليومية والبيتية للطفل وبذلك تسهل مهمة تلقف الطفل لهذه الانماط وخزنها ثم اعادة استعمالها عند الحاجة .

ان الدعوة التي طرحناها في هذه الدراسة لايقصد منها البتة توسيع الكتابة العربية من اجل رسم نطق اللغة العربية لان الكتابة العربية مكتفية كل الاكتفاء في هذا الميدان . ان الدعوة إلى توسيعها هي فقط للقيام بمهمات خاصة خارج حدود اللغة العربية . وهذا الذي حدا بنا إلى تسمية المحاولة بالكتابة العربية الموسعة للأغراض الخاصة .

مصادر وهوامش

١. احدى هذه الدعوات الشهيرة قام بها السير جيمس يتمن . للتفاصيل انظر
The Initial Teaching Alphabet ,J. Downing, Casell, London,1964.

٢. للتفاصيل حول الكتابة الصوتية العالمية راجع .
The Principles of the International Phonetic Association, London 1970.

٣. لا بأس من اعتبارها ٢٩ حرفاً هجائياً لاحتمال ورود الهمزة بشكل حرف مستقل كما في كفأ ، حمراء سماء ... الخ

٤. للشرح الوافي حول مفهوم
Consonant Clusters , abutting Consonants
انظا دراستنا القادمة في :
SYSTEM, Vol. 7, No . 3, Pergamon Press Ltd.

٥. لم نذكر التنوين هنا لان قيمته الصوتية يمكن تدوينها بالحروف الهجائية .

٦. انظر فقه اللغة ، علي عبد الواحد وافي ، مكتبة نهضة مصر ، ١٩٦٢ .

٧. لاشك ان كتابة الاسماء الاجنبية باللغة العربية بشكل اكثر دقة يتطلب حتماً المعرفة بقوانين النطق الصحيح لتلك اللغة . ان نسبة كبيرة من التشويه تنجم عن جهل الكاتب بتلك القوانين .

٨. يستعمل هذا الاصطلاح نعوم جرجيس زرازير في الاملاء الفريد ، مطبعة النعمان ، النجف ، ١٩٧٠ .

٩. انظر ريزماني كوردي ، نوري علي امين ، مطبعة كامه‌ران، السليمانية ١٩٦٠ .

١٠. بقدر ما يتعلق الامر بالصوامت يمكن استغلال ٧ فوق حرفي ل٧. ور٧ كما هو متبع ايضاً في اللغة الكردية لتمثيل النظائر المفخمة للام والراء راجع المصدر السابق .

١١. راجع دراسة جون سيرل «جومسكي والثورة اللغوية»، في الفكر العربي ، العدد ٨، ٩، ١٩٧٩ .

من آثار الغزو التتري في الأدب خلال القرنين السابع والثامن الهجري

ناظم رشيد

تمهيد:

ما كادت تنتهي سنوات النصف الأول من القرن السابع الهجري، حتى هبّت من الشرق البعيد زوبعة عاتية سوداء اقتلعت في طريقها كلّ شجرة زرعتها أيدي الخير، ورعتها عيون الحراس الأمناء عبر قرون عديدة، إنها زوبعة التتر التي حملت معها كلّ اسباب الخراب والدمار، ولم تستطع السدود الواهية صدّها وردّها، والخليفة المستعصم بالله قليل الخبرة والتدبير - كما يصفه المؤرخون - وقد سلّم إدارة دولته الى رجل يدعى ابن العلقمي (ت ٦٥٦هـ) الوزير الذي ولي الوزارة أربع عشرة سنة، حاك خلالها أخطر مؤامرة دُبّرت على الأمة العربية، ظناً منه أنه يجني من ورائها ربحاً وفيراً، وما كان يعلم أن حتفه فيها، فانه كاتب التتر سراً طالباً منهم التوجّه إلى بغداد لينالوا الثراء العظيم مقابل معاضدتهم له في اخراج الحكم من بني العباس لنفسه وأتباعه. فما كان من هولاكو (ت ٦٦٣هـ) إلا التوجه الى دار الخلافة، واستباحتها خلال بضعة وثلاثين يوماً، وقتل الخليفة وأولاده وأتباعه وكثير من العلماء والأدباء بعد جمعهم بحجّة عقد قران ابنته لابن الخليفة الغافل، وجعل كنوز العلم والأدب وقوداً للنيران، ومادة تمدّ مياه دجلة بلون أسود.

وقد أسهبت المراجع والمصادر التاريخية في ذكر تفاصيل المجازر التي حصلت، ويمكن لمن يريد الاستقصاء الرجوع اليها، (١) لأن غايتنا في هذا البحث هي جلاء واقع الأدب في ظلّها.

توزع البحث على دراسة النظم والنثر، وقيمتها التاريخية والاجتماعية، وقد تناولت في دراسة النظم، الشعر الذي قيل في الحيطة والحذر قبل وقوع الكارثة والمجزرة الرهيبة، وشعر الحزن والأسى الذي أطلقه الشعراء بعد

---

(١) ينظر ذيل مرآة الزمان ١ : ٥٨ الحوادث الجامعة ص ٣٢٤ ، النجوم الزاهرة ٧ :٤٧ تاريخ ابن الوردى ٢ : ١٠ عصر الانحدار ص ٨ ، الغزو المغولي كما صوره ياقوت الحموي الدكتور بشار عواد - مقال في مجلة الأقلام ، العدد ١٢ لسنة ١٩٦٥.

هجوم الجيوش التترية الغازية، وخراب المدن، ومقتل الألوف، وانهيار العـز الشامخ، والمجد التليد، وأخيراً شعر البشرى والتهنئة وتمجيد البطولة بعد اندحار التتر في الشام. أما في النثر فقد درست الرسائل والمقامات التي كان لها وقع عظيم في نفوس المسلمين، ودور كبير لا يقل عن دور الشعر آنذاك.

دور الشعر قبل الغزو التتري :

لقد كثر الكلام في الواقع السيء الذي خيّم على دولة بني العباس في أخريات أيامها، ولفت نظر الخليفة الى ذلك صراحة كثير من الرجال الغيورين، وحذّروه من مغبّة الغفلة عنه، والعواقب الوخيمة التي تنتظر رعاياه إن لم يبادر للنهوض إلى إصلاحه وتقويمه، ولكنه صمّ أذنيه، وترك الأمر سائباً، وبقي سادراً في لهوه وملذاته. يقول ابن الطقطقا : «وكان المستعصم آخر الخلفاء شديد الكلف باللهو واللعب وسماع الأغاني، لا يكاد مجلسه يخلو من ذلك ساعة واحدة، وكان ندماؤه وحاشيته جميعهم منهمكين معه على التنعّم واللذّات، لا يراعون له صلاحاً ... وكتبتْ له الرقاع من العوام، وفيها أنواع التحذير، وألقيَتْ فيها الأشعار في أبواب دار الخلافة، فمن ذلك :

قُلْ للخليفةِ مهلاً
أتاك ما لا تحبُّ
ها قد دهتكَ فنونٌ
من المصائبِ غُرْبُ
فانهضْ بعزمٍ وإلاَّ
غشاكَ وَيْلٌ وحَرْبُ
كسرٌ وهتكٌ وأسرٌ
ضربٌ ونهبٌ وسلبُ،

كل ذلك وهو عاكفٌ على سماع الأغاني، واستماع المثالث والمثاني، وملكه قد أصبح واهي المباني. (١)

انطلقت ألسنة الشعراء الذين أصيبوا ايضاً بحيف الحكم آنذاك، لتكشف واقع المجتمع الفاسد، الواقف بقدمين مهزوزتين على شفا جرف هار، وتنذر الناس من مصيبة لا تبقي ولا تذر. وكان أجرأ شاعر في هذا الميدان هو مجد الدين النشابي (٢) (ت ٦٥٧ هـ) الذي نظم قصيدة طويلة، أولها (٣) :

يا سائلي ولمحْضِ الحقِّ يرتاد
أصخْ فعندي نشدانٌ وإنشادُ

واسمعْ فعندي رواياتٌ تحقّقها
درايةٌ وأحاديثٌ وإسنادُ

فهمٌ ذكيٌّ، وقلبٌ حاذقٌ يقظٌ
وخاطرٌ لنفوذِ النقدِ نقّادُ

عن فتيةٍ فتكوا في الدين وانتهكوا
حماهُ، حملاً برأيٍ فيه إفسادُ

أشار بعدها الى الاضطراب والفساد ، واختلال الإدارة ، ونظام المصادرة، والتعدي على الناس ، والقضاء على الحريات ، ومحو العدل والمساواة . وانتقد بشدّة الوزراء وحاشية الخليفة المنشغلين ، بعبثهم وقصفهم ، الغارقين في غيّهم ومجونهم . وتهجّم على رجال الدين الذين تركوا ما أوصاهم به الله وما أوجب عليهم من نصح العباد وارشادهم. وفي آخر القصيدة يتمنّى الموت قبل أن يرى المسلمين وهم واقعون في كارثة يشيب من هولها الولدان ، فقال:

---

(١) الفخري في الآداب السلطانية ص ٤٦.

(٢) انظر مقالنا المنشور في العددين الثالث والرابع من مجلة الإخاء لسنة ١٩٧٦ بعنوان : مجد الدين النشابي .

(٣) الحوادث الجامعة ص ٣٢٠ .

أينَ المنيّة منّي كي تُساورني
فللمنيّةِ إصدارٌ وإيرادُ

من قبلِ واقعةٍ شنعاء مظلمةٍ
يشيب من هولها طفلٌ واكبادُ

لقد كانت القصائد الشعرية المحذّرة المنذرة صيحة في واد ونفخة في رماد، ووقعت الديار الإسلامية بعد عزّها ومنعتها في ذلّ الحكم التتري الباغي الذي شوّه معالم الحضارة والمدنية المعمورة منذ قرون عديدة .

شعر الحزن والاسى

إن الادب الباكي - إذا صحّ التعبير- هو أوضح موضوع تجلّت فيه آثار النكبة التي حلّت بالأمة الاسلامية بعد عزّها ومنعتها . لقد بكى الناس بدموع سجام وحقهم أن يبكوا وينشجوا فإن دماء أعزائهم مطلولة أمام أعينهم والدور مهدّمة على رؤوس أصحابها ، والمساجد والمدارس والمكتبات أصابها النهب والحرق . فاذا عبّر الشعراء عن أحداث هذه المصيبة ، كان تعبيرهم صادقا وأمينا ، نابعاً من قلوب مكلومة ونفوس مرزوءة . فهذا شاعر من الكوفة اسمه شمس الدين محمود الكوفي (ت ٦٧٥هـ)، ويسمّيه محمد رضا الشبيبي في كتابه عن ابن الفوطي « شاعر مأساة بغداد » (١) ، يبكي بغداد بعد أن فارقها على أمل العودة اليها ، واذا بصاعقة التتر تضربها وتحيلها الى خرائب يباب ، فيأتيها ، ويرثيها بقصيدة تفصح عن صدق معاناته وألمه يذكر في مطلعها صحبة وأصدقاءه الذين ودّعهم إلى غير رجعة ، ويتمنّى الموت بعدهم ، . يقول (٢) :

إن لم تقرّحْ أدمعي أجفاني
من بعد بعدكُم فما أجفاني

---

(١) ابن الفوطي الشبيبي ص ١٤٦ .
(٢) فوات الوفيات ٢ : ٢٣٤ .

إنسانُ عيني مذ تناءَت دارُكم
ما راقه نظرٌ إلى إنسانِ
ياليتني قد متُّ قبل فراقكم
ولساعةِ التوديع لا أحياني
مالي وللأيامِ شتتَ صرفُها
حالي ، وخلاّني بلا خلانِ

ويتعجّب الشاعر بعد تَطوافه ببغداد — من تبدل الوجوه ، وغياب الأهل والجيران ، وما حلَّ بها بعدما جالت فيها معاول الهدم ، وألسنة النيران .

ما للمنازلِ أصبحت لا أهلُها
أهلي ، ولا جيرانها جيراني
وحياتكم ما حلها من بعدكم
غيرُ البِلى والهدْمِ والنيرانِ

ويقف مذهولاً أمام الدار الخربة — وهي ليست وقفة الشعراء على أطلال محبوباتهم الظاعنات — ويسألها عما دهاها وأصابها ، وكيف تحوّلت الى هذه الحالة المؤلمة بعد عزّ ورخاء ، وقوة ومنعة :

ولقد قصدتُ الدارَ بعد رحيلكم
ووقفتُ فيها وقفة الحيرانِ
وسألتها ، لكن بغير تكلّمٍ
فتكلّمتْ ، لكنْ بغيرِ لسانِ
ناديتُها : يادار ما صنعَ الألى
كانوا هم الأوطارَ في الأوطانِ
أين الذين عهدتهم ، ولعزّهم
ذلاً تخرُّ معاقد التيجانِ
كانوا نجومَ مَن اهتدى فعليهمُ
يبكي الهدى ، وشعائر الإيمانِ

فردّت الدار على سؤاله بجواب لطيف ، بأن أهوال الحوادث أفنتهم كما أفنت دولة كسرى العظيمة :

قالت غدَوا لما تبدَّد شملهم
وتبدّلوا من عزّهم بهوانِ

أفنتهمُ غيرُ الحوادثِ مثلما
أفنتْ قديماً صاحبَ الإيوان

لم يأت الشاعر في قصيدته على وصف المدينة المنكوبة بكلّ تفصيلاتها وأبعادها بل انشغل بوصف حزنه على فراق أحبابه ، وألمه الذي أصابه بعد خرابها ، ولم يستطع الشاعر أن يتخلّص — وهو في موقف الحزن والأسى — من التزيين اللفظي والمعنوي ، وبخاصة من الجناس والطباق ورد الصدر على العجز ...

ولشمس الدين محمود الكوفي قصائد أخرى في بكاء الأهل ، وندب الأحباب ، بعد هجوم هولاكو على بغداد ، وتمزيق صورتها المشرقة ، وتشويه أصالتها العريقة (١)

منها هذه القصيدة التي سلك فيها مسلك المتيّمين الذين أفناهم فراق الأحباب وقرّح جفونهم كثرة البكاء ، مطلعها :

عندي لأجلِ فراقكم آلامُ
فإلامَ أعذلُ فيكمُ وألامُ

مَنْ كان مثلي للحبيبِ مفارقاً
لا تعذلوه فالكلامُ كلامُ

نعم المساعدُ دمعيَ الجاري على
خديَّ إلاّ أنه نمّامُ

وبعدها يستوقف أصدقاءه وخلاّنه على الديار التي تغيرت معالمها : وتبدّد عقد قاطنيها :

---

(١) الحوادث الجامعة ٣٣٤ ، فوات الوفيات ٢ : ٢٣٢.

قِـفْ فـي ديـارِ الظـاعـنـيـنِ ونـادهـا

(يادارُ مـا صـنـعـتْ بـكِ الأيـام) (١)

ويتساءل في قصيدته — على عادة من وقف على الأطلال — عن الراحلين الذين خلّفوه يتجرّع لوعة الأسى ، ومرارة الحرمان ، وعذاب الوحدة ويقسم بالبقاء على عهد الهوى والمحبّة مهما كلّفه ذلك :

وحـيـاتـكـم إنـي عـلـى عـهـد الـهـوى

بـاقٍ ولـم يـخـفـرْ لـديّ ذِمـامُ

فـلـمي حـلالٌ إنْ أردتُ سـواكـمُ

والـعـيـشُ بـعـدكـم عـلـيّ حـرامٌ

ويسترسل على هذه الشاكلة الى نهاية القصيدة في البكاء والنحيب دون أن يوضح لنا ما دهى المدينة المنكوبة من خراب ودمار ، وقتل وتشريد ، وأسر واغتصاب ، ونهب وحرق . اليك ما يقوله في خاتمة القصيدة :

يـالـيـت شـعـري كـيـف حـالُ أحـبّتي

وبأي أرض خـيّـمـوا وأقـامـوا ؟

مـا لـي أنـيـس غـيـر بـيـت قـالـه

صـبٌّ رَمَـتْـه مـن الـفـراق سـهـامَ

(والله مـا اخـتـرتُ الـفـراقَ وإنـمـا

حـكـمـتْ عـلـيَّ بـذلـكَ الأيّامُ)

إن بغداد جديرة بالبكاء لأنها الأُم الرؤوم الروحية للعالم الإسلامي ، فكانت النكبة التي حلّت بها عظيمة ، والفاجعة التي داهمتها كبيرة وقد قدّر لشاعر آخر اسمه تقي الدين اسماعيل بن ابي اليسر التنوخي مستند الشام(ت٦٧٢هـ) أن يكون في عداد من شهدوا النكبة وعانوا من أهوالها ، فبكاها بقصيدة طويلة ، مطلعها : (٢)

---

(١) لابي نواس وعجزه : ضامتك والأيام ليس تضام .

(٢) النجوم الزاهرة ٧ :١٥١ شذرات الذهب ٥:٢٧٢.

لسائل الدمعِ عن بغداد إخبارُ
فما وقوفكَ والأحبابُ قد ساروا؟

يتخيل الشاعر في قصيدته قادماً الى بغداد لمشاهدتها بعد الغياب ولزيارة الأحباب ، فيعترضه ويستوقفه ليسأله عن قصده ووجهته . ولم يصرّح بسؤال الزائر وماهيته ، بل ابتدأ مباشرة بردّ الجواب ، وقال له : إن هذا الدمع الذي يجري بغزارة ينبئك بما دهاها ، ويعلمك ما أصابها ، ولكن الزائر يبقى مبهوتاً من النبأ لايبرح مكانه ،فيعود الشاعر ويسأله : لم أنت واقف ياهذا ؟ ويلتفت الى القافلة فيراها قد جمدت مكانها ، منذهلة من الخبر المرعب ، فيقول لهم : عودوا من حيث أتيتم ، فلا فائدة من مسيركم ، فأن الحمى الذي تبغون زيارته قد أقفر واندرس ، وعز الخلافة الشامخ ذلّ واتضع :

يا زائرين الى الزوراءِ لا تَفِدوا
فما بذاك الحمى والدارِ ديّارُ
تاج الخلافةِ والربع الذي شَرُفَتْ
به المعالم قد عَفّاه إقفارُ

وبعد هذا البدء الباكي يترك الشاعر القافلة ويعود الى نفسه المكلومة ويحدثها حديثاً ذا شجى ، فيناجي قلبه الملتهب أسىً على ما وافى ربآع بغداد من إعصار أقلع كل شيء ناضر بهيج . وراح يتأسّف على كنوزها التي أصبحت نهباً رخيصاً بيد طائفة كافرة لارحمة في قلبها ولا عطف ، ويذكر سيوف التتر الباغية التي تسلطت على رقاب الآمنين ، وتلاعبت برؤوس الأبرياء الآمنين :

يا نارَ قلبيَ من نارِ لحربِ وغى
شبّتْ عليه ، واوفى الربعَ إعصار
وكم ذخائر أضحتْ ، وهي شائعة
من النّهاب ، وقد حازتْها كُفّارُ

وكم حدودٍ أقيمتْ من سيوفهمُ
على الرِّقادِ وحُطّتْ فيه أوزارُ

وحين يشاهد النساء الشريفات يسوقهنَّ قوم دعّار إلى السفاح ، ويدفعوهن إلى الموت وهنَّ في أزرى حالة ، يرفع يده الى السماء راجياً من الله تعالى أن يسلّط عليهم عذابه ونقمته وأن لايسلط عليهم عذاب العار والمذلّة .

ناديتُ والسَّبْيُ مهتوكٌ يجرُّهمُ
إلى السّفاحِ من الأعداء دُعّارُ
وهم يُساقون للموت الذي شهدوا
النارُ يارَبِّ نصلاها ولا العارُ

وبعدها ينادي الرجال الشرفاء وأهل النخوة والكرامة أن يسمعوا أحاديث هذه الفاجعة الكبيرة ، ويطلب منهم أن ينعوا على بني العباس . فلا بزغ على الدنيا بعدهم نور . ويعود الشاعر إلى نفسه فيراها بائسة حزينة لاتتسلى إلا بذكرهم . فهو لايتوقع أن تعود لبغداد مكانتها وكرامتها بعد وقوع ماينعيه بالقيامة الكبرى، وموت آل الرسول ورجال العلم والدين. ويتمنّى الموت ، ولكن القدر يأبى عليه إلاّ أنْ يعيش بعدهم ذليلاً يتجرّع مرارة العذاب وأسى التغرّب :

يا للرِّجالِ لأحداثٍ تحدّثنا
بما غدا فيه إعذارٌ وإنذارٌ
من بعد أسرِ بني العباسِ كلّهم
فلا أنارَ لوجه الصُّبحِ إسفارُ
ما راقَ لي قطُّ شيءٌ بعد بينهم
إلاّ أحاديثُ أرويها وآثارُ
لم يبقَ للدين والدنيا وقد ذهبوا
شوقٌ لمجدٍ وقد بانوا وقد باروا

إن القيـامةَ فـي بغـدادَ قد وُجِـدَتْ
وحدَّهـا حيـن للإقبـال إدبـارُ
آل النبـيّ وأهـل العلمِ قد سُبِيُـوا
فَمَـنْ تـرى بعدهم تـحـويه أمصارُ(١)
ما كنتُ آملُ أن أبقـى وقـد ذهبـوا
لكنْ أبـىَ دون مـا أختـار أقـدارُ

لقد القت هذه القصيدة الضوء على واقع بغداد بعدما داهمها التتر ، وما فعلوا فيها من الأعمال التي تأباها الإنسانية . تجلّى فيها عمق الألم الذي عاناه الشاعر ، والعاطفة المتأججة تجاه بني قومه المنكوبين ، والحسرة على فقدان الكثيرين منهم .

وخلد الشعر الفارسي حوادث التتر المروعة ، وما جرته على بلاد المسلمين من تخريب واحراق ، فهذا شاعر يدعى « أنوري» يبكي خراسان بقصيدة سماها دموع خراسان ، بعد غارة التتر ، وتدميرهم إياها وقتلهم أهلها واشعال النار فيها. يقول وليام كرباتريك الذي ترجم القصيدة إلى اللغة الانكليزية وأشاعها في أوربا : « إن هذه القصيدة من أجمل القصائد في اللغة الفارسية ، فالعواطف الممثلة بها طبيعية ، وهي على الغالب من أجمل العواطف وأنبلها ، وكذلك الصور التي اشتملت عليها واضحة ظاهرة للعيان ، والشاعر ثائر في قوله ، ولكنه جميل التعبير ، منمّق العبارة ، عفيف الألفاظ ، ونظمه ليس سلساً في كل المواضع ، ولكنه على العموم متناسب مع موضوع القصيدة ، وكذلك البحر الذي نظم فيه الشاعر يعتبر من أبطأ البحور من حيث موسيقاه ، ومن أكثرها مهابة واتزانا » ، (٢) وقد التزم في قصيدته عمود الشعر العربي ، واليك ترجمة حرفية لبعض أبياتها .

---

(١) سبيوا : هكذا ورد ، وهو خطأ ، والصواب سبوا وان كان لا يتزن به البيت .
(٢) تأريخ الأدب في ايران ص ٤٨٦ .

– اذا مررت ياريحَ السحر على مدينة سمرقند
فاحملي رسالةَ أهل خراسان إلى حضرة السلطان
وهي رسالةٌ تبدو في سطورها تأوهات الأعزاء
وتحتوي في ثناياها على دماء القتلى من الشهداء

– وقد جفت صفحاتها بفعل التأوهات الحارة التي تخرجها صدور المظلومين
ولكن عنوانها مازال ندياً مبللاً بفعل الدموع الجارية من أعين المحرومين
وقد احترقَ بها سمعي عندما أخذَ يصغي إلى أخبارها
ودمي بها إنسان عيني عندما نظر إلى مضمونها وآثارها (١)

واذا كان أنوري قد نظم قصيدته باللغة الفارسية ، فإن سعدي الشيرازي (ت ٦٩١ هـ) نظم قصيدة رائعة في بضعة وتسعين بيتاً باللغة العربية ، رثى بها الخليفة المستعصم بالله،وبكى على بغداد حاضرة العالم الإسلامي آنذاك،أولها(٢) :

حبستُ بجفنَيَّ المدامعَ لا تجري
فلما طغى الماءُ استطالَ على السكرِ

نسيمُ صبا بغداد بعد خرابها
تمنيتُ لو كانتْ تمرُّ على قبري

لأنَّ هلاكَ النفسِ عند أولي النهى
أحبُّ له من عيشِ منقبضِ الصدرِ

إنه سلك طريقة مجد الدين النشابي وشمس الدين محمود الكوفي اللذين تمنيا الموت بعد خراب بغداد ، فقد تمنّى سعدي الشيرازي الموت بعد ذهاب دولة بني العباس ، ووددّ لو مرت على قبره أنسام بغداد الحزينة .

---

(١) تنظر القصيدة وترجمتها في كتاب تاريخ الأدب في ايران ص ٤٩١ وما بعدها .

(٢) متنبي وسعدي ص ٩٢ ، وينظر مقال أحمد حامد الصراف في مجلة اليقين ، العدد الخامس لسنة ١٩٢٤ بعنوان سعدي الشيرازي ، ومقال الدكتور نورى حمودى القيسي في مجلة كلية الدراسات الاسلامية ، العدد الثاني لسنة ١٩٦٨ بعنوان رثاء بغداد .

وقد صوّر في قصيدته هذه الحادثة الموجعة ، والكارثة المفجعة ، وحالة الناس وهم سكارى من هول الهجمة الشرسة التي فوجئوا بها بعد أن كانوا في بيوتهم آمنين :

أُديرتْ كؤوسُ الموتِ حتى كأنّه
رؤوسُ الأسارى ترجحن من السكرِ

ويعيد ما تمناه في مفتتح القصيدة ، بعد أن رأى المنظر المزري الذي أصيب به العلماء والأدباء بأيدي أراذل الناس وسفهائهم .

نوائبُ دهرٍ ليتني متُّ قبلها
ولم أرَ عدوان السفيهِ على الحبرِ

وشبه نفسه حين مرّ بديار المنكوبين ، وقد أجهش بالبكاء ، بالخنساء المرزوءة بأخيها صخر ، وطلب من ذلك الشخص الذي أراد أن يخفف من مصابه الأليم أن يتركه وشأنه ، لأن قلبه لم يعد يحتمل الصبر والسلوان :

مررتُ بصمّ الراسيات أَجوبُها
كخنساء من فرط البكاءِ على صخرِ
يا ناصحي بالصبرِ دعني وزفرتي
أموضع صبر والكبودُ على الجمرِ

وهو يرى أن الإسلام ما دام قد عاد غريباً كما بدأ غريباً ، فلا جرى نهر دجلة بمائه الرائق على أرض العراق ، ولا نبت حوله عشب ، ولا أورقَ شجر :

وفي الخبرِ المروي دين محمد
يعودُ غريباً مثل مبتدأ الأمرِ(١)
فلا انحدرتْ بعدَ الخلائقِ دجلة
وحافاتُها لا أعشبتْ ورقُ الخضرِ

---

(١) اقتباس من الحديث الشريف : « ان الاسلام بدأ غريباً ، وسيعود غريباً كما بدأ ، فطوبى للغرباء» . صحيح مسلم ١ : ٢٩ صحيح الترمذي ١٠ : ٩٦ .

ولم يقف بكاء الشعراء عند حدود العراق ، بل كان لتخريب المدن الشامية اكبر الأثر في نفوسهم ، فهذا ملكها الناصر يوسف — وكان شاعراً — يقع أسيراً بيد التتر ، وحينما يمرون به على حلب ، وهي خاوية على عروشهاه، وقد تهدّمت وألسنة النيران تعمل فيها ، :قال (١)

يعزُّ علينا أن نرى ربعكم يبلى
وكانت به آياتُ حسنكم تُتلى
أدورُ بعيني نحوكم في دياركم
وأكثر فيها النوحَ كالفاقدِ الثكلى
أأحبابنا واللهِ ما قلتُ بعدكم
لنائبة الأيامِ رفقاً ولا مهلا

إنه يتأسّف على ما حلّ في الربوع التي كان يحكمها ويعيش في وارف ظلالها ونعيم خيراتها ، وهو — كما تذكر المراجع — قد تخاذل في لقاء التتر لذا نراه يقف موقف المنهار معنوياً ، اليائس من عودة العز الذي اندك ، فيبكي كالثكلى الفاقدة لعزيزها المرزوءة بفلذة كبدها . ولم ينجه البكاء والنحيب ، فإنّ هولاكو قتله سنة ٦٥٨ ، يقول ابن شاكر الكتبي :

« إنه قتله عقيب واقعة عين جالوت، وقيل خص بعذاب دون أصحابه، وقيل جعل هدفاً للسهام ، وقيل جمع له نخلتان ، وربط بينهما ، وافترقتا ، فذهبت كل واحدة بشق منه (٢)» . وكان لموته رنّة حزن في نفوس الشعراء وجادت قرائحهم له بمراث كثيرة (٣). ولم يكن الملك الناصر يوسف الضحية الوحيدة في هذه الأحداث ، فأن الملك الكامل محمد بن غازي صاحب ميّافارقين كان الصريع الآخر ، فأنه قاوم هولاكو بعناد ، وصبر على حصاره أكثر من سنتين «حتى ضعف من عنده عن القتال ، فاستولوا عليها ، وقتلوه ، وطافوا برأسه في البلاد ...وعلّق رأسه في شبكة بسور باب الفرادس الى

(١) ذيل مرآة الزمان ١ :٤٦٨.
(٢) فوات الوفيات ٤ :٣٦٤.
(٣) انظر فوات الوفيات ٤ :٣٦٥ — ٣٦٦ .

أن عادت دمشق الى المسلمين ، فدفن بمشهد الحسين ـ رضى الله عنه ـ»(١) وفيه يقول شهاب الدين بن أبي شامة (ت٦٩٤هـ) :

ابنُ غازٍ غزا وجاهدَ قوماً
أثخنوا في العراقِ والمشرقينِ
ظاهراً غالباً وماتَ شهيداً
بعدَ صبرٍ عليهم عامينِ
لم يشنْهُ أنْ طيفَ بالرأسِ منه
فلهُ أسوةٌ برأسِ الحسينِ
ثم واروا في مشهدِ الرأسِ ذاك الـ
ـرأسِ فاستعجبوا من الحالين
وارتجوا أنه يجيء لدى البعـ
ـثِ رفيقَ الحسين في الجنتينِ(٢)

إن هذا الملك صابر وجالد قوماً بغوا وفتكوا في كلّ البلاد التي وطئتها سنابك خيولهم ، ولم يعبه عائب عندما سقط صريعاً بين أيديهم فأن له أشباهاً ونظائرَ عبر التاريخ الطويل ، كتبوا في سجل الشهداء والصديقين .

ويبدو أن شهاب الدين بن أبي شامة المقدسي كان مولعاً بربط الأحداث بالتاريخ ، يستلهم منها العبر والعظات ، فله قصيدة أخرى يذكر فيها حمم النار التي قذفها بركان ثار بالقرب من المدينة ، وحريق مسجد الرسول وسقوط بغداد ، ومقتل الخليفة المستعصم بالله ، ويدعو في ختامها أن يصون الدّيار الباقية من الكوارث والنكبات :

وانقضتْ دولةُ الخلافةِ منها
صارَ مستعصم بغيرِ اعتصام

---

(١) تتمة المختصر ٢ : ٢٩٥ .
(٢) ذيل الروضتين ص ٢٠٥ ، تتمة المختصر ٢ : ٢٩٥ ، ذيل مرآة الزمان ١: ٣٥٩ .

ربِّ سلِّمْ وصُنْ وعافِ بقايا ال

ـمدن ياذا الجلالِ والإكرام

فحناناً على الحجاز ومصر

وسلاماً على بلادِ الشآم (١)

لم تكن دمشق وحلب وميافارقين المدن الوحيدة التي نكبت في هذه الأحداث ، وسقاها التتر بنفس الكأس التي شربت بها بغداد ، فأن معرّة النعمان أصيبت بابتلاء أدهى وانتقام أشد ، فقد هدّمت قلعتها بمعاول البغي والبطش أمام أعين أهلها، ولما رأى أحد الشعراء رجال التتر على القلعة يسخّرون العوام في تخريب سورها قال قصيدة منها :

رفقاً عليها قلعةً منعةً

يهدمُها مَنْ هو مِن حزبها

فغايةُ المفرطِ في سلمها

كغايةِ المفرطِ في حربها

تحثّنا في هدمها أعجمٌ

ونحن مكروبون من كربها

تبخلُ أيدينا بأرواحنا

وتشتكي منها إلى ربِّها

فهذه الأرواحُ من جَوِّها

وهذ الأجسامُ من تربها

لما رأوها أسرفتْ في العلا

كانَ علاها منتهى ذنبها (٢)

---

(١) ذيل مرآة الزمان ١ : ١١ .

(٢) تتمة المختصر ٢ : ٢٩٥ .

تعطينا الأبيات السابقة صورة لحالة أهل المعرّة في تلك الآونة،وهم ينظرون إلى قلعتهم الحبيبة إلى نفوسهم، وقد تناولتها أيدي التخريب والهدم، يتجرعون مرارة الألم وهم صاغرون.

وحينما ذهبت المحنة، وهدأت الفتنة، عاد الكثيرون إلى ديارهم فوجدوا معالمها قد تغيرت، وزينتها قد تشوهت، فبكوها أشد البكاء. منهم كمال الدين بن العديم المؤرخ المشهور (ت ٦٦٠هـ) الذي فرّ من بطش التتر إلى مصر، فجاء إلى الشام، ومنها إلى حلب، فرآها كئيبة حزينة ترثي حالها، وتحكي قصتها وما جرى لها لكلٍّ قادم اليها، فنظم قصيدة عدتها خمسة وسبعون بيتاً مطلعها :

هو الدهرُ : ما تبنيهِ كفاكَ يهدمُ
وإنْ رمتَ إنصافاً لديه فتظلمُ

وملكُ بني العباسِ زالَ ولم يدعْ
لهم أثراً من بعدهم وهمُ همُ

وأعتابُهم أضحتْ تداسُ، وعهدُها
تباسُ بأفواهِ الملوكِ وتلثم

وعن حلبٍ ما شئتَ قلْ من عجائبٍ
أحلَّ بها يا صاحِ إن كنتَ تعلمُ

فيالكَ من يومٍ شديدٍ لغامه
وقد أصبحتْ فيه المساجدُ تهدمُ

ولكنما للهِ في ذا مشيئة
فيفعل فينا ما يشاءُ ويحكمُ (١)

ألقى الشاعر اللوم على الدهر وجوره، والأيام وصروفها، ولم يلقه على نفسه وأمثاله الفارين، ولا على ملوك الشام المتفرقين، والمتخاصمين فيما بينهم. ويرى الداهية الكبيرة التي أصابت المسلمين من مشيئة الله وحكمه،

(١) اعلام النبلاء ٢ :٣١٣.

ولم يعلم بأن الله قد أوصى بالجهاد والمصابرة، وعدم الركون إلى القعود والسكينة، فقال: « انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون »(١).

وبقيت آثار النكبة التي ابتلي بها المسلمون عامة والعرب خاصة ماثلة للعيان الى زمن طويل. وقد استجلبت أنظار فريق من الشعراء المتأخرين، فنظموا قصائد حزينة. ولعل أكثرهم تأثراً بذلك هو علاء الدين علي الأوتاري (ت٧٢٤) الذي نظم قصيدة طويلة سنة تسع وتسعين وستمائة حينما شاهد الخراب والدمار الذي أحدثه هجوم التتر على دمشق، أولها: (٢)

لكَ علمٌ بما جرى ياسُهادي
من جفوني على افتقاد رقادي

لم أجدْ عند شدتي مؤنساً لي
غير سُهْدي ملازماً لوادي

وحبيبُ العين، الرقادُ جفاها
مُذ رآها خليفةَ الأنكادِ

أحسنَ اللهُ يا دمشقُ عزاكِ
في مغانيك يا عمادَ البلادِ

وهي قصيدة موجعة بتقطر دماً على ما دهى الناس الآمنين في دمشق من قتل ونهب وهتك، وما أصاب الدور والقصور من هدم واحراق:

طرقتهم حوادثُ الدهر بالقتـ
ـلِ ونهبِ الأموالِ والأولادِ

وبنات مُحَجّباتٍ عن الشمـ
ـس تناءت بهنَّ أيدي الأعادي

---

(١) سورة التوبة، الآية ٤١.

(٢) نهاية الأدب ٥: ٢٢٧، وينظر تاريخ الشعر العربي للكفراوى ٣: ١٥٤.

وقصور مشيّدات تقضّت

في ذراها الأيام كالأعياد

وبيوت فيها التلاوةُ والذّكـ

ـرُ وعالي الحديث بالإسنادِ

حرّقوها وخرّبوها وبادت

بقضاء الإلهِ ربٍّ العبادِ

ويوضح بغدها الأمراض الإجتماعية ، والأوبئة الاقتصادية ، التي عمت دمشق ، يضاف اليها الخوف والرعب اللذان سيطرا على النفوس ، وهيمنا على القلوب :

فالغلا والجلا مع الجُوعِ والعُر

يِ ونهب الأقواتِ والأزوادِ

والحصارُ الشديدُ والحبسُ والخو

فُ مع السادة العُراة المكادي

أية فاجعة هذه ؟ إنها أصابت الحرث والنسل ، ويتّمت الأطفال ، وسبت الفتيات ، وأثكلت الأمهات ، وخربت القصور ، وحرّمت تلاوة الذكر في الدور .

وأية حالة هذه ؟ الغلاء عم البلاد ، والجلاء دهم العباد ، وابتلي الناس بالنهب والسلب وحبس الأنفاس .

إنها حالة يرثى لها ، فلا يستطيع الناظر آنذاك أن يخفي حزنه ويحبس دموعه ويكظم غيظه عن التتر ، فها هو ذا علي بن عبدالله البهائي (ت٨١٥هـ) يمر على دمشق ، ويقف على الخرائب التي سببها الغزو التتري ، فينظم قصيدة نونية أولها :

أجريت جمرَ الدمع من أجفاني

حزناً على الشعَراءِ والميدانِ

ونجتزيء من القصيدة الأبيات الآتية لنرى مدى انفعال الشاعر من الكارثة :

لهفي على كتب العلوم ودرسها
صارتْ معانيها بغير بيان
أعروسنا لك أسوةٌ بحماتنا
في ذا المصاب فأنتما أختان
غابت بدورُ الحسن عن هالاتها
فاستبدلتْ من عزِّها بهوانِ
ناحت نواعيرُ الرياضِ لفقدهم
فكأنها الأفلاك في الدورانِ (١)

إنه يبكي على دمشق التي فقدت رواءها وحسنها، واضمحلت من أروقة مدارسها العلوم وكتبها، ويشبه حالها بحماة التي ضربت أيضاً بسهام البغي والعدوان. ويتأسف على البدور الحسان اللواتي تحولن من العزّ والكرامة إلى المذلّة والهوان، فناحت لهنّ النواعير في الرياض البهية التي تحيط المدينة المنكوبة. والملاحظ أن القصيدة - وإن لم ترق في مستواها الفني إلى قصائد الشعراء المجيدين - تعطينا صورة صادقة عن الحزن والأسى الذي اعتمل في صدر هذا الشاعر، فنفثها قصيدة طويلة تجاوزت ستين بيتاً.

إن آثار هذا الغزو بقيت عالقة بالأذهان، تثير بين الحين والآخر الأشجان والأحزان، وعلى مر العصور والأزمان. تهز الكارثة الشعراء كلما سمعوا بها، أو رأوا معالمها، أو قرأوا حوادثها المثيرة ، ووقائعها المؤلمة. (٢)

شعر البشرى والفرح وتمجيد البطولة :

وإلى جانب الأدب الباكي الحزين نجد شعراً يحمل بين جوانبه البشر والفرح، وخاصة بعد معركة عين جالوت (٣) التي انتصر فيها الجيش

---

(١) مطالع البدور ٢ : ٢٠٠ وينظر الوطن في الأدب العربي ص ٧٨.
(٢) تنظر القصيدة التي نظمها الشاعر معروف الرصافي بعنوان (هولاكو والمستعصم) . الديوان ٣٤٨ - ٣٥٣ .
(٣) كانت هزيمة التتر على عين جالوت يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان سنة ٦٥٨ (مختصر أبي الفداء ٣ : ٢١٤)

المصري بقيادة المظفر قُطز ، وبمؤازرة جيش حمص بقيادة الملك المنصور محمد. وقد أخذ الناس العجب أن تكون كسرة التتر على يد شخص من جنسهم وبني قومهم، فقال شهاب الدين ابن أبي شامة المقدسي :

غلبَ التتارُ على البلادِ فجاءَهم
مِن مصرَ تركيٌّ يجودُ بنفسهِ
بالشام أهلكهم وبدَّدَ شملهم
ولكلِّ شيءٍ آفةٌ من جنسهِ (١)

ولقد خاف الناس على دينهم الحنيف ، كما خافوا على أعراضهم وأموالهم ، لذلك نرى احد الشعراء ينوه بذكر المظفر قُطز الذي دحر بقوته وعزيمته الكفر في بلاد الشام، فهم معتزون به، ذاكرون جميل أفعاله وواسع أفضاله، وقد وجب عليهم شكره كواجب الفرائض التي سنها الله على عباده (٢) :

هلكَ الكفر في الشآم جميعاً
واستجدَّ الإسلام بعد دحوضه
بالمليكِ المظفرِ الملكِ الأر
وع سيف الإسلام عند نهوضه
ملك جاءنا بعزمٍ وحزمٍ
فاعتززنا بسمرهِ وبيضه
أوجبَ الله شكرَ ذاكَ علينا
دائماً مثلَ واجباتِ فروضه

وكان للملك المنصور محمد نصيب من مدح الشعراء، وتهنئته، وتمجيد بطولته ، وابراز مهارته وجدارته في ردّ الخصم اللدود الذي أراد أن يذلّ الناس في الشام، وينعم بخيراتها، ويمرح في حقولها ومزارعها. فها هو ذا الصاحب شرف الدين الأنصاري (ت ٦٦٢) ينظم قصيدة طويلة في مدح هذا الملك

---

(١) ذيل الروضتين ص ٢٠٨ .
(٢) المختصر في أخبار البشر ٣:٢٠٦.

وتهنئته بالظفر مع الملك المظفر قُطز على التتر في معركة عين جالوت، مطلعها(١):

لكَ في الندى، وردَى ذوي الإشراكِ
شيمٌ تفوق بها على الأملاكِ

ويسمى الشاعر اليوم الذي انتصر فيه الجيش الشامي مع الجيش المصري على العدو الباغي بـ « يوم العروبة » للدلالة على أثر التضامن العربي في ردّ عادية الخصم مهما أوتي من قوة وجبروت :

ووقفتَ في يومِ العروبةِ موقفاً
أوسعتَ فيه الفتكَ بالفُتّاكِ

ويتناول بعدها وصف الموقف البطولي ، والحماسة الفائقة التي تحلّى بها الملك المنصور ، والروح المعنوية القوية التي اتصف بها ، والقدرة العظيمة في تقييد التتر ، وايقاعهم في شركٍ لافرار منه :

قيّدتَ أبطالَ التتارِ بصولةٍ
تركتهم كالصيدِ في الأشراكِ
وأطرتَ منهم هامَ كلِّ مدجّجٍ
لله كلُّ مُوحّدٍ سفّاكِ !

ويذكر الشاعر الإطمئنان النفسي الذي وفّره الملك المنصور للناس أجمعين ، وبخاصة النساء اللواتي كن يخشين من جور العدو وغدره ، وكذلك ينوه بالجو الأمين الذي هيأه للنساك والعباد بعد هزيمة المعاندين الأفاكين من ديار الشام :

فلقد أنمتَ المُحصَناتِ أوامناً
ولقد أقمتَ شعائرَ النّساكِ
سلّمتَ مهجةَ كلِّ برٍّ مُسلمٍ
وهزَمْتَ كلَّ معاندٍ أفّاكِ

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصارى ٥٥٦.

وكان للظاهر بيبرس (ت ٦٧٦هـ) بعد المظفر قطز اليد الطولى في حرب التتر واخراجهم من ديار الشام ، فإنه تعقبهم ، وعبر نهر الفرات على رأس جيش كبير ، ولم يفلت من قبضته الا القليل ، وأسر منهم زهاء ستين مقاتلا وكان لهذا النصر رنة فرح في نفوس الشعراء ، أشادوا في قصائدهم التي نظموها في هذه المناسبة بهمة الظاهر بيبرس وجهوده المشكورة في حرب التتر ومقدرته الفائقة في ردهم على اعقابهم خاسرين ، فممن مجده واثنى عليه شهاب الدين الدين محمود (ت ٧٢٥هـ) كاتب الإنشاء في قصيدة طويلة ، اولها : (١)

سر حيثُ شئت لك المهيمنُ جارُ   واحكم فطوعُ مرادك الاقدارَ

ووصف صولة الجيش ، وقابليته القتالية ، ومقدرته النضالية في تعقب فلول جيوش التتر المنهزمة ، اختتمها بقوله :

فلأملأن الدهر فيكَ مدائحاً   تبقَى بقيتَ وتذهب الأعصارُ

وتحدّث محيي الدين ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ) عن الحقد الذي كان يغلي في صدر العدو ، وشموخ أنفه ، وغروره بعدم وجود قوة تقف بوجهه وتصدّه عن بلوغ مراده ، وما حسب أن المسلمين يستطيعون عبور الفرات وكأنهم سدّ من حديد (٢) :

تجمعَ جيشُ الشركِ من كلِّ فرقةٍ   وظَنّوا بأنا لانطيقُ لهم غلبا
وجاءوا إلى شاطي الفراتِ ومادروا   بأنَّ جيادَ الخيلِ تقطعُها وثبا
وجاءت جنودُ اللهِ في العددِ التي   تميسُ لها الأبطال يوَم الوغى عجبا
فعمنا بسدٍ من حديد سباحةً   اليهم ، فما اسطاعَ العدوُّ له نَقْبا

وقد رافق الشاعر بدرالدين يوسف (ت ٦٨٠هـ) الجيش المصري ، وشاهد بنفسه عبور الفرات ، والمعركة التي دارت بين الطرفين ، فوصفها بقصيدة مطلعها : (٣)

---

(١) النجوم الزاهرة ٧ : ١٥٩.
(٢) فوات الوفيات ١ : ٢٣٨.
(٣) فوات الوفيات ١ : ٢٣٩.

لو عاينتْ عيناكَ يومَ نزالنا والخيلُ تطفحُ في الفجاجِ الأكدرِ

ويذكر بعد هذا الاستهلاك جيش الظاهر بيبرس ، وكيف عبر فرسانه تيار الماء المتدفق ، وكأنه قطعه متماسكة من الحديد الصلب ، يلتصق أبطاله بعضهم ببعض ، وبالغ ، فقال إن قوتهم قادرة ان توقف سيل الماء الجاري ، ويذكر أن جنود العدو حاولوا الفرار والإفلات ، ولكن السهام التي اطلقت عليهم قيدتهم وجعلت دماءهم تجري من كثرتها كالأنهار :

فتسابقوا هرباً ، ولكن ردهم دونَ الهزيمةِ رمحُ كلِّ غضنفرِ

وجرت دماؤهُم على وجهِ الثرى حتى جرتْ منها مجاري الأنهرِ

وذكر موفق الدين عبدالله بن عمر (ت ٦٧٧هـ) الشوق المضطرم في نفوس الجند إلى لقاء العدو الغادر وحبه في الانقضاض على الخصم اللدود الذي داس الديار الإسلامية وعاث فيها فساداً ، ولم يجد وسيلة يطفيء بها نيران غضبه غير اقتحام الماء (١) :

اقتحمَ الماءَ ليطفي بـــه حرارةَ القلبِ من المغـــلِ(٢)

ويذكر التاريخ للظاهر بيبرس معركة حامية أخرى جرت عند صحراء أبلُسْتَين (٣) ، فإن جيش التتر جمع شمله ، واعدّ عدته ، وقرّر أن يضرب الجيش العربي ضربة قاصمة يستردّ فيها اعتباره الذي فقده في معاركه السابقة ولكن الظاهر بيبرس لم يركن إلى نشوة النصر ، بل أخذ أهبته ، واستعد للقاء أيّ هجوم مباغت يأتيه من الخصم العنيد الذي لم يعلم أنه سيلقى مصرعه الأخير يقول ابن تغري بردي : « فأمر الملك الظاهر جماعةً من أصحابه الشجعان بإردافها ، ثم حمل هو بنفسه — رحمه الله — فلما رأته العساكر حملت نحوه برمتها حملة رجل واحد ، فترجّل التتار عن خيولهم ، وقاتلوا قتال الموت ، فلم يُغنِ عنهم ذلك شيئا ، وصبر لهم الملك الظاهر وعسكره ، وهو

---

(١) فوات الوفيات ١ : ٢٣٩ .

(٢) المغل : التتر .

(٣) مدينة مشهورة ببلاد الروم (معجم البلدان ١ : ٧٥) .

يكرُّ في القوم كالأسد الضارى ، ويقتحم الأهوال بنفسه ، ويُشجّع أصحابه ويزيّن لهم الموت في سوح الجهاد إلى ان أنزل الله تعالى نصره عليه ، وانكسر التتار أقبح كسرة وقُتلوا وأسروا وفرَّ من نجا منهم فاعتصموا بالجبال »(١) ونظم الشعراء في هذه الوقعة عدة قصائد، منها قصيدة شهاب الدين محمود أولها : (٢)

كذا فلتكن في الله تمضي العزائمُ ... وإلاّ فلا تجفو الجفونُ الصوارمُ
عزائمُ حاذَتها الرياحُ فأصبحتْ ... مخلّفةً تبكي عليهـا الغمائمُ
سرتْ مِن حمى مصر إلى الروم فاحتوت ... عليه وسُوراه الظُّبا واللهاذمُ
كتائبُ كالبحرِ الخضمِّ جيادُها ... اذا ماتهادَى موجُهُ المتلاطـمُ
مليكٌ بـه للدين في كل ساعةٍ ... بشائرُ للكفّارِ منها مآتـمُ
غدا ظاهراً بالظاهر النصر فيهم ... تبيد الليالي والعدا ، وهو دائمُ
فأهووا إلى لثمِ الأسنّةِ في الوغى ... كأنّهم العشّاق ، وهي المباسمُ
وصافحت البيضَ الصفاح رقابهم ... وعانقت السُّمرَ القدودُ النواعمُ
فكم حاكم منهم على الف دارعٍ ... غدا خاسراً والرمح في فيه حاكمُ
وكم ملكٍ منهم رأى وهو موثقٌ ... خزائنَ ما يحويهِ ، وهي غنائمُ

لقد أشادت القصيدة بمقدرة الظاهر بيبرس العظيمة في مقارعة الخصم، وهمته الكبيرة ،وتفننه في إيقاع العدو في شباكه التي لامفر منها ،وأشارت إلى حزمه في صيانة الدين الذي أريد به سوءاً ،ووصفت كثافة جيشه، ومعنويته العالية في المجابهة والمجالدة ،وضرباته القاصمة التي ألهبت ظهور العدو. وقد وفق الشاعر في التصوير والتشبيه ،خاصة في صورة تساقط العدو على لثم الأسنة كالعشاق ،ومصافحة السيوف الرقاب ، ومعانقة الرماح للقدود النواعم؛ إذ أنها جسدت موقف الاستسلام السريع من غير مقاومة أو مناجزة .

ان جهود الظاهر بيبرس في حرب التتر وازاحتهم عن مواقع كثيرة في ديار الشام ،حركت قرائح عدد من الشعراء في تمجيد بطولاته ، وتسجيل خطواته

(١) النجوم الزاهرة ٧ : ١٦٨.
(٢) النجوم الزاهرة ٧ : ١٧٠.

الموفقة منهم جمال‌الدين ابن الخشاب ،حيث يقول في قصيدة له (١) .

قصدَ الملوكُ حماكَ والخلفاء فافخر ، فإنَّ محلك الجوزاء
ملك تزينت الممالكُ باسمهِ وتجملت بمديحه الفصحاء
كم للفرنج وللتتـارِ ببابهِ رسلٌ مناهـا العفو والإعفاء
وطريقه لبـلادهم موطوءة وطريقهم لبـلادهم عذراء
دامتْ له الدنيا ودامَ مخلداً ماقبلَ الاصباحُ والإمساء

إن شعر التهنئة ،واظهار الفرح بالنصر، وتمجيد البطولة في حرب التتر لانجده إلاّ على ألسنة شعراء الشام ومصر، وعلة ذلك – في رأيي – الانتصارات الباهرة التي حققها ملوك دمشق والقاهرة ،والأمل الكبير الذي بعثوه في قلوب الناس بعد دحر جيوش الغزاة وأبعادهم عن الأماكن التي سيطروا عليها لفترة وجيزة .وعدم اهتزاز الشعراء العراقيين بأحداث الشام ، وهزيمة التتر كان‌سببه النكبة الرهيبة التي وقعوا تحت كاهلها ،والبلية الكبرى التي أفقدت صوابهم وزعزت قلوبهم .

إن الشعر الذي نظم ضئيل إذا ماقيس بحجم الأحداث التي رافقت الزحف التتري ، فهل هذا يعني أن ساحة الأدب خلت من الشعراء الذين كنا نجدهم ، وبأعداد كبيرة في النائبات والكوارث ، أو أنهم كانوا موجودين ، ولكنهم بهتوا وعقل لسانهم من هول الصدمة ؟ الذي أراه هو عدم توفر الأجواء المناسبة التي تشجّع الشعراء على نظم قصائدهم والتوجّه بها إلى حكامهم ؛ بسبب انشغال هؤلاء الحكام بالحروب من جهة ، وبالمشكلات الداخلية من جهة أخرى ، وعدم إقبالهم على سماع الشعر لضعف ذوقهم الأدبي كما نجد عند صلاح الدين الأيوبي وأمثاله ممن تذوقوا الشعر ، وشجعوا على قوله ، وأكرموا قائليه . يضاف إلى ذلك أن كثيراً من الشعراء لم يكونوا من الذين يمتلكون الموهبة الأدبية العالية ، والقريحة المعطاء ، والاداة اللغوية للتوجه إلى فنون

---

(١) خطط المقريزى ٤: ٥٩ .

الشعرجميعاً ، واذا ما أقحموا في موضوعات لاعهد لهم بها — كما رأينا — كانوا ضعفاء لايقوى نتاجهم على الوقوف أمام ما أنتجته قرائح الشعراء القدماء.

تأمل قول أحدهم في الظاهر بيبرس : (١)

كسرتَ الطغاة ، جبرتَ العفاة
قطعتَ الفرات ، وصلتَ الخلافه

هل تجد غير عبارات تتابعت لتملأ فراغ البيت ؟ وهل تجد غير المقابلة المصطنعة التي أثقلت البيت قبحاً ؟ وتأمل قول الآخر : (٢)

أوجبَ الله شكرَ ذاكَ علينا
دائماً مثلَ واجباتِ فروضه

في جو المديح يحشو الشاعر مصطلحات أهل الفقه ، فلا يرى أمامه إلاّ الواجبات والفروض في دعوة الناس لتقديم شكرهم للممدوح .

وانظر إلى قول الشيخ شرف الدين الأنصاري الذي قال عنه الصفدي : (٣) « لا أعرف في شعراء الشام بعد الخمسمائة وقبلها من نظم أحسن من شرف الدين ، وما رأيت له شيئاً إلاّ وعلقته لما فيه من النكت والتوريات الفائقة، والقوافي المتمكنة ، والتركيب العذب ، واللفظ الفصيح ، والمعنى البليغ » :

رعتَ العدا فضمنتَ ثلَّ عروشها
ولقيتها ، فأخذتَ فلَّ جيوشِها
للهِ درُّ كتيبةٍ ملمومةٍ
تبغيكَ حين حملتَ من جاليشها (٤)

---

(١) تاريخ ابن أياس ١ : ١٣ .

(٢) المختصر في أخبار البشر ٣ : ٢٠٦ .

(٣) فوات الوفيات ٢ : ٣٥٥ .

(٤) جاليش : لم تورد معاجم اللغة هذه الكلمة ، وقد عرفت في هذا العصر ، وهي الراية العظيمة في رأسها خصلة من الشعر ، وكان المماليك يطلقونها على الطلبعة من الجيش ، وقد استعملها في ذات المعنى هذا (انظر صبح الأعشى ٤ : ٨ والنجوم الزاهرة ٧ : ١٠١) .

جنّبتها نغمَ القيانِ معوِّضاً
بتردُّدِ الأصواتِ من شاويشها
نازلتَ أملاكَ التتارِ فأنزلَتْ
عن فحلها قسراً أوعن إكديشها
دارتْ رَحَى الحربِ الزبونِ عليهمُ
فغدتْ رؤوسهمُ حطامَ جريشها (١)

القصيدة طويلة ، كلها على هذا النسق ،فهل الكلمات: جاليش، وشاويش ، وإكديش، وجريش شاعرية ؟ وهل هي ألفاظ بليغة كما ذكر الصفدي ؟ لاأعتقد ذلك ، فإن رسالة الأدب ترفض أن تضمّ هذه الكلمات إلى عالمها ، وتأبى أن تقرنه إلى شعرها الحماسي الأصيل .

ان الشواهد الشعرية على الركة والضعف كثيرة ،ويكفينا أن نورد هذا البيت (٢):

كم قد فلقنا صخرةً من صخرةٍ ولكم ملأنا محجراً من محجرِ

إن اتساع الخلف بين لغة الحديث ولغة النظم بتأثير الأزدواج اللغوي ، وضحالة ثقافة الشاعر ، وعدم امتلاكه الأداة اللغوية امتلاكاً كاملاً وجنوحه إلى المنطق العقلي بدلا من الفيض العاطفي ، كل ذلك أبعد الشعر عن خصائصه المعروفة ،وأدى إلى انحرافه عن وضعه الطبيعي،وعن وظيفته، أو مهمته الأصلية . ولعل هذا ايضاً يعود الى ضعف الحياة كلها الذي أدى الى ضعف الشعور، وتدهور القيم ، وانحطاط المفاهيم وانتهت هذه الصور من الضعف إلى عجز في التعبير عن التجارب عجزاً أخل بالقصيدة ، وأبعدها عن حرارة العواطف قوة المشاعر وشيء آخر لابد من ذكره أن أغلب الشعراء في هذا العصر كانوا من الكتاب والنحاة واللغويين ممن ليس لهم عدة في الشعر غير الاقتدار على إقامة الوزن وعرض القضايا العقلية فيه (٣)

---

(١) ديوان الصاحب شرف الدين الأنصارى ص ٢٧٠ .
(٢) فوات الوفيات ١:٢٣٩ .
(٣) ينظر كتاب ابن سناه الملك ومشكلة العقم والابتكار في ص ٤٧.

أثر النثر :

سقطت بغداد على يد هولاكو وجيشه الزاحف من الشرق سنة ٦٥٦ للهجرة وخيم بجناحيه المرعبين على أغلب مناطق العراق ، ونال مبتغاه من الجاه والثروة وبعدها مدّ بصره إلى بلاد الشام ومصر ،وطمع فيهما ، فأرسل إلى صاحب الشام الملك الناصر يوسف (ت ٦٥٩هـ) رسالة يتهدده فيها ، ويطلب منه أن يسلم الشام بالأمان ، وإلاّ فأن مصيره كمصير الخليفة المستعصم بالله ورجال دولته. والرسالة — في جملتها — رصينة الأسلوب ، محكمة البناء ، سديدة العبارات فمن كتب هذه الرسالة ياترى وهولاكو لايعرف من العربية شيئاً ؟ لانجد لذلك جواباً ، فأن المصادر سكتت عنها سكوتاً مطبقاً . ويبدو لنا أن الذي كتبها كان مكرهاً ؛ لأنّ فيها تحذيراً بصورة غير مباشرة لأهل الشام من من غدر هولاكو وشره . ولا بأس أن أنقل جزءاً منها ليقف القارىء على حقيقتها ، ويتدبر معانيها،ويعرف مضمونها . تقول الرسالة على لسان هولاكو «...انا نحن قد فتحنا بغداد بسيف الله تعالى ، وقتلنا فرسانها ، وهدّمنا بنيانها وأسرنا سكانها ، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : قالت ان الملوك اذا دخلوا قرية أفسدوها وجعلوا أعزَّة أهلها أذلّة ، وكذلك يفعلون (٢) . واستحضرنا خليفتها ، وسألناه عن كلمات ، فكذب ، فواقعه الندم ، استوجب منا العدم . وكان قد جمع ذخائر نفيسة،وكانت نفسه خسيسة،فجمع المال،ولم يعبأ بالرجال . وكان قد نما ذكره ، وعظم قدره ، ونحن نعوذ بالله من من التمام والكمال :

اذا تـمَّ أمـرً دنـا نـقـصـه
تـوقَّ زوالاً اذا قـيـل : تـم
اذا كـنـتَ في نـعـمـةٍ فـارعـهـا
فـأنَّ المـعـاصـي تُـزيـل النـعـم

---

(١) سورة النمل ، الآية ٣٤ .

وكم من فتىً باتَ في نعمةٍ
فلم يدرِ بالموتِ حتى هجم

اذا وقفت على كتابي هذا فسارع برجالك وأموالك وفرسانك الى طاعة سلطان الأرض ... تأمن شره ، وتنل خيره ، كما قال الله تعالى في كتابه العزيز : وأن ليس للإنسان إلاّ ما سعى ، وأن سعيَه سوف يُرى ثم يجزاه الجزاء الأوفى (١) . ولا تعوّق رسلنا عندك ...

أينَ النجاةُ ولا مناصَ لهاربٍ
ولي البسيطان : الثرى والماء
ذلّتْ لهيبتنا الأسود وأصبحتْ
في قبضتي الأمراء والوزراء (٢)

إن كاتب الرسالة — على ما يبدو — كان على منزلة كبيرة من العلم والأدب فانه عني بالأسلوب الشائع آنذاك ، الذي يعتمد السجع والمقابلة ، ومزاوجة الألفاظ ، وتوشية الكلام بالآيات القرآنية ، والأبيات الشعرية . ويبدو لنا أن هولاكو لم يقف على مضمون الرسالة ، أو لم يعرف ما وراء الكلمات من معانٍ خفيّة ، فتراه ينعت نفسه بالمفسد والمهلِك . والأبيات الشعرية فيها أسلوبَ التحذير وأخذ الحيطة والحذر وتوقي زوال النعمة .

وفي قوله : «فسارع برجالك وأموالك وفرسانك» ، تنبيه ، وكأنما يريد أن يقول كاتبها للملك الناصر يوسف : خذ أهبتك لملاقاة علو غاشم ، وتهيأ لردّ عاتٍ آتيك لا محاولة . واستشهد بقوله تعالى: «وأن ليس للإنسان إلاّماسعى» .

انهارت عزيمة الملك الناصر يوسف ، وارتعشت فرائصه ، وأخذ الخوف منه مأخذاً ، ولم يستطع أن يجابه هولاكو ، فوقعت الشام فريسة سهلة بين فكيه ، وقتل الآلاف المؤلفة ، وقبض على الملك الناصر يوسف وأخيه الملك الظاهر غازي ، وجمع غفير من أتباعهما ، وأمر بضرب أعناقهم .

---

(١) سورة النجم ، الآية ٣٩.
(٢) السلوك ١: ٤١٥.

استأسد هولاكو ، وظن أنه لن يلقى من يصرعه في حلبة الديار الاسلامية ، وأخذه الغرور ، فأرسل رسالة – وهي في رأينا كتبت بنفس القلم الذي كتبت به الرسالة السابقة – الى صاحب مصر المظفر قُطز (ت٦٥٨هـ) . ونحن نسوق جزءاً منها ليقف القارىء على طبيعة التتر آنذاك وأثره في النفوس ، يقول هولاكو : «... إنا نحن جند الله في أرضه ، خلقنا من سخطه ، وسلطنا على من حلّ به غضبه ، فلكم بجميع البلاد معتبر ، وعن عزمنا مزدجر ، فاتعظوا بغيركم ، وسلموا الينا أمركم قبل أن يكشف الغطاء ، فتندموا ويعود عليكم الخطاء . فنحن ما نرحم من بكى ، ولا نرق لمن شكا . وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد ، وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا بالطلب ... فابشروا بالمذلّة والهوان ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون (١) . وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون . (٢) ... فلكم ما لنا ، وعليكم ما علينا . وإن خالفتم هلكتم ، فلا تهلكوا نفوسكم بأيديكم ، فقد حذر من أنذر . وقد ثبت عندكم أن نحن الكفرة ، وقد ثبت عندنا أنكم الفجرة ... فقد أنصفناكم إذ راسلناكم ، وأيقظناكم إذ حذّرناكم . فما بقي لنا مقصد سواكم ، والسلام علينا وعليكم » (٣) .

ألا يرى القارىء في هذه الرسالة أن كاتبها يكره التتر ، ويبطن لهم الحقد ، ويضمر لهم الشرّ . وإلاّ كيف تفسر قول هولاكو عن نفسه : «خلقنا من سخطه » و«نحن الكفرة»، ثم الاستشهاد بالآيات التي تظهر عواقب الظالمين؟ الذي نراه أن في الرسالة تنبيهاً واشعاراً للمظفر قُطز عن هول المصيبة التي تنتظره اذا لم يستيقظ ويأخذ الحيطة والحذر .

فلفظتا : أيقظناكم وحذرناكم الواردتان في الرسالة تبليغ للمظفر قطز بالتهيؤ لملاقاة هولاكو .

---

(١) سورة الانعام ، الآية ٩٣.
(٢) سورة الشعراء ، الآية ٢٢٧.
(٣) السلوك ١ : ٤٢٧ .

لقد أفادت هذه الرسالة المظفر قطز ، وجعلته يحسب حساب الخصم الذي ينوي الزحف على مصر ، فأنه مزّق الرسالة بعد قراءتها ، وقبض على حاملها ولم يتخاذل كما تخاذل الملك الناصر يوسف ، بل زادته قوة وعزيمة ، حيث نادى للجهاد ، وجمع الجموع ، وسار بنفسه للقاء التتر ، فاشتبك معهم في عين جالوت (١) ، وردّهم على أعقابهم خاسرين .

إن مقدار الأدب النثري الذي وصل الينا ضئيل ، وتعليل هذه الظاهرة - في رأينا - هو قلّة التأليف والتصنيف والجمع آنذاك مما أدى الى ضياع جزء كبير منه . وقد أشارت الكتب المتأخرة الى فن المقامة الذي راج الإقبال على كتابته وشيوعه بين الناس في أثناء الزحف التتري ، من ذلك مقامة ظهير الدين الكازروني (ت٦٩٧هـ) التي جاءت وصفاً دقيقاً للوقائع الدامية والمجازر الرهيبة التي انتابت بغداد بعد مقتل الخليفة ودخول الجيوش المتعطشة للدم والنهب بيوت الآمنين من الناس ، حيث هي «بلدة خالية ، وأمة جالية ، ودمنة حائلة ، ومحنة جاثمة ، وقصور خاوية ، وعراص باكية . قد رحل سكانها ، وبان عنها قطانها ، وتمزقوا في البلاد ، ونزلوا بكل واد » ويقول: «فوقفت أبكيها ، وأندب ربوعها ، ومن كان فيها :

وأندبُ أطلالها تارةً
وأبكي على فرقة الظاعنينا
فلو ذهبت مقلةٌ بالبكا
لفرطِ الغرامِ لكنا عمينا

وهناك شخص قد بصر بحالي ، وهو يذري دمعه لسماع حالي . . . فرأيت حرم الخلافة مهاناً ، بعد أن كان كعبة وأماناً. (٢) وهذه المقامة - وإن كانت تنساق في طريقة الحريري المليئة بألوان الزخارف اللفظية والمعنوية -

---

(١) عين جالوت : بليدة بين بيسان ونابلس من أعمال فلسطين (معجم البلدان ٤ : ١٧٧).

(٢) مقالة في قواعد بغداد ص ١٥ وينظر الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد ص ١٧٨.

تتسم بوضوح القصد وصدقه وقوة التعبير وتأثيره . وهذا ما نلاحظه أيضاً في مقامة الشيخ جمال الدين عمر بن ابراهيم بن الحسين الرسعني التي ذكر فيها هجوم التتر المروع على مدن الشام ، وبخاصة حلب التي كثر فيها القتل والسلب والتخريب والنهب، منها :« . . . هذا وقد نزلت فنون البلاء بالشام ، وهملت عيون العناء كالغمام . . . وخفيت آثار المآثر ودرست ، وطفئت أنوار المنابر وطمست ، وحلبت العيون ماءها على حلب ، وسكبت الجفون دماءها من الصبب ، والتفَّ عليها الخنل والاختلال، واحتفَّ بها القتل والوبال ، واختطف من أعيانها عرائس الشموس والأقمار، واقتطفت من أغصانها نفائس النفوس والأعمار، فستر سفور السرور، ونشر ستور الشرور ، وتخربت الدور والقصور ، ونحرت الحور في النحور، وجرت عيونها على أعيانها، وهمت جفونها على شبابها . . . حتى بكى على الوجود الجلمد ، وشكا إلى المعبود السرمد . . .» (١) .

ويجب ان لا نغفل دور شيخ الاسلام تقي الدين أبي العباس أحمد ابن تيميّة (ت ٧٢٨هـ) في محاربة التتر الذين أغاروا على الشام مرة ثانية في أواخر القرن السابع للهجرة بقيادة غازان بن أرغون، وعاثوا في الارض فساداً ، وقتلوا بنواحي دمشق نحو أربعمئة شخص ، وأسروا نحو أربعة آلاف شخص، وهرب كثير من الشامين إلى مصر والكرك والحصون المنيعة . لقد نهض ابن تيمية، وحثَّ الناس على الثبات والصمود، ونهاهم عن القرار ، وحضّهم على الجهاد ، وكتب رسالة إلى السلطان الناصر محمد بن قلاوون (ت ٦٨٩هـ) أحد سلاطين المماليك في مصر، دعاه فيها إلى مؤازرة الشامين ومعاضدتهم في مجابهة التتر. ثم سافر بنفسه إلى مصر، وقد استجاب السلطان لدعوته ، وساق الجيوش إلى الشام، ووقعت معركة حامية بين الطرفين في سهل حوران ، شارك فيها ابن تيمية ومن رافقه من العلماء، انهزم فيها التتر.

---

(١) تتمة المختصر في أخبار البشر ٢ :٣٠٨.

وقد ذكر ابن تيمية في رسالته فريضة الجهاد، فقال : «إن الله فرض على المسلمين الجهاد بالأموال والأنفس ، والجهاد واجب على كلّ مسلم قادر ومن لم يقدر أن يجاهد بنفسه فعليه أن يجاهد بماله إن كان له مال يتسع لذلك . . . فمن ترك الجهاد عذّبه الله عذاباً أليماً بالذلّ وغيره ، ونزع الأمر منه فأعطاه لغيره، فان هذا الدين لمن ذبّ عنه»(١) ،وأشار إلى إقدام الكثيرين على المشاركة في هذا الجهاد، وبذل المهج والأرواح ، فقال :«والقلوب الساعة محترقة لنصر الله ورسوله على القوم المفسدين، حتى إن بالموصل والجزيرة وجبال الأكراد خلقاً عظيماً مستعدين للجهاد، مرتقبين العساكر ، سواء تحرك العدو أو لم يتحرك»(٢) . وبين ابن تيمية ما في حركة الجيش الإسلامي وتقدمه من فوائد جمّة، حصرها في أربع، هي :

١ ـ طمأنينة قلوب أهل البلاد حتى يعمروا ويزدرعوا ، وإلاّ فما دامت القلوب خائفة فلا يستقيم الحال .

٢ ـ إن البلاد الشمالية ونحوها فيها خير كثير ، ورزق عظيم، ينتفع به العسكر .

٣ ـ إنه يقوي قلوب المسلمين في تلك البلاد من الأعوان والنصحاء ، ويزداد العدو رعباً، وإن لم تحصل حركة قرّت القلوب ، وربما انقلب قوم فصاروا مع العدو؛ فإن الناس مع القائم . ولما جاء العسكر إلى الشام كان فيه مصلحة عظيمة، ولو تقدّم بعضهم إلى الثغر كان في غاية الجودة .

٤ ـ إنهم إن ساروا أو بعضهم ، حتى يأخذوا ما في بلد الجزيرة من الإقامات والأموال السلطانية ، من غير إيذاء المسلمين كان من أعظم الفوائد، وإن ساروا قاطنين متمكنين نزلت اليهم أمراء تلك البلاد من أهل الأمصار والجبال . . . فإن أغلب أهل البلاد قلوبهم مع المسلمين (٣) .

---

(١) رسالة إلى السلطان الملك الناصر في شأن التتار ص ١٤.

(٢) المصدر السابق ص ١٥ .

(٣) المصدر السابق ص ١٨.

بهذا الأسلوب السهل كتب ابن تيمية رسالته كي يفهمها الناصر محمد ابن قلاوون، وبالفعل حققت المطلب، وأثرت في نفسه، واستجاب لندائه. ولعل هناك رسائل أخرى عفى عليها الزمن ، أو أنها بين ركام المخطوطات المبعثرة في أنحاء المعمورة ، عسى الأيام تكشف عنها وتوقفنا على صور نثرية جديدة لعبت دوراً كبيراً في أحداث الزحف التتري .

قيمة الأدب التاريخية والاجتماعية :

يمكن أن يكون الأدب وثيقة مهمة، يقدّم مؤشرات لكثير من الأحداث والوقائع والقضايا التي لا نجد لها أحياناً ذكراً في كتب التاريخ والسير والتراجم.

وكما أن الأدب يستعين في تدوين تاريخه بالمصادر التأريخية ، فإن التاريخ يستند أحياناً إلى الوثائق الأدبية لاستكمال ما لم تستطع المصادر التأريخية استيفاءه أو ذكره ؛ وهذا يبدو أكثر وضوحاً في الأدب الذي يتصل بالخلفاء والأمراء والحكام، ويعاصر الوقائع ، ويصور النكبات، ويجلي النكسات ، ويسهم في الأحداث السياسية ، ويفصل في المسائل الاجتماعية بعيداً عن العواطف الذاتية، والمشاعر الخاصة . وأدبنا الذي تحدثنا عنه في الصفحات السابقة يمكن أن يوضع تحت هذا الباب.

ولا تقتصر وظيفة هذا الأدب على الجانب السياسي الذي نوهنا به ، وانما تتعدى هذه الوظيفة إلى الكشف عن العديد من الصور الاجتماعية التي حفل بها المجتمع ، كما رأينا في قصيدة مجد الدين النشابي حينما كانت الدولة العباسية تحتضر ، كما استطاع أدبنا هذا أن يقدّم الكثير من الصور التي كشفت حالة الرعب والهلع التي تلت غزو هولاكو، وكانت أحياناً تحمل من العواطف النبيلة ، والمشاعر الرقيقة التي عكستها تلك الصور مما يجعلها جديرة بأن تعوض عن كثير من الجوانب التي افتقدتها ، كالجوانب الفنية وأمثالها التي لا نجد لها أثراً واضحاً في هذا الادب.

لقد سار هذا الادب في بعض جوانبه موازياً للوثائق التاريخية التي أشرنا اليها ، بحيث نجد قيمته الانسانية تمنحه القدرة على أن لا يهبط كما هبط أدب كثير بعده، كما منحته هذه الوظيفة القدرة على أن يحتفظ بعنصر البقاء.

يضاف إلى ذلك أن مصادر التاريخ قد افتقرت إلى الجانب العاطفي في سردها للأحداث ، بينما استطاع هذا الأدب ان يخلق المشاركة الوجدانية بينه وبين القارىء كما رأينا ذلك في الشعر الذي عرضنا لنماذج منه، وبخاصة في شعر شمس الدين محمود الكوفي . واسماعيل بن أبي اليسر، وكمال الدين ابن العديم، وسعدي الشيرازي ، وعلاء الدين الأوتاري . . . ذلك الشعر الذي صور هتك الأعراض، وسبي النساء، وقتل الأولاد، وحرق البيوت ، ونهب الأموال وأمثالها . . . مما يجعل لهذا الشعر قيمة انسانية حفظت له حياته، وضمنت له بقاءه في المراجع التاريخية والأدبية.

المصادر والمراجع

١ ـ اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء : محمد بن راغب الطباخ ، ت ١٣٧٠ هـ. المط العلمية ـ حلب ١٩٢٤ .

٢ ـ تاريخ الشعر العربي : محمد عبدالعزيز الكفراوي . مط نهضة مصر ـ القاهرة ١٩٦٧ .

٣ ـ تاريخ مصر : ابن إياس ، ت ٩٣٠هـ. المط الكبرى ببولاق ـ مصر ١٣١١ هـ .

٤ ـ تتمة المختصر في أخبار البشر : زين الديـــن عمر بن الوردي ، ٧٤٩ هـ. مط دار المعرفة ـ بيروت ١٩٧٠ .

٥ ـ الحوادث الجامعة والتجارب النافعة في المئة السابعة : عبدالرزاق ابن الفوطي . تح : د. مصطفى جواد . مط الفرات ـ بغداد ١٣٥

٦ ـ الخطط المقريزية : أحمد بن علي المعروف بالمقريزي ، ت ٨٤٥ هـ. مط النيل ـ مصر ١٣٢٤ هـ .

٧ ـ ذيل الروضتين : أبو شامة المقدسي ، ت ٦٦٥هـ ، مكتبة نشر الثقافة الإسلامية ـ القاهرة ١٩٤٧ .

٨ ـ ذيل مرآة الزمان : قطب الدين اليونيني ، ت ٧٢٦ هـ. مط مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ١٩٥٤ .

٩ ـ السلوك لمعرفة دول الملوك : المقريزي ، ت ٨٤٥ هـ. مط دار الكتب المصرية ـ القاهرة ١٩٣٤ .

١٠ ـ ابن سناء الملك ومشكلة العقم والابتكار في الشعر : د. عبدالعزيز الأهواني . مط دار الجبل ـ مصر ١٩٦٢ .

١١ ـ الشعر العربي في العراق من سقوط السلاجقة حتى سقوط بغداد : عبدالكريم توفيق العبود . دار الحرية للطباعة ـ بغداد ١٩٧٦ .

١٢ ـ عصر الانحدار : محمد أسعد طلس . مط دار الأندلس ـ بيروت ١٩٦٣ .

١٣ ـ الفخري في الآداب السلطانية : ابن الطقطقا ، ت٧٠٩هـ. مط دار صادر ـ بيررت ١٩٧٣ .

١٤ – فوات الوفيات : ابن شاكر الكتبي ، ت ٧٦٤ هـ. تح : د. احسان عباس . مط دار صادر – بيروت ١٩٧٣ .
١٥ – المختصر في أخبار البشر : عماد الدين اسماعيل أبو الفداء ، ت ٧٢٢هـ . المط الحسينية – القاهرة ١٣٢٥ هـ .
١٦ – مطالع البدور : علاء الدين علي بن عبدالله الغزولي ، ت ٨١٥ هـ . مط ادارة الوطن – القاهرة ١٢٩٩ هـ .
١٧ – معجم البلدان : ياقوت الحموي ، ت ٦٢٦ هـ. مط دار صادر – بيروت ١٩٥٧ .
١٨ – مقامة في قواعد بغداد : ظهير الدين الكازروني ، ت ٦٩٧ هـ. تح : كوركيس عواد وميخائيل عواد . مط الارشاد – بغداد ١٩٦٢ .
١٩ – النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي ، ت ٨٧٤ هـ . مط دار الكتب المصرية – القاهرة ١٩٣٦ .
٢٠ – نهاية الأرب : النويري ، ت ٧٣٣ هـ. مط دار الكتب المصرية – القاهرة ١٩٣٥ .
٢١ – الوطن في الأدب العربي : ابراهيم الأبياري . مط دار القلم – القاهرة ١٩٦٢ .

القواعد الثلاثون في علم العربية لشهاب الدين القرافي المتوفى سنة ٦٨٢ هـ

حققه وقدم له

طه محسن

تقديم

من بين الرسائل السبع التي يشتمل عليها المخطوط الذي تحتفظ به المكتبة الوطنية في باريس تحت رقم (١٠٣١) رسالة بعنوان (القواعد الثلاثون في علم العربية) لشهاب الدين القرافي . وحينما نشرت في عام ١٩٧٦ الرسالة السادسة من المجموع في العدد السابع من مجلتنا (آداب الرافدين) (١) وعدت وقتذاك بنشر (القواعد) محققةً .

وها أنا ذا أوفي بالوعد ، فأطلع القارىء الكريم على واحد من آثار عالم فقيه ترك مصنفات في العربية ونحوها . مقدماً للنّص المحقق بدراسة موجزة للمؤلف وعرضٍ لقواعده .

— ١ —

المؤلف هو أحمد بن إدريس بن عبدالرحمن بن عبدالله بن يَلّين الصنهاجي البهفشيمي المصري . (٢) يكنى بأبي العباس ، ويلقب بشهاب الدين القَرافي ، نسبةً إلى (القَرافة) . وكانت محلة نزلتها القرافة — بطن من المعافر — فعرفت بهم (٣) . وقد شاركه في هذه الشهرة علماء ولغويون ومحدثون ومفسرون ، منهم : عبدالله بن محمد النحوي ، ومحمد بن أحمد الشافعي ومحمد بن إدريس القضاعي اللغوي ، وغيرهم (٤).

ولد في مصر سنة ست وعشرين وست مئة للهجرة ، (٥) في قرية تابعة

---

(١) وكانت بعنوان (الجمل التي لها محل من الاعراب والتي لا محل لها) للمرادي .

(٢) الديباج المذهب ص ٦٢ - ٦٦. والبهفشيمي ، نسبة إلى بهفشيم .
وتعرف بـ (بوش) كورة ومدينة بمصر من نواحي الصعيد الأدنى في غربي النيل معجم البلدان ٥٠٨/١ الوافي بالوفيات ٢٣٣/٦ .

(٣) معجم البلدان ٣١٧/٤.

(٤) يراجع : معجم المؤلفين ١٣٠/١٥ وسبب شهرته بالقرافي حادثة طريفة ذكرت في الوافي بالوفيات ٢٣٣/٦ والديباج المذهب ص ٦٦ .

(٥) العقد المنظوم ، للقرافي ص ٩١ (مخطوط) كشف الظنون ١١٥٣/٢ هدية العارفين ٩٩/١.

لكورة (بُوش) . وليس لدينا معلومات عن طفولته أو نشأته الاولى ، إذ لم يذكر المؤرخون أخباراً شافية عنه ، شأنه في ذلك شأن كثير من كبار علمائنا القدامى . وكذلك لم نجد في مصادرنا مايشير إلى أسرته . وربما تهيأ له في ابتداء نشأته في مسقط رأسه من يعلمه المباديء الأولى للعلوم الاسلامية ويلقنه شيئاً من آيات الذكر الحكيم (١)، حتى إذا ماشبَّ وجد في نفسه القابلية على التلقي عن كبار شيوخ عصره ، في المعاهد الشهيرة حينذاك . فرأيناه يتجه تلقاء القاهرة . وقد كانت تحت ظل المماليك البحرية الذين استطاعوا أن يردوا هجمات المغول عن الشام ومصر ، وينشئوا دولة ضمت إليها علماء الاقطار الاسلامية الذين رحلوا إليها تخلصا من هجمات المغول والصليبيين ، وشجعتهم على مواصلة الدرس والبحث بما فرضت لهم من رواتب هيأت لهم التفرغ للتأليف والقاء الدروس في المساجد والمدارس .

في هذ البيئة استقر القرافي وقضى حياته متنقلا في حلقات العلم والأدب . وكان يتردد على مدرسة الصاحب بن شكر قريبا من القرافة طالباً يجدُ في طلب العلم (٢)، وتهيأ له من شيوخ عصر من مهد السبيل له إلى التقدم في الفقه والأصول من أمثال : شرف الدين محمد بن عمران الحسيني (ت٦٦٨هـ). (٣) وأبي عمرو عثمان بن الحاجب (ت ٦٤٦هـ) ، (٤) وشمس الدين محمد بن إبراهيم المقلسي (٥)، وعزالدين بن عبدالسلام (٦)، الذي لازمه صاحبنا وأخذ عنه الكثير من علومه ، وأثنى عليه في مواضع كثيرة من تأليفه ثناءً حسنا يدلُ على أنَّ الشيخ قد ملك عليه قلبه بغزارة علمه ومتانة دينه وقوة شخصيته (٧) .

---

(١) الوافي بالوفيات ٢٣٤/٦.

(٢) الديباج المذهب ص ٦٣

(٣) المصدر نفسه ص ٣٣٢ .

(٤) ترجمته في وفيات الأعيان ٢٤٨/٣ . وكتاب ابن الحاجب النحوى ، لطارق عبد عون الجنابي

(٥) ترجمته في : ذيل مرآة الزمان ٢٧٩/٣ شذرات الذهب ٣٥٣/٥ .

(٦) ترجمته في : طبقات الشافعية الكبرى ، للسبكي ٢٠٩/٨ البداية والنهاية ٢٣٥/١٣ .

(٧) الفروق ، للقرافي ١٥٧/٢ و ٢٥١/٤.

أضحىَ القَرافي بعد طلبه الدائب للعلم واتصاله بشيوخ عصره إماما بارعاً في الفقه والأصول والعلوم العقلية ، وانتهت إليه رياسة الفقه على مذهب مالك (١). فتخرج عليه تلامذة أخذوا عنه في مدارس مصر الشهيرة وجوامعها. فأخذ عنه جماعة في المدرسة القُمحية (٢) ، وتصدر للتدريس بجامع مصر العتيق (٣)، واختير أول مدرس للمالكية في المدرسة الطيبرسية . (٤) وكانت المدرسة الصالحية آخر المعاهد التي شع منها علمه ، إذ بقي فيها مدرساً حتى وفاته عام اثنين وثمانين وست مئة للهجرة (٥) تاركاً لنا مصنفات قيمة نالت من الشهرة حظا وافراً ، فقد الف في العقائد والفقه والاصول واللغة والرياضيات والفلك ، وما زال أكثر كتبه مخطوطاً ، وما طبع منها قليل لايتجاوز أصابع اليدين عدداً ، ومنها :

١ ــ الأجوبة عن الأسئلة الواردة على خطب ابن نباته الفاروقي (ت٣٧٤هـ) . ذكر في الديباج المذهب ص ٦٥ .

٢ ــ الأجوبة الفاخرة عن الأسئلة الفاجرة ، طبع في مصر على حاشية كتاب (الفارق بين المخلوق والخالق) لعبد الرحمن أفندي باحه جي زاده .

٣ ــ الإحكام في تمييز الفتاوى عن الأحكام وتصرفات القاضي والامام ، طبع في حلب سنة ١٩٦٧ بتحقيق عبدالفتاح أبو غدة .

٤ ــ الاستبصار فيما يدرك بالأبصار . منه نسخة مخطوطة في مكتبة أسعد أفندي باستانبول برقم (١٢٧٠) .

٥ ــ الاستغناء في أحكام الاستثناء ، وأقوم الآن بتحقيه لنيل درجة الدكتوراه في جامعة القاهرة .

---

(١) الديباج المذهب ص ٦٣.

(٢) الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية ص ١٧٤.

(٣) الوافي بالوفيات ٢٣٣/٦.

(٤) الانتصار لواسطة عقد الامصار ٩٧/١.

(٥) الوافي بالوفيات ٢٣٣/٦ المنهل الصافي ٢١٦/١ . وفي الديباج المذهب ص ٦٦ أنه توفي سنة ٦٨٤ هـ ، والمحقق ماأثبتناه .

٦ — الأمنيّة في إدراك النيّة ، منه مخطوطة في دار الكتب بالقاهرة برقم (٣٦٩) فقه مالكي .

٧ — أنوار البروق في أنواء الفروق ، طبع في تونس سنة ١٣٠٢ هـ ، وفي مطبعة دار إحياء الكتب العربية سنة ١٣٤٤هـ بعنوان (الفروق) .

٨ — الخصائص في قواعد العربية ، منه مخطوطة في الجزائر برقم (١/١٠٠)

٩ — الذخيرة في الفقه ، طبع الجزء الأول منه في القاهرة سنة ١٩٦١ .

١٠ — شرح تنقيح الفصول في الاصول ، نشره في القاهرة سنة ١٩٧٣ طه عبد الرؤوف سعد .

١١ — العقد المنظوم في الخصوص والعموم ، منه مخطوطة في دار الكتب بالقاهرة رقمها (١ش) .

١٢ — القواعد الثلاثون في علم العربية . وهي الرسالة المحققة .

١٣ — نفائس الأصول في شرح (المحصول)، لفخر الدين الرازي (ت٦٠٦هـ). منه مخطوطة في دار الكتب بالقاهرة برقم (٤٧٢) أصول فقه

— ٢ —

صنّف القرافي كثيراً من كتبه على أساس القواعد والمسائل ؛ فكتاب (الإحكام في تمييز الفتاوي عن الأحكام) بناه على أربعين مسألة مع أجوبتها وكتاب (الاستبصار فيما يدرك بالأبصار) خمسون مسألة وكتاب (الأنوار والقواعد السنية في الأسرار الفقهية) يقوم على خمس مئة وثمانٍ وأربعين قاعدة . كما اختار ثلاثين قاعدة في العربية عدّها سَنيّة فضمنها هذه الرسالة .

وهذه القواعد تتعلق بمادة النحو العربي عـــدا الثالثة والثامنة والقاعدتين الأخيرتين ، فانه ذكر فيها مسائل صرفية تخص صياغة فعل الأمر وفعل التعجب وأفعل التفضيل وضبط صيغ مصدر المرة ومصدر الهيئة واسم المكان واسم الآلة وصيغ جموع القلة .

وليس في البحث إحالة إلى رأي مؤلفٍ ما ، بل نجد سرداً مباشراً للقواعد مع التمثيل والاستشهاد بالكلام الفصيح . ويأتي في مقدمة ذلك آيات الذكر

الحكيم ، إذ استشهد بها في ستة وعشرين موضعاً ، ويليها الشعر العربي القديم الذي بلغ ستة شواهد . واستشهد بحديث نبوي على جواز تعلق الجار والمجرور بعامل محذوف . ونراه يستأنس أحياناً بأبيات من الشعر التعليمي من غير أن ينسبها إلى قائلها ، كما فعل في القاعدتين الأخيرتين .

و(القواعد الثلاثون) مستقاه من موضوعات نحوية وصرفية متنوعة ، ليس بينها رابط أو موضوع مشترك يجمعها ، فهي أشتات لا يبدو في أختيارها منهج واضح . فالمؤلف يبدأ مثلاً بمتعلّق شبه الجملة ، ثم باختلاف إعراب الجمل وأشباه الجمل بعد النكرات والمعارف ، ويعقب ذلك بقاعدة اشتقاق الأمر ، ثم ينتقل إلى وجوب تقدم الخبر ، وبعد الى عود الضمير إلى متقدم عليه أو متأخر عنه ، ثم ينتقل إلى ذكر التعليق في قاعدة ، وفي التي تليها يشير إلى صياغة فعل التعجب ... وهكذا ينتقي لكل قاعدة جزءاً من موضوع يختلف عن الذي يليه غالباً .

وسمة أكثر القواعد الايجاز ، ويتضح ذلك أكثر في القاعدة الرابعة والخامسة والسادسة والثامنة والتاسعة ... وقد يدفع الايجاز المؤلف إلى الاستغناء عن الأمثلة كما في القاعدة الثانية والعشرين والثالثة والعشرين والرابعة والعشرين .

وبسبب هذا الايجاز فإن العبارة احتاجت إلى شيء من التفسير ، ككلام المؤلف على أنواع الحال باعتبار الزمان وباعتبار الذات في القاعدة السابعة عشرة ، وكقوله في القاعدة نفسها (ويجوز: ها منطلقاً ذا زيد ، على أحد الوجهين) وهو لم يذكر إلا وجهاً واحداً . لذلك تصديت لايضاح ما أبهم من العبارات مجانباً التطويل الممل .

إنَّ الرسالة ــ كما قدمت ــ تخلو من أسماء أئمة النحو العربي . وهي لاتتعرض للخلافات النحوية . ومع هذا أرى في آراء مؤلفها جنوحاً إلى المذهب البصري ، وقلما وافق الكوفيين في رأيهم . كما أن المطالع لايعدم رأياً جديداً أو مصطلحاً انفردت بذكرة الرسالة .

فالمؤلف يتفق والبصريين في مسائل منها :

ـ أنّ فعل التعجب وأفعل التفضيل لا يبنيان من لون ولا من عيب (١) .

ـ وأنّ الأصل في الاعراب الأسماء ، والكوفيون يرون أنّ الاعراب أصل في الأفعال كما أنه أصل في الأسماء (٢) .

ـ وأنّ فعل الأمر للمخاطب مبنيّ على السكون، والكوفيون يرون أنّه مجزوم بلام الأمر المقدرة (٣) .

ـ ويوافقهم على أنّ المستثنى في نحو : قادم القوم إلا زيداً، والمفعول معه في نحو : قمت وزيداً منصوبان بالفعل الذي قبلهما بتوسط « إلا » والواو .

ـ وجوز تقديم الحال على عاملها إذا كان فعلاً، نحو : ضاحكاً جاء زيد (٥)

ـ وذهب مذهبهم في أنّ اسم « لا » في نحو : لا رجلَ أفضل منك، مبنيّ (٦) .

ـ ووافقهم على عدم جواز إعمال اسم الفاعل في الماضي ، فلا يجوز عنده : زيد ضاربٌ عمراً أمس، بالنصب، خلافاً للكسائي من الكوفيين (٧) .

أما الكوفيون فقد وافقهم على بناء ظروف الزمان المضافة إلى فعل مضارع ، كقوله تعالى (هذا يومَ لا ينطقون) (٨) ، وأوجب البصريون هنا الاعراب (٩) .

---

(١) القاعدة (٨) ويقارن بالانصاف ١٤٨/١ ، المسألة (١٦).
(٢) القاعدة (١٠) ويقارن بتوضيح المقاصد ٥٦/١ شرح ابن عقيل ٣٧/١.
(٣) القاعدة (١٠) ويقارن بتوضيح المقاصد ٥٩/١.
(٤) القاعدة (١١) ويقارن بالا نصاف ٢٤٨/١ المسألة (٣٠) و ٢٦٠/١ المسألة (٣٤).
(٥) القاعدة (١٧) ويقارن بالانصاف ٢٥٠/١ ، المسألة (٣١).
(٦) القاعدة (١٠) ويقارن بالا نصاف ٣٦٦/١ ،المسألة (٥٣).
(٧) القاعدة (٢٠) ويقارن بشرح ابن عقيل ١٠٦/٢ .
(٨) المرسلات ٣٥/٧٧ ، والقاعدة (١٠).
(٩) البحر المحيط ٤٠٧/٨ ، وشرح ابن عقيل ٦٠/٢.

وخالف سيبويه من البصريين في منعه الجمع بين التمييز والمميز، فأجاز الجمع بينهما في نحو : نعم الرفيق رفيقاً زيد (١) .

ووافق المبرد والفارسي على اسناد (نعم وبئس) إلى (الذي) . ومنع ذلك الكوفيون وابن السراج وأبو عمر الجرمي ؛ لأنه لم يرد به سماع (٢) .

وصرح بأنّ الاسم المعرب مثل (غلام) إذا أضيف إلى ياء المتكلم يكون مبنياً (٣) . وهو رأي انفرد به ولم أقف على من قال به قبله .

كما انفرَد بالقول إنّ (حيث) تضاف إلى الجمل دون بقية الظروف (٤) . وليس هذا بصحيح؛ لأن كثيراً من الظروف تضاف إلى الجمل مثلها (٥) .

وهو يرى أن (غير وسوى والجهات الست) تجب إضافتها وهي لا تعرف باللام (٦) . والأمر صحيح فيما يخص (غير وسوى) أما الجهات الست ما عدا (فوق وتحت) فيجوز تعريفها باللام لأنها من الظروف المتصرفة . ومن ذلك قوله تعالى : (عن اليمين وعن الشمال قعيد) (٧) .

وفي الرسالة تعليلات قليلة، منها ما ورد في حديث المؤلف عن « كم » إذ يقول : (ومتى كانت خبرية خفضت مميزها ، نحو: كم مال أفادته يدي ؛ لأن الافتخار إنما يكون بالتكاثر، ومميزُ العددِ الكثيرِ مخفوض، نحو : ألف درهم ومئة دينار) (٨) . وهذه العلة غير مطردة ؛ لأن تمييز الأعداد المفردة من (٣ ــ ١٠) يكون مخفوضاً وهي ليست دالّة على الكثرة .

أما المصطلح الذي استعمله المؤلف، فهو في غالبه بصري معروف في عصره أو قبله، ونجده يستعمل مصطلحات لم نعهدها عند غيره ، كمصطلح

---

(١) القاعدة (٢٥) وشرح ابن عقيل ١٦٣/٢ .
(٢) القاعدة (٢٥) ويقارن بتوضيح المقاصد ٨٥/١.
(٣) القاعدة (١٠) .
(٤) القاعدة (١٠).
(٥) شرح ابن عقيل ٥٧/٢.
(٦) القاعدة (١٩).
(٧) المعارج ٣٧/٧٠.
(٨) القاعدة (١٤).

(المنطوق) للفعل الذي يذكر في الجملة ، وهو الذي يقابل (المحذوف) في بنحو تقلدت بسيف وبرمح ، أي : واعتنقت برمح . (١) ومصطلح (الربط) ويعني به تعدية الفعل اللازم إلى مفعوله وتعلق المفعول به نحو: مررت بزيد (٢)

إنَّ الأثر الذي أُقدمه محققاً قد كتب — على ما أرى — لمتوسطي الثقافة في العربية أو لمن أراد أن يلم بمهمات مسائل النحو ؛ ليستعين بها في الفقه وعلى الأصول وغيرهما بعد ان استظهارها أو فهمها بدقة . وقد اتبع المؤلف في العرض طريقة تقوم على أساس اختيار قواعد نحوية تنفع المتعلم الذي جاوز مرحلة المباديء ، وهي تختلف عما الفناه عند من سبقه . وهي إلى ذلك أثر في لغتنا العربية ينشر لأصولي عانى التأليف في صنعته الفقهية ، ودفعه حبّ التعليم إلى تسهيل قواعد لغوية لمن يشاء أن يحفظها من تلامذته أو غيرهم فيفيد منها .

— ٣ —

أما نسبة الرسالة إلى القرافي فلم أجد خلافا فيها . وقد ورد اسمه صريحاً على صفحة العنوان من المخطوط ، إذ نقرأ هذه العبارة : (القواعد الثلاثون في علم العربية للشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن بن يعقوب الصنهاجي المالكي المعروف بالقرافي رحمه الله) . وليس ثمة ما يقدح في هذه النسبة . كما لاينهض سكوت كتب الطبقات دليلاً على عدم صحتها ؛ لأنّ هذه الكتب لم تلزم باستقصاء مؤلفات الأقدمين كلها .

وأما عنوانها (القواعد الثلاثون في علم العربية) فهو ثابت على الصفحة الأولى من المخطوط . وليس صحيحاً تسمية البارون دي سلان إياها بـ (القواعد السنيّة في علم العربية) . ذكر ذلك في الفهرس الذي صنعه لمخطوطات المكتبة الوطنية في باريس (٣) . مستنداً — على مايبدو — إلى عبارة المؤلف في أول

(١) القاعدة الأولى .

(٢) القاعدة الرابعة والعشرون .

(٣) Catalogue des manuscrits arabes de la bibliotheque national a Paris., I, 201.

الرسالة (أما بعد ، فأنا أذكر ثلاثين قاعدة سنية في أسرار العربية) غير ملتفت إلى الصفحة الأولى منها . ووقع في هذا السهو كارل بروكلمان في ترجمته للقرافي ، إذ ذكر أن عنوان مخطوطة . باريس هو (القواعد السنية في أسرار العربية) (١).

وكان رجوعي في تحقيق النص إلى المخطوطة الوحيدة المحفوظة في المكتبة المذكورة ضمن مجموع رقمه (١٠١٣) قياس (١٨و٥ × ١٤ سم)مؤلف من الرسائل الآتية :

١ ـ شرح منهاج النووي ، لشمس الدين القاياني .

٢ ـ ما وجد من تعليقات بدر الدين الزركشي على نسخته من قواعد العلائي.

٣ ـ رسالة في الفقه .

٤ ـ الاغراب في جدل الاعراب . لأبي البركات الأنباري .

٥ ـ القواعد الثلاثون في علم العربية .

٦ ـ الجمل التي لها محل من الاعراب والتي لامحل لها ، للمرادي .

٧ ـ التهذيب في المنطق ، لسعد الدين التفنازاني .

وتشتمل رسالة القرافي على (٦) صفحات ، تبدأ بوجه الورقة (١١١) وتنتهي بظهر الورقة (١١٦) بينها ورقة سجل على وجهها مسائل في المواريث. وهي تحمل الرقم (١١٣) وبقي ظهرها خالياً من الكتابة .

جاءت في خاتمة الرسالة (هذا آخر القواعد الثلاثون في علم العربية ،. علقها لنفسه ولمن شاء الله من بعده الفقير إلى الله تعالى الحسين بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن الشحنة الشافعي . . . وذلك بتاريخ سادس عشر جماد الآخرة ـ كذا ـ سنة ثمان وسبعين وثمان مئة).

---

(١) Geschichte der arabischen Literatar, I, 481-482

والحسين بن محمد هذا من آل الشحنة ، وهم أسرة حلبية عرف منها أعلام في العلم والقضاء والوجاهة . . . ولهم في حلب آثار كثيرة وأوقاف ومعاهد ومدارس ومساجد ، مما يدل على ما كان لهم من رفيع المقام (١).

ومخطوطة باريس هذه لاثانية لها . ولذلك اعتمدتها وحدها في التحقيق، وأشرت إلى بدء كل صفحة منها. فوضعت الأرقام الدالة على ذلك. ورمزت لوجه الورقة مقرونا بالحرف (أ) ولظهرها بالرقم مقروناً بالحرف (ب) وكتبت النص على ما نعرف اليوم من قواعد الاملاء ، وكان جملة من كلماته على خلاف ذلك ، ولا سيما كتابة الهمزة وإهمال النقاط ، مثل (عمرواً = عمراً. العمر = العمرو . المبتدي = المبتدأ . كلما هو = كل ما هو ، معنا = معنى). واضطررت إلى تصحيح الفاظ وردت مخالفة للقواعد الصحيحة . واضفت بضع كلمات اقتضاها السياق وأشرت إلى كل تغيير في الحاشية مهملاً الاشارة إلى ما فائدة في ذكره . كسقوط نقط أو زيادة همز أو اهمال الف . . .

ووضعت ما ضفته بين معقوفين [ ] . والذي يسرّ لي هذا التدخل أنّ ناسخ الرسالة غير مؤلفها . ولو كان الناسخ هو المؤلف نفسه لما سمحت لنفسي بذاك ؛ لأن المخطوط آنذاك صورة لثقافة المؤلف .

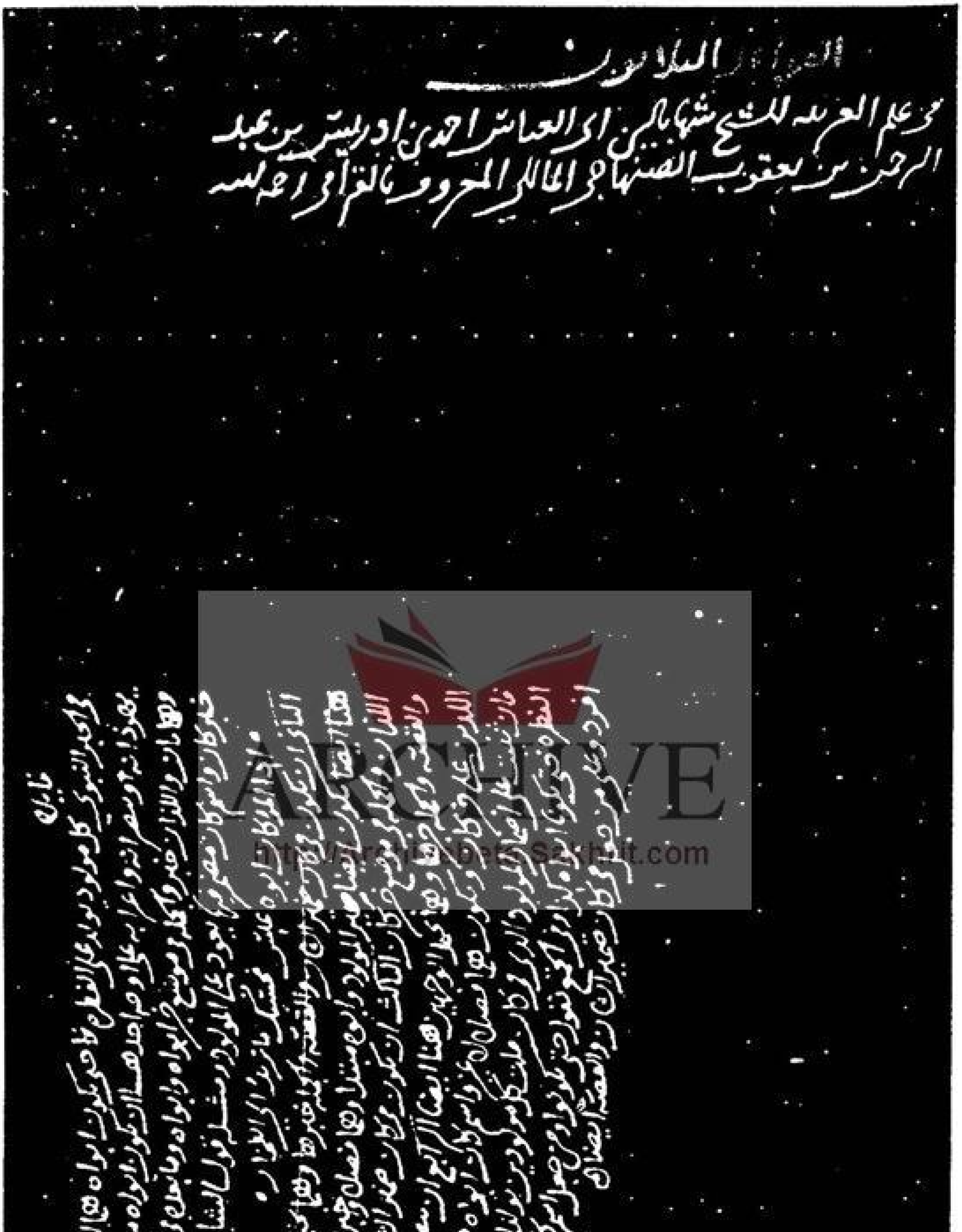
وعزوت الشواهد إلى أصحابها ما أمكن ، وخرجت الآيات ، وأهملت الاشارة إلى طبعات المصادر التي استعنت بها ؛ لأني ساذيل هذه النشرة بثبت لمراجع التقديم والتحقيق وطبعاتها ؛ ليسهل على المعنيّ بهذا الفن الرجوع إليها .

والله الموفق إلى أهدى السبل .

طه محسن

---

(١) الاغراب في جدل الاعراب ص ٢٨ (من مقدمة المحقق) وفي الضوء اللامع ١٥٨/٣ ترجمة لناسخ الرسالة ورد فيها : حسين بن محمد ... حفظ القرآن والمنهاج وغيره وسمع من جده ومن البرهان بن ابي شريف والبقاعي وعبد القادر بن يوسف الكردى ، وقدم القاهرة غير مرة ، وخطب بالجامع الكبير ...



في علم العربية للشيخ شهاب الدين أبي العباس أحمد بن إدريس بن عبد الرحمن بن يعقوب الصنهاجي المالكي المعروف بالقرافي رحمه الله

صفحة العنوان من مخطوطات باريس



الصفحة الاخيرة من مخطوطات باريس

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

الحمد لله ذي الجلال ، والمرشد في الأقوال والأفعال ، وصلواته على سيدنا محمد المبعوث بمعجز الكلام . المبلغ الى أفضل النوال . وعلى آله وصحبه خير آل .

أما بعد ، فأنا أذكر ثلاثين قاعدة سنية في أسرار العربية .

القاعدة الأولى

الظروف والمجرورات متى وقعت في أحد أربعة (١) مواضع فهي متعلقة بمحذوف؛ صلةً ، نحو : أكرمت الذي في الدار، أو الذي أمامك، تقديره: الذي استقر في الدار . أو صفةً ، نحو : أكرمت رجلا في البلد أو عندك . أو حالاً ، نحو : لقيت زيدا على السطح أو دونك ، تقديره : كائنا على السطح أو دونك. أو خبراً ، نحو : زيد من قريش، أو فوق الجبل، تقديره : كائن من قريش ، أو فوق الجبل .

ومتى لم يقعا في أحد هذه الأربعة لا يلزم التعلق بالمحذوف ، بل قد يتعلق بمنطوق ، نحو : مررت بزيد ، وسرت أمامك . وقد يتعلق بمحذوف ، نحو : تقلدت بسيف وبرمح ، تقديره : وأعتنقت برمح . وفي المطر بعد الريّ : (اللهم حوالينا ولا علينا) (٢) ، اي : أنزله حوالينا ولا تنزله علينا . وكقوله تعالى : (وأيديكم الى المرافق) (٣)، تقديره : اتركوا من أيديكم الى المرافق، لاستحالة تقدم المغيا على الغاية .

---

(١) في المخطوط : أربع :

(٢) من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم في الاستسقاء . يراجع : سنن ابن ماجة ٤٠٤/١ .

(٣) سورة المائدة ٦/٥.

القاعدة الثانية

الجمل والظروف (١) متى وقعت بعد النكرات كانت صفات أو بعد المعارف كانت أحوالاً ، نحو : مررت برجل قام أبوه أو أبوه قائم أو في الدار أو أمامك ، تقديره: قائمٍ أبوه أو مستقرٍ في الدار أو أمامك . ومررت بزيد يضحك أو يضحك أبوه أو في المسجد (٢) أو عندك . تقديره : ضاحكاً أو ضاحكاً أبوه ، ومستقراً (٣) في المسجد أو عندك .

القاعدة الثالثة

إذا أردنا أن نأمر رددنا الماضي الى المضارع ، ونحذف حرف(٤) المضارعة، ثم ننظر ما بعده ، فان كان متحركاً نطقنا به ، نحو صلّى يصلّي صلِّ ، أو ساكناً وفي ماضيه همزة أعدناها مفتوحة أو مكسورة ، نحو : أكرم يكرم أكرم /١١٢أ إستمع يستمع إستمع ، وإلا أتينا بهمزة توصلا للنطق بالساكن ونضمها إن كان (ما) بعد الساكن (٥) مضموماً ، ونكسرها إن كان مكسوراً أو مفتوحاً ، نحو : يطلُع أطلُع ، ويعدل اعدِل ، ويعلَم اِعلم . وهذه الهمزة كلها وصل ، والتي في الماضي كلها قطع (٦) .

ثم يسكن آخر الفعل إن كان صحيحاً(٧)، نحو : اِعلمْ ،ويحذف آخره إن كان معتلا ، نحو : أغزُ ، إرمِ ، اِخشَ . ثم إن كان ما قبل آخره حرف علة حذفناه ؛ لالتقاء الساكنين ، نحو : قُلْ ، بِعْ ، خَفْ .

---

(١) ومثلها الجار والمجرور ، كما سيمثل له المؤلف.
(٢) في المخطوط : او مستقراً في المسجد .
(٣) في المخطوط : ومستقر .
(٤) حرف : مكررة في المخطوط .
(٥) بعد الساكن : مكررة في المخطوط .
(٦) هذا في الثلاثي والرباعي أما في الخماسي والسداسي فهمزتهما وصل في الماضي .
(٧) في المخطوط : ساكنا .

القاعدة الرابعة

متى كان المبتدأ نكرة وخبره ظرف أو مجرور (١) وجب تقديم الخبر ، نحو : عليك وقار ، وأمامك سعادة . إلا في الدعاء ، نحو : سلام عليك ، ويل له .

القاعدة الخامسة

متى كان خبر المبتدأ استفهاماً ، نحو : كيف زيد ؟ ومتى السفر ؟ وجب تقديم الخبر .

القاعدة السادسة

متى تقدم المضمر على ظاهره لفظاً أو معنى امتنع، نحو : أكرم غلامه زيد. أو تأخر لفظاً ومعنى، نحو : أكرم زيد غلامه، أو تقدم لفظاً لا معنى، نحو : أكرم غلامه زيد وأبوه قائم (٢) .

القاعدة السابعة

الاستفهام لا يعمل فيه ما قبله، نحو قوله تعالى : (لنعلمَ أيُّ الحزبين) (٣) و (لننزِعنَّ من كل شيعة أيُّهم أشدُّ) (٤) . وقول العرب : عرفنا أبو

---

(١) في المخطوط : (ومجرور) والمقصود : جار ومجرور ، وحذف اختصاراً .

(٢) في هذه العبارة ارتباك لعل سببه النسخ . والمعنى الذي يريده القرافي اشار اليه ابن النحاس (ت ٦٩٨هـ) فقال : (المضمر والمظهر من جهة التقديم والتأخير على اربعة أقسام : أحدها أن يكون الظاهر مقدما على المضمر لفظاورتبة ، نحو : ضرب زيد غلامة . والثاني – ان يكون الظاهر مقدما على المضمر لفظاً دون رتبه، نحو ضرب زيداً غلامه والثالث – ان يكون الظاهر مقدماً على المضمر رتبة دون لفظ ، نحو : ضرب غلامة زيد فهذه الثلاثة تجوز بالاجماع . والرابع ان يكون الظاهر مؤخراً لفظا ورتبة نحو : ضرب غلامه زيداً . فهذا اكثر النحاة لا يجيزه لمخالفته باب المضمر ، و منهم من أجازه) يراجع : الأشباه والنظائر للسيوطي ٦٦/٢.

(٣) الكهف ١٢/١٨ . ولم يعمل الفعل في اسم الاستفهام ، لأنه معلق عن العمل وذلك خاص بأفعال القلوب ، ينظر : شرح ابن عقيل ٤٣٢/١.

(٤) مريم ٦٩/١٩ وكون «أي» استفهامية هو رأي الخليل ويونس ، على ماذكره النحاه =

من أنتَ ؟ . وأمّا قوله تعالى: (وسيعلم الذين ظلموا أيَّ منقلب ينقلبون)(١) فمنصوب بـ (ينقلبون) لا بـ (يعلم) .

ويعمل فيه (٢) حروف الجر .

القاعدة الثامنة

فعل التعجب لا يبنى من فعل رباعيّ ولا من لون، نحو : ما أبيضه، ولا من عيب، نحو : ما أعماه، بل يبنى من فعل آخر، نحو : ما أشدَّ دحرجته وما أقبح عماه، وما أحسن (٣) بياضه . وكذلك أفعل التفضيل ، فلا يقال : زيداً أبيض من عمرو، ولا أعمى منه .

القاعدة التاسعة

أفعل التفضيل لا يضاف إلا لجنسه، فلا يقال زيد أفضل الابل. بل أفضل القوم . وكذلك إذا قلت : زيد أفضل أب، بالخفض، كان أبا ممدوحاً وأفضل أباً، بالنصب،يكون الممدوح أباه . ولا يلزم أن يكون هو أباً ولا ممدوحاً .

القاعدة العاشرة

[١١٢ ب] أسباب البناء سبعة (٤) : تضمن المبني معنى الحروف، نحو : أينَ وكيفَ وأمسِ. ومن أحدَ عشرَ إلى تسعةَ عشرَ في العدَ، والاثني عشرَ. ولا رجلَ أفضل منك. ومشابهة المبنيّ، نحو المضمرات والمبهمات والموصولات ومتى وكم. ووقوعه موقع المبني، نحو : نزالِ ودراك. ومشابهته ما وقع موقع المبني، نحو : لكاعِ وفجارِ. والقطع عن الاضافة إذا نوي

= اما الخليل فجعلها استفهامية محكية بقول مقدر ، وأما يونس فجعلها استفهامية ايضا ، وحكم بتعليق الفعل قبلها ، لأن التعليق عنده غير مخصوص بأفعال القلوب وذهب سيبويه إلى انها موصولة مبنية على الضم يراجع الكتاب ٣٩٨/٢ . ٢٤٣/١ شرح الأشموني ١٦٦/١

(١) الشعراء ٢٢٧/٢٦ .

(٢) في المخطوط : فيهما . والضمير يعود على الاستفهام .

(٣) في المخطوط : أخس .

(٤) سيذكر القرافي اكثر من سبعة .

المضاف اليه معينا ، كقوله تعالى : (لله الأمر من قبل ومن بعد) (١) ، ومن وراء جدارٌ (٢) فان قصد مضاف اليه غير معين اعربت ، كقول الشاعر :

فساغ لي الشراب وكنت قبلاً
أكاد أغص بالماء الفرات (٣)

والاضافة إلى المبني، كالمضاف لياء المتكلم ، نحو : غلامي. واضافة ظروف الزمان للفعل الماضي، نحو : عرفتك من حينَ قدم زيد ، بفتح (حين) أو أضيفت للجمل ، كقوله تعالى : (إنه لحق مثلَ ما أنكم تنطقون) (٤) بفتح (مثل) . و(مثل) يجري مجرى المضاف ، أو الفعل المضارع ، نحو : (هذا يومَ لا ينطقون) (٥) ، بفتح يوم (٦) . والخروج عن النظائر ، نحو رأيتك حيث زيد قاعد ، فان الظروف كلها تخفض ما بعدها إلا (حيث) يقع بعدها المفرد مبتدأ مرفوعاً ، فهي تضاف للجمل دون بقية الظروف ، فبنيت لخروجها عن النظائر .

وسبب بناء الفعل المضارع لحوق أحد النونات الثلاث بأخره ، نحو نون التوكيد الثقيلة والخفيفة ونون جماعة النساء ، نحو : لتقومنّ النساء يقمْن والأفعال الماضية كلها مبنية على الفتح . وفعل الأمر للمخاطب كله مبني على السكون ، نحو : سِرْ ، وباللام للغائب معربٌ.

---

(١) الروم ٤/٣٠.
(٢) العبارة مبهمة في المخطوط . وقد اجتهدت في قراءتها على ماترى .
(٣) يروى (بالماء الحميم) والبيت لعبدالله بن يعرب يراجع : المفصل ص ٦٧.
شرح الالفية – لا بن الناظم ص ١٥٦ شرح قطر الندى ص ٢١ شرح شذور الذهب ص ١٤٣ شرح ابن عقيل ٧٣/٢ . شرح الأشموني ٢٦٩/٢ .
شرح التصريح ٥٠/٢ شرح شواهد ابن الناظم – للعاملي ص ٢٤٧.
(٤) الذاريات ٢٣/٥١.
(٥) المرسلات ٣٥/٧٧ .
(٦) قرأ بالفتح الأعمش والأعرج وزيد بن علي وعيسى وابو حيوة وعاصم وقراءة الجمهور بالرفع (البحر المحيط ٤٠٧/٨) .

والأصل في البناء الحروف ، والأصل في الاعراب الأسماء

القاعدة الحادية عشرة (١)

أسباب تعدية الأفعال عشرة : الهمزة ، نحو : قام وأقمته . وألف المفاعلة ، نحو : قام وقاومته . وتشديد الوسط ، نحو : قوّمته . وتشديد الآخر صغر وسغر به (٢) . وحروف الجر ، نحو : قام وقمت به . وحذفه من المفعول به ، نحو : اكرمتك الخير . وحذفه من الظروف / ١١٤أ /كقول الشاعر

ويوماً شهدناه سُليماً وعامراً . . . . (٣)

أي شهدنا فيه . و«إلا» في الاستثناء ، نحو : قام القوم إلا زيداً ، وواو «مع (نحو) قمت وزيداً ، وحمل الفعل على الفعل إذا كان في معناه ، كقول الشاعر :

تمرون الديار ولم تعوجوا
كلامكم عليّ إذا حرام (٤)

أي تجاوزون الديار

(١) في المخطوط يحذف الناسخ التاء من لفظة (عشرة) في الاعداد المركبة . وقد أثبتها في الاعداد القابلة دون اشارة .

(٢) كذا في المخطوط ، ولا أعرف له وجها من الصواب ، لان الافعال المضعفة الآخر مثل: اقشعر واشمأز واكفهر ... تأتي لازمة ولعل المراد بهذه الفقرة (صوغ الفعل اللازم على استفعل ، مثل : صغر واستصغرته ...) .

(٣) صدره : (قليل سوى الطعن النهال نوافله) وهو لرجل من بني عامر ورواية المفصل ص ٢٦ وشرحه ٤٦/٢ : ويوم .

(٤) في المخطوط : (كلامكم اذا علي حرام) والبيت لجرير ، ورواية الديوان ص ٥١٢ (اتمضون الرسوم ولا تحيا) . وهو من شواهد المغني ١٠٧١/١ و ٢ /٥٢٦. ابن عقيل ٥٣٨/١ .

القاعدة الثانية عشرة

متى استوى المبتدأ وخبره في التنكير ، نحو : خيرٌ من زيد رجلٌ صالح أو في التعريف نحو : أخوك زيد فالمتقدم المبتدأ والمتأخر خبره . ومتى اختلفا فيهما فالمعرفة المبتدأ والنكرة ، نحو : زيد قائم . وخالف هذه القاعدة قول الشاعر :

بنونا بنو أبنائنا وبناتنا
بنوهن أبناء الرجال الأباعد (١)

ويجوز أن يكون المتقدم الخبر إذا اختلف إعرابهما ، نحو : كان أخاك زيد ، لقيام اختلاف الاعراب مقام الرتبة في الدلالة .

القاعدة الثالثة عشرة

« كيف » لها ثلاثة أحوال ، تكون في موضع رفع إن كان بعدها مبتدأ فهي خبره ، نحو : كيف زيد ؟ وفي موضع نصب على الحال إن كان السؤال عن هيئة فاعل فعل بعدها (٢) ، نحو : كيف تسافر ؟ معناه : هل راكباً أو ماشياً ؟ وفي موضع نصب على المصدر إذا كان السؤال عن هيئة الفعل . نحو قوله تعالى :

(ألم ترَ كيف فعل ربك) (٣) . أي : أيَّ فعلٍ فعلَ ربّك . ويعرفان بالقرائن .

القاعدة الرابعة عشرة

« كم » متى كانت استفهامية نصبت مميزها ، نحو : كم درهماً عطاؤك ؟ ومتى كانت خبرية خفضت مميزها ، نحو : كم مالٍ (٤) أفادته يدي (٥)

---

(١) للفرزدق . ديوانه ٢١٧/١ ابن عقيل ٢٣٣/١ .

(٢) في المخطوط : بعده .

(٣) الفجر ٦/٨٩ . الفيل ١٠٥ /١.

(٤) في المخطوط : مالي .

(٥) يقال : افدت المال ، أي : أعطيته غيري . وافدته ، أي : اهلكته (اللسان ٣٣٨/٣ - ٣٣٩فيد) .

لأن الافتخار إنما يكون بالتكاثر ، ومميزُ العدد الكثير مخفوض ، نحو : ألف درهم ومئة دينار .

قد يتوسع فيها فيعكس. وتقع في الوجهين في أربعة أحوال من الاعراب :

١ـ مبتدأ ، نحو : كم درهمٍ عندك ، وكم غلاماً لي (١) ؟

٢ـ ومفعولاً به (٢) نحو كم رجلٍ رأيت ، وكم رجلاً لقيت ؟

٣ـ ومجرورة ، نحو: بكم درهمٍ اشتريت، وبكم رجل مررت ؟

٤ـ وظرفاً ، نحو : كم مرةٍ قصدتك ، وكم مرةً أحسنت ؟

القاعدة الخامسة عشرة

إذا أضيف ماليس له صدر الكلام إلى ماله صدر الكلام ، نحو : عرفت أبو من أنت ، غلّبته (٣) .

إذا جاور غير المخفوض المخفوضَ جاز خفضه ، نحو قولهم : هذا حجر ضب خرب ، وقول الشاعر :

كأنَّ ثبيراً في عرانين وبله ... كبير أُناس في بجادٍ مزملِ (٤)

ولبعض الفضلاء في المعنيين (٥) :

عليك بأرباب الصدور فمن غدا ... مضافاً لأرباب الصدور تصدرا

/١١٤ب/ وإياك أن ترضى صحابة ناقص ... فتنحط قدراً عن علاك وتحقرا

فرفع (أبو من) ثم خفض (مزمل) ... يصدق قولي مغرباً ومحذرا

---

(١) في المخطوط : وكم غلام ألي .

(٢) في المخطوط : ومفعول به .

(٣) اي يكتسب المضاف حكم المضاف اليه الذي له الصدارة ، كما في المثال الذي علق فيه الفعل (عرف) عن العمل في لفظ (أبو) المضاف إلى اسم الاستفهام (من) الذي يعلق أفعال القلوب . فاكتسب المضاف منه هذه الصفة وغلبت فيه .

(٤) من معلقة امرىء القيس ديوانه ص ٢٥ ، الضرائر للألوسي ص ٢٠٤ .

(٥) لم أقف على قائل الأبيات .

القاعدة السادسة عشرة

العلم لايضاف ولا يدخله لام التعريف لئلا يجتمع تعريفان ، إلاأن تتخيل مثالاً ، نحو : زيدكم خيرمن زيدنا ، والعمرو القرشي خيرمن العمرو التميمي. ومتى ثني أو جمع تعين (١) تعريفه ، نحو : الزيدين . ويمتنع : هؤلاء زيدون.

القاعدة السابعة عشرة

الحال تقع باعتبار الزمان مقارنة (٢) ، نحو : جاء زيد راكباً . ومحكية(٣) ، إن تقدمت ، نحو قوله تعالى : (إنه من يأت ربه مجرماً) (٤) . ومقدرة ، إن تأخرت ، نحو : (أدخلوها خالدين) (٥) .

وباعتبار ذاتها أربعة : مؤكدة ، إن تقدم معناها ، نحو : هذا أبوك عطوفاً. ومقيدة إن زادت معنىً غيره ، نحو : جاء (زيد) ضاحكاً . ومخصصة ، نحو : اقتلوا المشركين محاربين ، ومحصلة للفائدة ، إن خلا المتقدم عن المقصود ، نحو : (هذا بعلي شيخاً) (٦) .

ويجوز تقديمها على العامل فيها إن كان فعلا ، نحو : ضاحكاً جاء زيد ، ويمتنع إن كان في معنى الفعل ، نحو : زيد فيها مقيماً ، وهذا عمرو منطلقاً ـ ويجوز : ها منطلقاً ذا زيد ، على أحد الوجهين (٧) ـ وما شأنك قائماً؟ و «كأنّ» و «ليت» و «لعل» ؛ لأن فيها معنى الفعل .

---

(١) في المخطوط : بغير .

(٢) هي التي يتحقق معناها في زمن تحقق معنى عاملها وحصول مضمونه (النحو الوافي ٢/٣٦٤).

(٣) في المخطوط : حكمية . وهو تصحيف صوبناه عن المغني ٢/٥١٨ التصريح ١/٣٨٧ همع الهوامع ١/٢٤٥ الأشباه والنظائر ٢/٨١. (٤) طه ٢٠/٧٤ .

(٥) الزمر ٣٩/٧٣ : (.. وقال لهم خزنتها سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين) . و الحال المقدرة – وتسمى المستقبلة – هي التي يتحقق معناها بعد وقوع معنى عاملها (النحو الوافي ١/٣٨٧) . (٦) هود ١١/٧٢ .

(٧) في المغني ٢/٦٢٣ : (من الحال مايحتمل باعتبار عامله وجهين ، نحو وهذا بعلي شيخا يحتمل ان عامله معنى التنبيه او معنى الا شارة . وعلى الأول فيجوز : ها قائماً ذا زيد . قال ها بينا ذا صريح النصح فاصغ له . وعلى الثاني يمتنع ، واما التقديم عليهما معاً فيمتنع على كل تقدير) .

القاعدة الثامنة عشرة

«لا» لها سبعة مواضع : تكون ناهية فتجزم . ونافية فلا تجزم . وزائدة مثل قوله تعالى : (لاأقسم بهذا البلد) (١) . وفاصلة عن العامل ومعمولة ، نحو: سافرت بلا زادٍ . وبمعنى «إنَّ» فتنصب المضاف والمطول (٢) ، نحو : لاغلام رجلٍ أفضل من غلامك ، ولا حافظاً للقرآن مثلك ، ولا ضارباً زيداً في الدار . وبمعنى «ليس» نحو قوله تعالى : (لافيها غولٌ) (٣) . وتبنى معها النكرة على الفتح ، وهما (٤) في موضع رفع على الابتداء .

مسائل ثلاث :

الاولى : إذا نعتنا اسم «لا» نحو : لارجلَ ظريف عندنا ، جاز في النعت ثلاثة أوجه : البناء على الفتح تبعاً للموصوف ، والنصب مراعاة للفظ (٥) ، والرفع والتنوين مراعاة للمحل (٦) .

الثانية : المعطوف يجوز فيه الوجهان الاخيران دون الأول ، نحو قوله:

فلا أب وآبنا مثل مروان وابنه . . . . (٧)

فان تعرف فالرفع ليس إلا .

---

(١) البلد ١/٩٠.

(٢) هو الاسم الشبيه بالمضاف ، الذي له تعلق بما بعده (ابن عقيل ٣٩٦/١).

(٣) الصافات ٤٧/٣٧.

(٤) في المخطوط : وهي (تصحيف) ويراجع شرح ابن عقيل ٣٩٩/١.

(٥) كذا في المخطوط وصوابه مراعاه للمحل ينظر ابن عقيل ٤٠٥/١.

(٦) يعني محل «لا» واسمها ؛ لأنهما في محل رفع عند سيبويه (الكتاب ٢٧٤/٢) .

(٧) تمامه (اذا هو بالمجد ارتدى وتأزرا) . والبيت لرجل من عبد مناة بن كنانة . يراجع : الكتاب ٢٨٥/٢ . شرح المفصل ١٠١/٢ و ١١٠ شرح القطر ص ١٦٩ ، شرح الأشموني ١٣/٢ شرح التصريح ٤٢٣/١ .

الثالثة : يجوز في (لاحول / ١١٥أ/ ولا قوة) ستة أوجه : فتحها ونصب الثاني (١) ، أو تنوينه عطفاً على اللفظ (٢) أو رفعه (٣) على الموضع . ورفعها فيكون بمعنى «ليس» فيرفع (٤) الأول ويبنى الثاني مع «لا» وعكسه (٥).

القاعدة التاسعة عشرة

إضافة الشيء إلى جنسه مقدرة (٦) بـ «من» نحو : خاتم فضة ، ولغير جنسه مقدرة باللام ، نحو : دار زيدٍ ، ويجوز في (هذا خاتم فضة) ونحوه : الرفع نعتاً ، والنصب تمييزاً ، والخفض إضافة .

ولها خمسة معان : الملك ، كـ (مال زيد) والاستحقاق كـ (سرج الدابة) والاختصاص كـ(ابن زيد) والتشريف (اولئك حزب الله) (٧) ، والذم (اولئك حزب الشيطان) (٨) .

ولام الاضافة كذلك .

وهي تفيد التعريف ، إلا في أربعة مواضع ، للنكرة ، نحو : صاحب معروف . والصفة لمفعولها ، نحو مكرمِ زيد غداً أو الآن ، أو لفاعلها ، نحو : حسن الوجه وطاهر العرض ، أو يكون المضاف شديد التنكير ، نحو : غيرك ومثلك وسواك . فتنعت هذه الأربع النكرات .

ويتخرج على (مالك يوم) (٩) و (غير المغضوب عليهم) (١٠) .

---

(١) يعني بناء الثاني على الفتح .

(٢) صوابه على المحل .

(٣) في المخطوط : وتنوينه عطفا على اللفظ ورفعه.

(٤) في المخطوط : ورفع .

(٥) ان يكون الثاني مرفوعاً .

(٦) في المخطوط : بمقدرة .

(٧) المجادلة ٢٢/٥٨ .

(٨) المجادلة ١٣/٥٨ .

(٩) الفاتحة ٤/١

(١٠) الفاتحة ٧/١ والاستشهاد هذه الآية والتي قبلها لا أعرف له وجهاً.

والأسماء ثلاثة أقسام : مالايجوز اضافته ولا يكون الا تابعاً ، نحو : قاطبة وكافة . وما تجب اضافته فلا يعرف باللام ، نحو (غير) و (سوى) والجهات الست . وما يجوز فيه الامران ، نحو (كلام) وشبهه.

ويكفي في الاضافة أدنى ملابسة ، نحو : طلع كوكب زيد ، إذا كان ينام عليه .

القاعدة العشرون

اسم الفاعل شابه المضارع فعمل عمله في الحال والاستقبال . ولم يشابه الماضي فلم يعمل إذا كان ماضياً ، نحو : زيد ضاربٌ عمراً أمس (١) ، إلا أن يكون فيه لام تعريف بمعنى الذي ، نحو : مررت بالضارب زيداً أمس ، بخلاف المصدر ، يعمل ماضياً وغير ماض ، نحو : أعجبني إكرام زيدٍ عمراً أمس .

ولا يعمل اسم الفاعل حالاً أو استقبالاً إلا إذا اعتمد على موصوف ، نحو: مررت برجلٍ مكرم عمراً ، أو ذي حال ، نحو : مررت بزيد مكرماً عمراً ، (٢) او استفهام نحو : هل قائم زيدٌ ، أو نفي ، نحو : ماذاهب غلامـك .

ومتى لم يكن معتمداً ، أو كان مصغراً ، كضويرب ، أو موصوفاً ، نحو: هذا ضاربٌ شديدٌ ، أو عرفته بلام التعريف تريد معينا لم يعمل في الظاهر والمضمر المنفصل ، ويعمل في المتصل والظروف والمجرورات والأحوال ١١٥ب لأن هذه تعمل فيها المعاني الضعيفة .

واسم المفعول كاسم الفاعل .

---

(١) يعني ان هذا غير جائز والصواب ان تقول : زيد ضارب عمرو امس.

(٢) في المخطوط : مررت بزيد مكرم عمروا .

القاعدة الحادية والعشرون

« من » لها ستة معان : لابتداء الغاية ، نحو : سرت (١) من مصر إلى مكة. وانهائها ، نحو : رأيت الهلال في دارك من السحاب ، وشممت المسك في بيتي من السوق . والتبعيض ، نحو : قبضت ديناراً من الدين . ولبيان الجنس نحو : (اشتريت) خاتماً من حديد . وزائدة ، نحو : ماجاءني من أحد . ومفيدة للاستغراق ، نحو : (مالكم من إله غيره) (٢) .

القاعدة الثانية والعشرون

خصائص الاسم دون الفعل والحرف ثلاثون : الجر . والاضافة ، فلا يضاف الاسم . والنداء ، والترخيم . والندبة . والاستغاثة . والتصغير . والنسب . والفاعلية . والمفعولية . وتعريف اللام (٣) . والعلمية . والاضمار . والابهام . والتكسير . والتنكير ، والتذكير . والتأنيث . والتثنية . والجمع . وأصالة الاعراب . والنعت . ورؤية مسماه بالعين . وظرفية المكان وظرفية الزمان . والمصدرية . والتعجب منه . والتنوين . والتركيب ، والعدل . والتمييز .

القاعدة الثالثة والعشرون

خصائص الفعل دون الاسم والحرف . وهي عشر : الجزم والتصرف . والدلالة بصيغته على خصوص الماضي أو الحال او المستقبل . وأصالة عمل الرفع والنصب في الأسماء . وأصالة الطلب . وقد . والسين وسوف . والضمير المرفوع المتصل ، نحو : قمت . ونونا التوكيد . ونون الوقاية .

---

(١) في المخطوط : مررت .

(٢) الأعراف ٥٩/٧ وورد الشاهد في ثماني آيات أخر يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ص ٥٠٩ - ٥١٠ .

(٣) يعني وتعريفه بالألف واللام .

القاعدة الرابعة والعشرون

خصائص الحرف دون الاسم والفعل عشر (١) : أصالة عمل الجزم . ونصب الأفعال . والعطف . والربط ، نحو : مررت بزيد . والغاية . والزيادة وقلب معنى الكلام . والنقل . والتحضيض ، نحو : هلاّ ولولاّ ولوما وألاّ وقلب الفعل مصدرا ، نحو : أنْ وأنّ (٢) وما .

القاعدة الخامسة والعشرون

في فعلي المدح والذم . وهما : نعم وبئس .

وفيهما أربع لغات : كسر الأول وسكون الثاني كـ (عِدْل) . وفتح الأول وسكون الثاني كـ (عَظْم) وكسرهما كـ (إبِل) وفتح الأول وكسر الثاني كـ (فَخِذ) ، وهو أصلها .

ويشترط في فاعلهما أن يكون معرفا باللام أو مضافا إلى معرف باللام أو علماً / ١١٦ أ / بمعنى اللام ، نحو : نعم الصاحب زيد ، ونعم صاحب القوم عمرو ، ونعم الذي في الدار زيدٌ ، ونعم ماعندك العلم . فيميز (٣) فيه بنكرة منصوبة وبعدها الاسم المقصود بالمدح ، نحو : نعم جليساً زيدٌ ويجوز الجمع بين المميز والمميِّز تأكيدا ، نحو : نعم الرفيق رفيقاً زيدٌ وقوله تعالى : (فنعما هي) (٤) الفاعل مضمر ، و (ما) نكرة تمييز والتقدير : نعم الشيء شيئا هي . اي ابداؤها ، فحذف المضاف .

ومن خصائص هذين الفعلين انّ الفاعل بهما غير المقصود بهما بخلاف سائر الأفعال ، بل قصد مدح الجنس أو ذمه كله لأجل زيد تفخيما للمدح و الذم.

---

(١) في المخطوط : الماضي والحال .

(٢) في المخطوط : عشرة .

(٢) يعني تعدية الفعل اللازم إلى مفعول له وربطه به.

(٤) كذا في المخطوط ولعل المقصود قلب الفعل مصدرا اذا وقع خبراً في نحو عرفت انه يقوم

(٥) في متن الأصل : فيضمر . وما اثبتناه عن الحاشية .

(٦) البقرة ٢٧١/٢ : (ان تبدوا الصدقات فنعماهي ...)

وفي اعراب المقصود مذهبان : مبتدأ ، والفعل والفاعل المقـدم خبره والعائد عليه مافي عموم اللام ، كأنّ الأصل : زيد نعم الرجل ، أو خبره محذوف تقديره : زيد هو ، او هو زيد (١) .

وقد يحذف المخصوص ، كقوله تعالى : (نعم العبد إنّه أواب) (٢) أي نعم العبد أيوب . وكقوله تعالى : (فنعم الماهدون) (٣) اي نحن . ويجب ان يكون الضمير من جنس التمييز حتّى يدل عليه .

ويلحق بهذين الفعلين غيرهما ، كقوله تعالى : (ساء مثلا القوم) (٤) أي ساء المثل مثل القوم . وكقوله تعالى : (كبُرت كلمةً) (٥) و (حسنت مستقراً أي حسن المستقر مستقراً الجنة . وكذلك : وضُؤ الفقيه عمرو ، وكلُّ ماهو على هذا المثال (٧) .

القاعدة السادسة والعشرون

حبذا زيد . ومعناه : صار محبوباً . وتفتح حاؤه وتضم .

ويجوز في (حبذا زيد) أربعة أوجه : أن تغلّب الفعل ، وزيد فاعل أو تغلب « ذا» فيكون مبتدأ وزيد خبره (٩) . أو لاتغلب شيئا ويكون (حبذا)

---

(١) فيكون في هذا التقدير خبراً لمبتدأ محذوف وهو المذهب الثاني (توضيح المقاصد ١٠١/٣)

(٢) سورة ص ٤٤/٣٨.

(٣) الذاريات ٤٨/٥١ : (والأرض فرشناها فنعم الماهدون) .

(٤) الأعراف ١٧٧/٧ . وفي المخطوط : ساء مثل.

(٥) الكهف ٥/١٨ .

(٦) الفرقان ٧٦/٢٥.

(٧) يعني ماجاء على (فعل) من الثلاثي لقصد المدح او الذم ينظر (ابن عقيل) ١٦٨/٢ .

(٨) اي ان التركيب ازال اسمية (ذا) فصار مع (حب) فعلا فاعله المخصوص وهو مذهب قوم منهم الأخفش . (توضيح المقاصد ١٠٩/٣) .

(٩) اى ان التركيب ازال فعلية (حب) فصار مع (ذا) اسماً واحداً مرفوعاً بالا بتداء وخبره مابعده وهو مذهب المبرد وابن السراج ووافقهما ابن عصفور ونسبه إلى سيبويه . (توضيح المقاصد ١٠٩/٣) .

فعلا وفاعلاً خبراً مقدماً لـ (زيد) ، او زيد ، أو (زيد) (١) خبر مبتدأ محذوف تقديره : هو زيد .

ويجوز : حبذا رجلا زيد ، مثل : نعم رجلاً زيد ، ومعناه وصل غاية المحبة . كما وصل غاية المدح والذم في (نعم) و (بئس) .

وجرى مجرى المثل ، فلا يثنى ولايجمع ولايغير عن حاله (٢) .

ويجب ان يكون المرفوع معرفة أو نكرة في معنى المعرفة ، نحو : حبذا زيدٌ أخوك ، على البدل .

/ ١١٦ ب // القاعدة السابعة والعشرون

النفي والاثبات إنما يتوجهان للأخبار . ولذلك يكفر من يقرأ (ولم يكن له كفواً أحدٌ) (٣) عكس التلاوة ويخطىء القائل : ماكان مثلك أحداً ، دون العكس ، إلا ان تريد المبالغة .

ويستثنى من القاعدة صيغ الحصر ، نحو : إنما زيدٌ القائم ، وما زيد إلا القائم (٤) ، وإنما القائم زيد .

القاعدة الثامنة والعشرون

«نعم» لتقرير الكلام كان نفيا أو ايجاباً . و «بلى» لمخالفة النفي و «لا» لمخالفة الايجاب . ولذلك لو بدلت «بلى» بـ «نعم» في قوله تعالى : (ألست بربكم ؟) (٥) كان كفراً .

---

(١) في المخطوط : وزيد وينظر : ابن عقيل ١٧١/٢ .

(٢) يعني «ذا» من (حبذا) يراجع ابن عقيل ١٧١/٢.

(٣) الاخلاص ٤/١١٢ .

(٤) في المخطوط : لقائم .

(٥) الأعراف ١٧٢/٧ : (واذا اخذ ربك من بني ادم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على انفسهم الست بربكم قالوا : بلى شهدنا ...) .

القاعدة التاسعة والعشرون

ضبط الصيغ لأختلاف المعاني في قول الشاعر :

الفَعلة للمرة والفعِلة للحالـه والمَفعَل للبقعة والمِفعل للآله

بفتح الأول (١) من الفَعلَة والمَفعل وكسر الآخرين

القاعدة الثلاثون

ضبط صيغ جموع القلة من الكثرة في قول الشاعر :

بأفعُلٍ وبأفعال وافعِلـة وفِعلة يعرف الأدنى من العدد (٢)

فهذة مع جموع السلامة كلها للقلة ، مالم تعرَّف فتصير للعموم وما عدا هذه الأوزان للكثرة .

والقلة إلى العشرة فما دونها . والكثرة ما فوق العشرة .

وقد يستعمل أحدهما مكان الآخر مجازاً ، كقوله تعالى : (يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء (٣) .

. . . . . .

هـذا آخر (القواعد الثلاثون في علم العربية) علقها لنفسه ولمـن شـاء الله مـن بعـده الفقيـر الى الله تعـالى الحسين بـن محمد بن محمد بن محمد بن محمود بن الشحنه الشافعي عفـا الله عنه وعنهم وغفر له ولهم بمحمـد وآله آميـن والحمـد لله وحـده وصلى الله على محمـد وآلـه وصحبه وسلم وذلك بتاريخ سادس عشر جمـاد (٤) الآخـرة سنة ثمان وسبعين وثمان مائة

---

(١) في المخطوط : الاولى .

(٢) ذكره القرافي في شرح تنقيح الفصول ص٢٣٣ والسيوطي في الاشباه والنظائر٢ /١٢٦

(٣) البقرة ٢/ ٣٥

(٤) كذا في المخطوط وصوابه : جمادى

المصادر

١. الاشباه والنظائر في النحو ، السيوطي ، حيدر آباد الدكن . الطبعة الثانية ١٣٦٠ هـ .

٢. الاغراب في جدل الاعراب أبو البركات الأنبارى ، تحقيف سعيد الأفغاني مطبعة الجامعة السورية ١٩٥٧ .

٣. الانتصار لواسطة عقد الامصار ، ابن دقماق ، بولاق ١٢٩٣هـ

٤. الانصاف في مسائل الخلاف ... ابو البركات الانبارى ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد القاهرة ، الطبعة الرابعة ١٩٦١.

٥. البحر المحيط أبو حيان الأندلسي القاهرة ١٣٢٨ هـ .

٦. البداية والنهاية ابن كثير ، بيروت ١٩٦٦.

٧. التصريح على التوضيح ، خالد الأزهرى ، القاهرة .

٨. توضيح المقاصد والمسالك بشرح الفية ابن مالك ، المرادى ، القاهرة ١٩٧٦.

٩. الحياة العقلية في عصر الحروب الصليبية، احمد أحمد بدوى، القاهرة.

١٠. الديباج المذهب في معرفة اعيان المذهب ابن فرحون مصر ١٣٢٩هـ.

١١. ديوان امرىء القيس ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مصر، الطبعة الثانية ١٩٦٩.

١٢. ذيل مرآة الزمان . قطب الدين اليونيني ، حيدر آباد الدكن ١٩٥٤.

١٣. سنن ابن ماجة ، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ١٩٥٢.

١٤. شذرات الذهب في اخبار من ذهب ، ابن العماد الحنبلي مكتبة القدسي ١٣٥١ هـ .

١٥. شرح الاشموني على الفية ابن مالك (مع حاشية الصبان) دار احياء الكتب العربية .

١٦. شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة الطبعة الرابعة عشرة ١٩٦٤.

١٧. شرح الفية ابن مالك ، بدر الدين بن الناظم ، بيروت ١٣١٢ هـ.
١٨. شرح ديوان جرير . محمد اسماعيل عبدالله الصاوى ، بيروت .
١٩. شرح ديوان الفرزدق ، عبدالله الصاوى ، مصر ١٩٣٦.
٢٠. شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب . ابن هشام ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، مطبعة السعادة ، الطبعة التاسعة ١٩٦٣.
٢١. شرح قطر الندى وبل الصدى ، ابن هشام ، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد ، القاهرة الطبعة العاشرة ١٩٥٩.
٢٢. شرح المفصل ، ابن يعيش المطبعة المنيرية ، مصر .
٢٣. الشواهد على شرح الفية ابن مالك . للعاملي ، النجف ١٣٤٤ هـ.
٢٤. الضرائر وما يسوغ للشاعر دون الناثر . محمود شكرى الآلوسي شرحه محمد بهجة الاثرى ، القاهرة ١٣٤١هـ.
٢٥. الضوء اللامع لأهل القرن التاسع ، شمس الدين السخاوى ، بيروت .
٢٦. طبقات الشافعية الكبرى ، تاج الدين السبكي القاهرة ١٣٢٤ هـ .
٢٧. الفروق ، شهاب الدين القرافي ، القاهرة ١٣٤٤ — ١٣٤٦ هـ .
٢٨. الكتاب سيبويه ، تحقيق عبد السلام محمد هارون (جـ٢) القاهرة ١٩٦٨.
٢٩. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، الحاج خليفة ، طهران، الطبعة الثالثة ١٩٦٧.
٣٠. لسان العرب . ابن منظور ، بيروت ١٩٥٥ .
٣١. معجم البلدان ، ياقوت ، بيروت ١٩٥٧.
٣٢. معجم المؤلفين ، عمر رضا كحالة ، دمشق ١٩٥٧ .
٣٣. المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، محمد فؤاد عبد الباقي ، القاهرة ١٣٧٨ هـ .
٣٤. مغني اللبيب عن كتب الاعاريب ، ابن هشام ، تحقيق الدكتور مازن المبارك محمد علي حمدالله دمشق ١٩٦٤ .
٣٥. المفصل في النحو ، الزمخشرى ، كريستيانيا ١٨٤٠ .

٣٦. المنهل الصافي والمستوفى بعدالوافي ، أبو المحاسن ، تحقيق أحمد يوسف نجاتي ، القاهرة ١٩٥٦ .

٣٧. النحو الوافي ، عباس حسن ، مصر ، الطبعة الثالثة ١٩٦٦.

٣٨. هدية العارفين ، اسماعيل باشا البغدادى باستانبول ١٩٥١ .

٣٩. همع الهوامع ، شرح جمع الجوامع ، السيوطي ، مصر ١٣٢٧ ﻫ .

٤٠ الوافي بالوفيات ، الصفدى بعناية المستشرق دير نبرغ وجماعته سنة ١٩٤٩ . ومابعدها .

٤١. وفيات الاعيان وانباء أنناء الزمان ابن خلكان مصر ١٩٤٨ .

42. Geschichte der Arabischen literature. Von, carl Brocklmon. Leiden 1938.

43. Cataloque des manuscrits arabes de la bibliatheyue nationale M. le Baron de slane 1883- 1895.

ملامح من النقد السياسي والاجتماعي في الشعر الاندلسي على عهد الطوائف *

محمد مصطفى بهجت

تمهيد :

ازدهر الشعر الاندلسي في القرن الخامس للهجرة — وأوشك ان يكتسب ملامح متميزة عنه في مراحله السابقة ، بعد أن تنامى الشعور بـ«الاندلسية» وتبلورت شخصية العربي في بيئته الجديدة . وقد تركت هذه البيئة بصماتها على الشعر الاندلسي بجميع أبعادها الطبيعية والسياسة الاجتماعية والثقافية . حيث كانت هذه الآثار وتلك الأبعاد موضوع عناية الدكتور سعد اسماعيل شلبي — في اطروحته للدكتوراه (١) .

ووكد البحث الوقوف عند جانب من جوانب الحياة السياسية والاجتماعية — على عهد الطوائف — وصورة من صور تلك الحياة . ممثلاً في مشاركة الشاعر الاندلسي — في تقويم أبرز الأحداث السياسية من خلال ملوكها ووزرائها بتوجيه النقد اليهم ، وانتقاص الأحوال السياسية ، ومحاولة تشخيص أبرز العوامل التي كانت وراء تراجع المجتمع ونكوصه حين تجاوز بعض افراده على الآخر . وافتأتت فئة منه على أخرى وكان للشاعر في هذا دور في تجسيد تلك العيوب وابراز ذلك الخلل بصورة أوبأخرى .

---

(٥) أردت بـ«النقد» المعنى الذي ينطوي عليه القول المأثور : «اذا نقدت الناس نقدوك» أي تبيان المساوىء والعيوب في السياسة والمجتمع وقد اختلف الدارسون في تحديد عصر الطوائف ، وذلك لتلابسه بعهد الفتنة الذي يسبقه ، وعصر المرابطين الذي يعقبه ، والذي نختاره ماذهب اليه محمد عبد الله عنان ، حيث عد سقوط الدولة العامرية بداية عهد الطوائف وذلك في سنة ٣٩٩هـ. واما عصر المرابطين فيبدأ بسنة ٤٨٤هـ . إلا أن الأندلس لم تخضع كاملة لهم وكانت الجزائر الشرقية آخر ماسقط بأيديهم سنة٥١٢هـ.ينظر دول الطوائف١٦،التاريخ الاندلسي

(١) البيئة الأندلسية وأثرها في الشعر ، انظر الفصول الأربعة من الباب الثاني .

والبحث اذ ينحو هذا المنحى يسلط الضوء على طبيعة الحياة السياسية والاجتماعية من خلال هذا التيار الشعري ، وبذلك يَمرق الشِّعر الأندلسي من قبضةِ الولاءِ المطلق لملوك الطوائف ، ويقدم لنا تجربة عدد من الشعراء في مواجهة المظاهر الاجتماعية المتردِّية التي سَادتْ آنذاك ، وهو في هذا يخرج على كونه أدباً ارستقراطياً تبنته ووجهته وغذته الارستقراطية الاندلسية ، كما يرى أحد الدارسين (١) .

واذا كان ملوك الطوائف يسعون في تقريب الشعراء واصطناعهم ، فانهم لم يستطيعوا أن يقطعوا الشاعر الاندلسي عن مجتمعه وأحوال أمته ، وإذا كان الشاعر يتزلف للملوك فان ذلك لم يعمِ بصيرته عن رؤية وجوه الخطأ والانحراف تلك التي جرَّت الاندلس إلى وهدةٍ مُريعة ، واذا كانت الصورة الراسخة في الأذهان عند ملوك الطوائف – هي البطش والظلم والجور . فان ذلك لايعنى كمَّ الافواه،وعدم مواجهة الحكام بأخطائهم كالحكم العام الذي أطلقه غرسيا غومث وزعم فيه : فقدان الحرية الفكرية في خلال عصور الحكم الاسلامي (٢). ومن هنا يخرج الشعر الاندلسي على كونه شعر بلاطات ومجالس خمرة ومجون ، لايعنيه من أمر الامة شيء .. وسنعرض بايجاز للحالة السياسية والاجتماعية لتوضيح أبرز الحوافز التي دعت الشعراء إلى قول الشعر .في هذا الباب ثم نقف عند نماذج من أشعارهم ذات الصبغة المنتقدة للاحوال السياسية والاجتماعية ، وابرز صور هذا الاتجاه .

الحالة السياسية والاجتماعية :

بدأت بوادر سقوط الخلافة بعد وفاة الحكم المستنصر وتولي هشام الثاني (المؤيد) سنة ٣٦٦هـ الذي لم يستطع ان يقوم كاهله باعباء الخلافة لحداثة سنه ، وعدم تمرسه في السياسة ، فاستولى على الامور المنصور بن أبي عامر . وكان

---

(١) اشبيلية في القرن الخامس الهجري ٨٠ .

(٢) الأدب الأندلسي في عصر الموحدين ١٠٨ .

حاجباً في القصر ، فعاد الاستقرار على عهده ولكن العيون ظلت ترمقه على انه مستحوذ على الحكم بأسلوب غير مشروع ، واعقب المنصور ابنه عبد الملك «المظفر بالله» ثم تولى أخوه عبد الرحمن «شنجول» سنة ٣٩٩هـ، لتبدأ أول حلقة من حلقات الفتنة التي نعتها ابن حيان بالجائحة والمبيرة .. وشاعت الاضطرابات وحلّت الاحن والمحن — ولم يكن ذهاب الخلافة الاسلامية أمراً يسير النتائج ، انما كان ضربة لم تنهض الاندلس من آثارها قط بل كان بداية عهد الانحلال الطويل الذي لبثت تتقلب فيه زهاء أربعة قرون أخرى(١).

لقد فقدت قرطبة سيادتها ، فانفرط عقد الجزيرة إلى أكثر من عشرين مدينة أو مقاطعة تحكمها أسر مستقلة عن قرطبة . وانتهت سلسلة الاضطرابات في قرطبة إلى تولي شيخ الجماعة ابو الحزم بن جهود ادارة حكومة قرطبة بنظام شوري .. وابرز سمة اتسم بها العصر : كثرة الحروب والنزاعات بين ملوك الطوائف انفسهم فضلا عن الخطر الذي كان يهددهم من قبل ملوك اسبانيا الشمالية ، وقد صورها لنا شاهد العيان ابو طالب عبد الجبار . في ارجوزته التاريخية :

من كل منتز بها وثائر	وعادل عن كل عدل جائر
فالثّغر الاعلى ثار فيه منذر	ثم ابن هود بعد فيما يذكر
وابن يعيش ثار في طليطلة	ثم ابن ذي النون تصفّى الملك له
وفي بطليوس انتزى سابور	وبعده ابن الافطس المنصور
وثار في حمص بنو عبّاد	والحرب والفتون في ازدياد (٢)

واقترن بتلك الاضطرابات استخدام البطش والقوة مع الثائرين والضرب على يد المغامرين حتى روي أن المعتضد العبادي كان يحتفظ بجماجم اعدائه

---

(١) دول الطوائف ١٦ .

(٢) الذخيرة ٤٢٩/٢/١ .

في خزانة بيته (١) . وكان يضرب المثل بباديس بن حبوس في شدة القسوة وسفك الدماء (٢) .

ولم يغن عنهم كيدهم -- بعضهم لبعض - اذ هانوا في عين عدوهم ، وذهبت ريحهم فلم يكن منهم أحد إلا يؤدي إلى الفونسو السادس - ملك قشتالة - الاتاوة - وهم كانوا احقر في عينه واقلّ من أن يحتفل لهم (٣)، وتعاقب سقوط مدن الاندلس وتعاقبت النكبات ، وكانت ابرز ثلاث نكبات هي سقوط بربشتر (٤٥٦هـ) وسقوط طليطلة (٤٧٨هـ) وسقوط بلنسية (٤٩٥هـ) وهكذا تفاقمت الاحوال لتنتهي بجواز المرابطين إلى الأندلس وتسجيل مأثرة الزلاقة سنة ٤٧٩هـ .

وأما المجتمع الاندلسي في عصر الطوائف ، فقد تواترت على تعقيده جملة امور تُعزى إلى كثرة اجناسه وتعدد أصنافه ، فقد ضم السكان الاصليين بأصولهم المختلفة ، والذين سُمّوا بعد الفتح بـ «المعاهدة» أو «المعاهدون» من اليهود والنصارى ، ومن اعتنق الاسلام منهم سُمي بـ «الاسالمة» او «المسالمة» وابناؤهم «المولدون» وضم المجتمع الاندلسي كذلك : «الصقالبة» الذين يؤتى بهم من مختلف البلاد الافرنجية اطفالاً ذكوراً واناثاً . ويربون برعاية الدولة، وأما «الفاتحون» فمن عرب يمنية وأخرى قيسية وبربر من شمال افريقية .(٤)

وسنحاول أن نتلمس ابعاد اتجاهي النقد السياسي والاجتماعي من خلال الشعر الاندلسي وهو - ولاريب - يعكس مشاركة الشاعر الاندلسي أحداث عصره ، ومجتمعه .

النقد السياسي :

تفاعل الشاعر الاندلسي مع الاحداث السياسية ، ولم يبق قابعاً في برجه العاجي وهو أمر طبيعي اذا علمنا أنّ عدداً من الشعراء كانوا وزراء لملوك الطوائف -

---

(١) الذخيرة ٢/١/١٨ .
(٢) المغرب ٢/١٠٧ .
(٣) المعجب ١٩٣ .
(٤) التاريخ الأندلسي ٢٨٣ .

وقد أطلق لقب «وزير» على عدد منهم كابن زيدون وابن اللبانة وابن عمار وابن وهبون — وغيرهم .

ووقفتنا ستكون مع هؤلاء الشعراء وهم ينتقدون الاحداث ومَن وراءها ناقمين على مرتكبيها من خلال اشعارهم التي سنعرض لها.

أول صورة تطالعنا تتمثل في بيتين ، يخاطب فيهما الشاعر بني أمية معرِّضاً بحكم المنصور بن أبي عامر يسألهم استعادة الراية بعد أن سقطت وأفلت زمام الامور فيقول :

أبني أميـة أينَ أقمار الدجى   منكـم وأين نجومها والكوكب
غابتْ اسودٌ منكم عن غابها   فلذاك حاز الملك هذا الثعلب(١)

وتقترن صورة استنهاض همم بني أمية بصورة التهكم من الخليفة المكبل «هشام الثاني» والذي لم يكن له من الامر شيىء فقال على لسانه أحد الشعراء:

أليسَ من العجائب أن مثلي   يرى ماقلَّ ممتنعاً عليـه
وتُملكُ باسمه الدُّنيا جميعاً   وما من ذاك شيىء في يديه (٢)

إنَّ هذه الأبيات سرعان ماكانت تذيع بين الناس ، إذ تلاقي هوى في نفوسهم ، وهي مجهولة النسبة لما قد يتبع قائلها من طائلة العقاب ، وهي في مدلولها العام تعبر عن روح العصر في التشهير بالاوضاع السياسية . (٣) وفي عهد الفتنة يبلغ التفكك والتمزق اقصاه ، حيث يتولى ثلاثة عشر حاكماً خلال حوالي عشرين عاماً ، ومنهم من تولى مرتين ، ومنهم من لم يحكم إلا أياماً معدودة . فانعكست الحالة على الادب في أكثر من وجه ولم يسكتِ الشّاعر بل عبّرَ بأساليب شتى ، وكثيراً ماكان يلجأ إلى التعريض بدلا من التصريح ، وهو لاشك أبلغ في هذا ، وأوقع تأثيراً ، ولذلك يقول ابن رشيق القيرواني: « وأنا أرى أن التعريض أهجى من التّصريح لاتساع الظن في التعريض ،

---

(١) نفح الطيب ١/١٧٥ .

(٢) البيان المغرب ٤/٢٨٠ .

(٣) دولة الاسلام في الأندلس ٤٨٤ – ٤٨٥ .

وشدّة تعلق النفس به ، والبحث عن معرفته وطلب حقيقته ، فاذا كان الهجاء تصريحاً أحاطت به النفس علماً وقبلته يقينا في أول وهلة »(١). ومن هذا الباب يقول أحدهم :

الحمد لله على أنني كضفدع في لجّة اليمّ
إن هي قالت ملأت حلقها او سكتت ماتت من الغم(٢)

إنه يحمد الله الذي لايحمد على مكروه سواه ـ فشأنه شأن الضفدع في لجة اليم اذا نطقت امتلأ فمها ماء ، او سكتت ماتت هماً وغماً .

ونجد سخرية غير مباشرة من هشام المعتد ، حيث يخاطب الشاعر وزيره حكم بن سعيد القزاز فيقول :

هبك كما تُدْعى وزيراً وزير من أنتَ ياوزيرُ ؟
والله مالامير معنى فكيف من وزّر الاميرُ (٣)

ونستطيع أن نميز اتجاهين واضحين في شعر النقد السياسي في هذا العصر ـ اتجاه نقدي عام لاوضاع الجزيرة ـ وما اصبحت عليه من حالة تردٍ وضعف متزايد بسيطرة ملوك قشتالة وتفاقم خطرهم وقد أجمل القول في ملوك الطوائف وأوجزه ابن رشيق القيرواني ، معللا سبب زهده في الأندلس قائلاً :

مما يزهدني في أرض أندلس ألقاب معتصم فيها ومعتضد
ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعها كالهرّ يحكي انتفاخاً صولة الأسدِ (٤)

إنّ ملوك الأندلس افتقدوا إلى كثير من الصفات التي تليق بأمثالهم حتى لم تعد تلك الالقاب تعنى شيئاً ذا بال . وضمن هذا الاطار يخاطب ابن عصفور الحضرمي حكامها ناعتاً اياهم بأضاعة الحزم ، وهتكَ الاعراض ، والذل والهوان الذي يجر على أصحابه الهلاك والبوارِ :

---

(١) العمدة ١٧١/٢ .

(٢) الصلة ٥٩٣ نقلا عن مقدمة المقتبس ٣٨ (تحقيق محمود علي مكي ط المجلس الاعلى للشئون الاسلامية القاهرة ١٩٧٠)

(٣) البيان المغرب ١٤٧/٣ . وفي الأصل «وزر الوزير» ولعل الصواب ماأثبتناه (٤) ديوانه : ٥٩ .

أضعتمُ الحزمَ في تدبير أمركم	ستعلمون مَعاً عُقبى البوارِ غَدا
ياأمةً هتكتْ مستورَ سوءتها	ماكلّ من ذلّ أعطى بالصغار يدا
في سورةِ الحشرِ آياتٌ مفصلةٌ	في شأنكم أُنزلتْ لم تُعدكم أحدا
نعم وفي الكهفِ في العشرين خاتمةً	تَقضي عليكم بأنْ لاتفلحوا ابدا
فاستشعروا سوءعقباكُم فقدشملت	جميعكم محنةٌ لاتنقضي ابدا(١)

إنّه يشرك الامة في تحمل المسؤولية - بالخطاب ، ويذكرهم بما جاء في القرآن الكريم من النذير الشديد الذي هو نتيجة طبيعية للتهاون في طاعة الله والإعراض عن هديه ، وهو عينه سبب شتات أمر ملوك الطوائف وضياعهم.

وقد تتصل تجربة شاعر بملك معين ، لكنه يعمم فيخاطب جميع الملوك ، كالذي حصل للسميسر الذي اقترنت اخباره بحاكم غرناطة باديس بن حبوس وعبد الله بن بلقين ، وهو حين يرمي ملوك الأندلس جميعاً بالخيانة والتقاعس ، لا يبعد عن الصواب ، فقد كانت الاندلس إلى عهد الطوائف يداً واحدة على اعدائها المتربصين بها ، ولكنها فقدت وحدتها ، فوجب القيام على ملوكها بعد أن قاموا بالنصارى :

نادِ الملوك وقل لهم	ماذا الذي احدثتُم
أسلمتمُ الإسلام في	أسرِ العِدا وقعدتُم
وجبَ القِيامِ عليكم	إذْ بالنّصارى قمتُم
لا تُنكروا شقّ العَصا	فعصا النبي شققتُم (٢)

وابو الحسن بن لجد - من شعراء الذخيرة - هو الاخر ينظر ويتأمل احوال الاندلس ويتناول بالتحليل والتفريع الداء الذي انفذ سمه في كيان

---

(١) البيان المغرب ١١٠/٣ ويشير في ابياته إلى قوله تعالى « ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاق الله فان الله شديد العقاب ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئك هم الفاسقون » سورة الحشر ٤، ١٩ وقوله تعالى «قل هل ننبئكم بالأخسرين الا الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، اولئك الذين حبطت اعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنا » سورة الكلف ١٠٥.

(٢) الذخيرة ٣٧٤/٢/١

الدولة الاسلامية ، ممثلا في ملوكها بانكبابهم على لذائذ الدنيا واعراضهم عن خشية الله وسيطرة الضعف والخور عليهم فيقول من قصيدة طويلة :

أرى الملوكَ أصابتهم بأندلسٍ ... دَوائرَ السُّوءِ لاتبقى ولا تذَرُ
ناموا وأسرى لهم تحت الدجى قدر ... هَوى بانجمهم خسفاً وما شعَروا
وكيفَ يَشعرُ من في كفه قدح ... تَحدو به مذهلاتُ النّاى والوتر
صَمّتْ مسامعه عن غير نغمته ... فما تمرّ به الآيات والسّور
تلقاه كالعجل معبوداً بمجالسه ... له خوارٌ ولكنْ حشوه خَور
وحوله كلُّ مغترٍ وما علموا ... انّ الّذي زخرفتْ دنياهم غرر (١)

وهو بذلك يشخص ابواب الشر الّتي جلبت النحس على الاندلس .

واما الاتجاه الاخر للنقد السياسي فهو الّذي توجّه به الشّعراء إلى نقد ملوكٍ معينين ، و أبانوا ظواهر سلبية محدودة مقترنة بأوضاع مملكة معينة ولدينا أمثلة كثيرة على هذا الاتجاه لعل أروعها صورة الصراع المرير الذي كانَ بين شاعر وملك.ينقل لنا وقائع هذا الصراع ابن بسام الشنتريني والشّاعر هو ابو حفص عمر بن الحسن الهوزني . والملك هو المعتضد بن عباد «ولما أفضى أمر اشبيلية إلى عباد كان ابو حفص يومئذ ذات نفسها .... وناجذها الذي عنه تبتسم وواحدها الذي تنقُض وتبرم (٢) وعلى الرغم من انّه كان صاحبه قبل افضاء الرئاسة اليه ، اوجس منه خيفة ، فرحل سنة ٤٤٠هـ، ووصل إلى صقلية ويمم بعدها مصر فمكة .. وكان يَروى ويحدّث في طريقه واستقصى بمرسيه ، ومنها اطلق حممه العنيفة بشكل رسائل وجهها إلى المعتضد ، ووافق ذلك بعد نكبة بربشتّر سنة ٤٥٦هـ حيث طالبه بالجهاد والثأر للمسلمين ، صدع بالحق وواجه أقوى ملوك الطّوائف آنذاك ، بكلمة الحق واستهلَ رقعةً طويلةً كتبها له، بهذه الابيات :

---

(١) الذخيرة (مخطوط) ١٦٣/٢ ، أعمال الاعلام ٢٤٢ ، وفي البيت الخامس اشارة إلى قصة السامري . الذي حكاها القرآن الكريم حيث اتخذ قوم موسى من حليهم عجلا صاغه لهم السامري جسداً له صوت يسمع وقالوا هذا الهكم واله موسى – فكانت تلك فتنتهم. تنظر سورة الأعراف ١٤٨ وسورة طه ٨٨ ، وقد وردت كنيته بأبي الحسن، كذا.

(٢) الذخيرة ٦٨/١/٢ .

أعبّادُ جَلَّ الرزءُ والقَومُ هُجّعُ
على حَالةٍ مَن مِثلِها يتوقَّعُ
فَلَقَّ كتابي من فَراغكَ ساعةً
وانْ طالَ بالموصوف للطول موضع
اذا لم أبثَّ الدّاءَ رَبَّ دوائه
أضعت وأَهلٌ للملامِ المضيِّع (١)

وفي فصل آخر من الرسالة يستثير نخوته وعزيمته ليدفعَ العدو الجاثم عن صدور المسلمين :

أعبّادُ ضاقَ الذَّرعُ واتّسعَ الخرق
ولا غَرب للدنيا اذا لم يكن شرْق
ودونك مولى طال وهو مقصّر
فللعين معنى لا يعبّره نُطقُ
اليكَ انتهتْ آمالنا فارمِ ما دَهَى
بعزمكَ يدفع هامةَ الباطل الحق (٢)

وهكذا يعلو صريخه لطلب الثأر والانتقام لبربشتر بعد أن اتسع الخرق مشيراً إلى انه لا غرب للدنيا اذا لم يكن شرق وبربشتر تكمل اشبيلية وكلاهما بلد واحد في وحدة الاندلس ويحرك نوازع الخير في المعتضد ويذكره بفضائله السابقة :

أعبّاد كلا قد علوتَ فضائلا
تقاصرَ عنها كل أروعَ ماجدِ

ولا ينسى موضوعه الاصيل الذي ساق الحديث من أجله :

---

(١) نفسه ٢/١/٧٠ .
(٢) نفسه ٢/١/٧١ - ٧٢

فـقـد جَـلَّ أمر هدَّ شَرعَ محـمّـدِ

وما مخبرٌ عن حَالةٍ مثـلُ شاهدِ

لـكـل يُبين الـرأيَ عـندَ وفاتـــه

وهل من دواء بعد نـهـش الأساودِ

أضاعــوا وجــوهَ الحـزم يوماً فغرَّهـم

على أمرهم من ليس عنهم بهاجـدِ (١)

هكذا فهم الهوزني ضياع المسلمين في بربشتر على أنّه مما يهدد شرع محمد (عليه السلام) وهو لا يختلف عن تصور ابن عصفور الحضرمي في تعليل أسباب هذا الضياع :

« أضعتم الحزم في تدبير أمركم »و « أضاعوا وجوه الحزم يوما فغرهم » (٢) انه الحزم الذي أخلوا به يقابله عدو متربص غير هاجـد فانقلب الامـر وبالاً على المسلمين. ويغلب على اشعار الهوزني هذا الطابع في الدعوة للجهاد والتخفف من أوزار الدنيا، حتى قيّض الله تعالى لبربشتر احمد بن هود الذي اعادها إلى ركاب الاسلام . ولكن المعتضد لم يغضَّ طرفه عن تلك الرسائل. وما فيها، وإنْ كان ظاهرها لا يوحي بنقد مباشر. وأيُّ النّاس كانَ يُطيق مواجهته ؟ حتى أنهم تعجبوا من وزيره ابن زيدون كيف انفرد بالسلامة ؟ فقال : كنت كمن يمسك باذني الاسد يتقي سطوته تركه او امسكه ! !

وانه صاغ فيه (بعد وفاته) :

لـقـد سرنا أنَّ النَّـعـيَّ مـوكـلٌ

بـطـاغـيـةٍ قـد حُـمَّ مـنـه حِمام

يـجـانـف صـوب الغيـث عـن ذلكَ الصدى

ومـر عـلـيـه البـرق وهـو جَـهام (٣)

---

(١) نفسه ٢/١/٧٤ .

(٢) الشطر الأول من قصيدة الحضرمي التي تقدمت ، البيان المغرب ١١٠/٣.

(٣) ديوان ابن زيدون ٥٩٢ .

انتهى الموزني الى نهاية المجاهدين ، اذ استدرجه المعتضد الى اشبيليه ، فذهل عما يترصده من خطر ليقتله المعتضد بيده سنة ٤٦٠هـ. (١)

ومن الأصوات القوية التي واجهت ملوك الاندلس بالنقد صوت ابي القاسم خلف بن فرج الالبيري المعروف بالسُّميسر (توفي بعد ٤٨٤هـ)، غلب على شعره الهجاء وكان لاشعاره أثر كبير في تحريض الناس على باديس بن حبوس ملك غرناطة - بعد ان ركن الى وزير يهودي - فقال السميسر ثلاثة أبيات ، وكتب بها نسخاً عدة ورماها في شوارع البلد والطرقات وسارَ من ساعته الى المريّة معتصماً بالمعتصم بن صمادح ، وطارت الابيات في اقطار الاندلس ، ولما وقف عليها باديس أرسل وراءه اصحاب الخيل ففاتهم ولم يلحقوه . واما الابيات ففيها - كما يرى الدكتور احسان عباس من الاقذاع ما يحول دون اثباتها . (٢)

ويحدثنا الامير عبدالله بن زيري في مذكراته عن عبدالله بن بلقين ، وكيف أنه أعلى الابراج وبنى الاسوار ووصّل بعضها ببعض واقام عليها الديدبانات . ونصب الرعادات ، وملأ بيوت السلاح وجدّ في ضرب الهام وبذل في ذلك جهده .. ومع ذلك فانه عمد الى مال كثير وثياب نفيسه وتحف جليلة واعلاق رفيعة فوجه بها الى الاذفونش وكتب اليه متطارحاً عليه مستجيراً به واعلمه أنّ البلدَ بلده وانه فيه قائده (٣) !! وفي ذلك يقول السميسر (٤) :

---

(١) الذخيرة ٢/١/٦٩ .

(٢) معجم السفر ورقة ٢٦٥ نقلا عن تاريخ الأدب الأندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ١٤١ ، وتنظر رواية القرى . نفح الطيب ٣/٤١٢ .

(٣) مذكرات الامير عبد الله ٢٠٦ - ٢٠٧.

(٤) نفسه ٢٠٧ وفي الأصل الساري ، ولعله هو السميسر نفسه و (أذفونش) هو الفونسو السادس حاكم قشتالة أيام حكم الطوائف ، والبيت الرابع في نفح الطيب ٣/٤١٢ مع خلاف يسير .

صاحب غرناطة سفيهٌ

وأعلمُ الناس بالأمور

صانعَ إذفونش والنصارى

فانظرْ الى رأيه الدَّبيرِ

وشاد بنيانه خلافاً

لطاعة الله والأمير

بَنَى على نَفسِهِ سِفاها

كانّه دَودةُ الحَريرِ

دعوه يَبني فسَوف يدري

اذا أتتْ قدرةُ القَدير

ونجد للسميسر أخباراً واشعاراً كثيرة تتسم بالجرأة والصراحة حيث يرمي الملوك بالخيانة والتدني :

خنتم فهُنتم وكم أهنتم

زمان كنتم بلا عيون

فانتم تحتَ كلّ تحت

وانتمٌ دُونَ كلٍّ دون

سكنتمُ ياارياحَ عادٍ

وكلٌّ ريحٍ الى سُكون (١)

وفي قصيدة اخرى يجعل جورهم وعدم عدلهم بين الناس سبباً يؤدي الى تربص العدو بهم ، وانتقاماً من الله تعالى فان الايام حين تقرض ديناً لا تلبث ان تقتضي ما اقرضته :

وُليتمْ فما احسنتم مذْوليتمُ

ولا صنتمُ عمّنْ يَصونكم عِرضا

---

(١) نفح الطيب ١٠٨/٤

ستسترجعُ الأيام ما أقرضتكم

الا إنها تسترجعُ الدَّينَ والقَرضا (١)

ولقد كانت نكبة بربشتر سنة ٤٥٦هـ ، مدخلا وباباً سدد الشعراء من خلاله سهامهم الى ملوك الاندلس وقد تقدم موقف ابي الحسن الهوزني ازاءها وهذا ابو محمد عبدالله بن فرج اليحصبي المعروف بابن العسال الفقيه الشاعر ينعت — بصريح العبارة — ملوك المسلمين بالجبن ، فقلوب المسلمين تبيت مروعة ، والذنوب — ولا سيما الكبائر — هي الداء الحقيقي :

ولقد رمانا المشركون بأسهم

لم تخطِ لكن شأنها الإصماءُ

هتكوا بخيلهم قصورَ حَريمها

لم يبقَ لاجبلٌ ولا بطحاءَ

جاسوا خلال ديارهم فلهم بها

في كل يومٍ غارةٌ شعواءُ

باتت قلوب المسلمين وإنهم

ركبوا الكبائر ما لهنَّ خفاءُ

ما كانَ يُنصَرُ للنّصارى فارسٌ

أبداً عليهم فالذُّنوبُ الدَّاءُ

فشِرارهم لا يَختفونَ بشَرِّهم

وصَلاحُ منتحِلي الصَّلاح رِياء (٢)

لقد كانت تلك الهزات والنكبات عاملا على أذكاء جَذوةِ مشاعرِ الشعراء للتنبيه الى خطورة الاتجاه المنحرف الذي سلكه الحكام ، وتابعهم عليه ابناء المجتمع ، فالتحبوا الطريق ووطؤوا اكنافه .. وبعد أن بكى ابن العسال

(١) نفح الطيب ١٠٨/٤ .

(٢) صفة جزيرة الأندلس ٤٢ وينظر المغرب ٢٣٦/١ والشعراء بوزن الصحراء ، الشجر الكثيف .

بربشتر نسمعه متطيراً متشائماً لسقوط مركز عظيم من مراكز الاندلس — طليطلة — يدعو الناس الى الرحيل :

حثُّوا رواحلَكم يا أهل أندلس
فما المقام بها الامن الغلط
الثَّوب ينسلُّ من اطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولاً من الوسط
ونحن بين عدو لايفارقنا
كيف الحياة مع الحياة في سفط(١)

فالشاعر اذن يدعو للانهزامية ، يقول الدكتور عبد الرحمن الحجي «ولكن أليس الرحيل بعينه هو الجبن الشديد والانانية ؟ ، والامر ليس كذلك فحين نمعن النظر في موقف الشاعر نجده مثلما يرى الدكتور احسان عباس يسلك هذا اللون السلبي من التعبير عن الحقيقة لانه كان يومئذ مبالغة في التنبيه والتذكير (٢) . اذ ليس من المعقول ان يدعو الى مغادرة دار الجهاد والتولي يوم الزحف وهو الزاهد الفقيه

وقد كثرت قصائد الرثاء لتلك المدن والثغور ، وما يهمنا من هذه القصائد : كم نبهت الى عيوب المجتمع وأدوائه ، ودعت الى الاصلاح والتوحيد ؟

هذا شاعر اندلسي مجهول يبكي ويندب طليطلة لكنه سرعان ما يتوجه الى الدعوة لتوحيد الكلمة ورأب الصدع ويشخص السبب المباشر لتمكن العدو منهم وتفرق كلمة الحكام . وسعي كل بالاخر وشيوع الظلم والفسق والفجور وأكل الحرام ، وكثرة المعاصي وهي لا تعدو الاسباب التي نبه.

---

(١) نفح الطيب ٤/ ٣٥٢ وينظر وفيات الاعيان ٥/٢٨ ورايات المبرزين ٥٠ حيث وردت بروايات .

(٢) تاريخ الأدب العربي — عصر الطوائف والمرابطين ١٨٣ .

اليها الفقهاء والعلماء في دعوتهم الى توحيد الاندلس ، استمع اليه وهو يصف أثر سقوط طليطلة على نفسه (١) :

لثكلك كيفَ تَبتسم الثُّغور
سُروراً بعدما سُبيَت ثغورُ

لقد قصمت ظهورٌ حين قالوا
أميرُ الكافرينَ له ظهورُ

أليس بها أبيٌّ النفس شهم
يدير على الدّوائر إذْ تدورُ ؟

لقد خضعت رقاب كنّ غلباً
وزال عتوُّها ومضى النفور

وبعد ان يستعرض آثار سقوط طليطلة ، ينتقل الى تشخيص الداء وسبب المصاب فيقول :

فأن قلنا العقوبة أدركتهم
وجاءَهم من الله النكير

فإنا مثلهم وأشدَّ منهم
نجور وكيف يسلم من يجورُ ؟

أنأمنُ أنْ يَحلَّ بنا انتقامٌ
وفينا الفِسقُ أجمعُ والفُجورُ

وأكلٌ للحرامِ ولا اضطرارٌ
اليه فيَسهلُ الأمرُ العَسير ؟

يزول السِّتر عن قومٍ إذا ما
على العصيان أرخيت السّتور

وموتوا كلكم فالموتُ أولى
بكم من أن تُجاروا أو تجوروا

---

(١) نفح الطيب ٤/٤٨٣–٤٨٦ .

وينفد صبره إزاء هذه الحال ويذهب يقينه ويحاول أنْ يَستدرك الأُمور قبل أن تفلت وتضيع - فيدعو للجهاد والصبر على البلاء :

أصبرٌ بعدَ سَبي وامتحان
يُلامُ عليهما القلبُ الصبّورُ

لقدْ ذهبَ اليقينُ فلا يقينٌ
وغرَّ القوم بالله الغرورُ

ولا تجنحْ الى سِلمٍ وحَاربْ
عَسى أنْ يُجبرَ العَظم الكسيرُ

اذا ما لم يكنْ صبرٌ جميلٌ
فليسَ بنافعٍ عددٌ كثيرُ

ثم يطلب الرجل المنقذ . صاحب الرأي الأصيل ليقود إلى النصر :

ألا رجلٌ له رأى أصيل
به مما نحاذرُ نستجيرُ ؟

ونرجو أن يتيح الله نصراً
عليهم أنّه نعم النصير

وعلى هذه الوتيرة تمضي القصيدة في سبعين بيتا . . .

وبمثل هذا التشخيص لاسباب نكبة طليطلة يبدأ الالبيري ابياته في خراب البيرة بعد الفتنة البربرية سنة ٤٠٠ ﻫ بقوله :

يُضَيَّع مفروضٌ ويغفَلُ واجبٌ
واني على أهلِ الزّمان لعاتبُ .

ثم يختمها بقوله :

يخاطبنا ان قد أخذت بذنبكم
وما احد منكمُ عن الذنب تائبُ

وأنْ قد قستْ أكبادكم وقلُوبكم
وما منكم داعٍ إلى الله راغبُ

لشكلكم أولى وأجدر بالبُكا
على مِثلِه حقاً تقوم النّوادب (١)

لقد لقيت أمثال هذه القصائد آذانا صاغية وساهمت في الاتجاه للدعوة إلى توحيد ملوك الطوائف. وقبل سقوط طليطلة نشأت هذه الدعّوة وسار بها دعاة منهم الفقيه ابو الوليد الباجي (ت ٤٧٤ هـ)، رحل من الأندلس سنة ٤٢٦ هـ إلى بلاد المشرق وتولى هناك القضاء، وعاد ادراجه « وملوكها أضداد، وأهواء أهلها ضغائن واحقاد، وعزائمهم في الارض فساد وإفساد فأسف على ما ضيعه. . . ورفع صوته بالاحتساب ومشى بين ملوك أهل الجزيرة بصلة ما انبتّ من تلك الاسباب. فقام مقام مؤمن آل فرعون. . (٢) وللباجي الفقيه شعر جمعه في ديوان ابنه ابو القاسم وما وصل من شعره لا يمثل جهده وسعيه لتوحيد ملوك الطوائف كما تحدثنا عنه المصادر (٣) لكنه يعكس صورة العالم العامل بعلمه الزاهد في الدنيا الشاكر لأنعمه . . وهو يشير إلى النِّقم التي حلّت بالعباد، في نزعة يأس :

وإن ما بالعباد من نقم
فإنّ مولى الأنام موليها (٣)

ومن الذين دعوا إلى وحدة الكلمة : ابو المعالي إدريس بن يحيى الواعظ (من اهل اشبيلية) ذكر ابن الأبار : أنّه كانَ يجول في البلاد يعظ الناس ويذكرهم وقد سُمع ينشد في رحبةِ القاضي في بلنسية ابياتاً منها :

أنا في الغربة أبكي ما بكتْ عينُ غريبِ
لم أكنْ يومَ خروجي من بلادي بمصيبِ
عجبالي ولتركي وطنا فيه حبيبي (٤)

---

(١) ديوان الالبيري ٧٣ - ٧٦ .
(٢) الذخيرة ٨١/١/٢ .
(٣) نفسه ٨٧/١/٢ .
(٤) التكملة ١٩٦/١ .

انه يترك أوطانه لانه ازاء حالة لاخيار له فيها غير الرّحيل !

ولم تنته الدعوة إلى توحيد ملوك الاندلس إلى ثمرة، فاستعانوا بجيرانهم وكان القدوم الميمون، قدوم المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين بعد دعوة العلماء والفقهاء، وكانت مأثرة الزّلاقة التي اعادت للاندلس وحدتها، ثابتة امام عوادي الزمن قروناً أخرى.

ولدينا أمثلة كثيرة للنقد السياسي المشوب بتجارب شخصية لشعراء النقد الذي يصدر عن دوافع خاصة، فيأتي مقترناً بموقف ذاتي وحيف ينال الشاعر من حاكمه فينتقم لما ناله من أذى وجور، ناقداً الحاكم كالذي حصل لابي الوليد ابن زيدون حيث زجّ به أبو الحزم بن جهور في السجن فكان أن قال :

قُل للوَزيرِ وقد قَطعتُ بمدحه
زَمني فكانَ السّجن منه ثوابي

لا تخشى لائمتي بما قد جئته
من ذاك فيَّ ولا توقّ عتابي

لم تُخطِ في أمري الصواب موفقاً
هذا جزاءُ الشّاعرِ الكذّاب ! ! (١)

وحين يتَسور أحدهم على الآخر ويقتله لينالَ منصبه، لا يعدم من يترصد عليه هذا الاسلوب المستهجن في الطمع بالحكم، فابو عبد الرحمن محمد بن طاهر (ت ٥٠٨هـ) يخاطب القاضي ابن جحاف الاخيف الذي قتل يحيى بن اسماعيل بن ذنون، وانتقل من خطة القضاء إلى خطة الرئاسة ويقول :

أيُها الأَخيفُ مهلاً
فلقدْ جئت عَويصا

(١) ديوان ابن زيدون ٥٩١ .

إذْ قَتلتَ الملكَ يحيى
وتقمَّصتَ القميصا
رُبَّ يومٍ فيه تَجرِي
لم تجدْ عنه محيصا (١)

وتَصدُقُ أبيات ابن طاهر فيه، إذْ لم يجدْ محيصاً حين دخول السيِّد الكمبيطور إلى بلنسية ويكون حتفه على يديه، وتدور الدوائر ليكون ابن طاهر نفسه هدفاً من قبل ابن عمار (ت ٤٧٧ هـ) إذ يقتله بعد أن يدخل مرسية فاتحاً، ومنها يوجه ابن عمار أبياته يدعو اهل بلنسية إلى الثورة على أبي بكر بن عبد العزيز والقصيدة طويلة يصدر فيها بدافع الحقد الاسود على ابن طاهر وابن عبد العزيز ليس الا :

بشِّر بلنسيةَ وكانتْ جنةً
أنْ قد تَدلَّتْ في سواء النّار
جازوا بني عبدِ العزيز فإنهم
جَرُّوا اليكم أسوأ الأقدار
ثوروا بهم متأولين وقتِّلوا
ملكاً يقومُ على العِدا بشَنارِ
هذا محمدٌ او فَهذا أحمدٌ
وكلاهما أهلٌ لتلكَ الدار
جاء الوزيرُ بها ليكشفَ ذَيلَها
عن سوأةٍ سُوأَى وعار عار
نكث اليمينَ وحادَ عن سنن التقَى
وقَضى على الإقبال بالإدبار

---

(١) الحلة السيراء ١٢٥/٢ والاخيف : اذا كانت احدى عينيه زرقاء والاخرى سوداء وكذلك هو من كل شيء .

ما كنتُم الا كناقةِ صَالح
فرماكمُ عن صالح بقدار
وانا النّصيح فإنْ قبلتم فاتركوا
آثارَها خبراً من الاخبار (١)

ومن خلال ما تقدم يمكننا ان نقرر بأن النقد الموجه إلى الحكام ـ المباشر وغير المباشر، كان بدوافع اصلاحية محضة او بدوافع ذاتية ـ وهذا النقد لم يكن خافتاً كما رأى الدكتور احسان عباس، وانما كان جهيراً قوياً، ولا سيما بحلول الازمات، كذلك لم ينسق الادب بولاء اقليمي قاصر النظرة محدود الافق، انما ظلت « الاندلس » هي الغاية حتى نهاية المطاف.

النقد الاجتماعي :

ذكرنا آنفاً ـ أنَّ المجتمع الاندلسي حوى من عناصر تعقيده عوامل كثيرة وفي عصر الطوائف كان يمر في منحنىً خطير . . . إذ لم يكن بمعزل عن الاحداث السياسية. وكان دور النقد السياسي والاجتماعي في عملية التفاعل دوراً متكاملا كطرفي المقص او كوجهي العملة النقدية وتباينت مواقف الشعراء إزاء الأحداث وتنوعت ردود فعلهم تجاهها فمنهم من وجد الانقباض أجلّ شيىء وأدعى إلى السّلامة. ومنهم من أقبل على المتع والملذات، يعب من كؤوسها ما شاء دون أنْ يَعبأ بمسؤوليته ازاء العدو الجاثم ولاذ آخرون بالمجون والخمرة ووجدوا فيها عزاء وتسلية عن الاحداث المُؤرِّقة واستغرق هذا الاتجاه طاقة الشاعر الفنية فاقبل على ذاته وانصرف لتحقيق حاجاته الحسّية ومطالبه الوجدانية. وقبع في برجه العاجي وانقطع عن مشكلات المجتمع وتطلعاته، ولم يرعَها حقها من الرعاية وقد وقف عدد من الدّارسين عند هذه المواقف.

والوجه الآخر هو الذي يمثل لنا الشاعر في مجتمعه واحداً بين مجموعة، يَذبُّ عنه وينافح، ويرفع عنه أوزاره بمساهمته في عملية الاصلاح ملتزماً

(١) دول الطوائف ١٧٨ .

بالقيم الخلقية والفضائل الاسلامية لا يثنيه من ذلك ذهاب مكانه وحلول حرمانه .

ان الدارس يجد آثار التفكك الاجتماعي واضحة فمن مظاهرها لجوء عددمن الشعراء الى الشكوى من الزمان وهو - ولاريب - انعكاس لاضطراب العصر ، ينقل لنا صورة حية للمجتمع ساعة تراجعه وتخاذله منبها الى سوء العاقبة استمع الى ابن شهيد (ت٤٢٦هـ) يقول :

كأنَّ الدَّجى همي ودمعي نجومه
تحدَّرُ اشفاقاً لدَهرِ الأراذِلِ
هوتْ أنجم العلياء الا اقلها
وغبنَ بما يحظى به كل عاقل
أرى حُمُراً فوقَ الصَّواهل جَمَّةً
فأبكي بعيني ذلَّ تلك الصَّواهل
واصبحتُ في خلف اذا ما لمحتهم
تبينت ان الجهل احدى الفضائل
وما طابَ في هذي البريَّة آخر
اذا هو لم يُنْجَدْ بطيب الاوائل(١)

وابو عبدالله محمد بن سليمان بن عبدالواحد الانصاري (ت ٥٠٠هـ) يصور أختلال الامور وارتقاء الاسافل وغياب الاشراف :

كانَ الزَّمان وكانَ النَّاسُ أشبهه
فاليوم فوضى فلا دهر ولا ناس
أسافلٌ قد علَتْ لم تَعلُ عن كرم
ومشرفات الاعالي منه انكاس (٢)

---

(١) ديوان ابن شهيد رقم ٥٤.

(٢) المرقبة العليا ١٠٠ .

واما ابو عبدالله محمد بن احمد بن الحداد (ت٤٨٠هـ) فانه يضطر الى الخروج من المرية بعد اعتقال اخيه فيها فيكتب من مرسية ابياته :

الدهر لاينفك من حد ثانه
والمرءُ منقاد لحكم زمانه

فدع الزمانَ فانّه لم يعتمد
بجلاله احداً ولا بهوانه

وعلمت أن السعي ليس بمنجح
مالا يكون السعد من اعوانه (١)

وتلك الحال ، وهذ النظرة للحياة تدعوه الى الانزواء والانعطاف على النفس والانقطاع عن المجتمع يقول :

لزمت قناعتي وقعدتُ عنهم
فلستُ أرى الوزير ولا الاميرا

وكنتُ سمير أشعاري سفاها
فعدتُ بها لفلسفتي سميرا (٢)

واذا توغلنا الى أبعاد اخرى للحالة السياسية المضطربة وقفنا على حالة كثيراً ما تطالعنا وهي ثمرة طبيعية وسمت المجتمع عهد الطوائف . وتلك الحالة هي شعور عدد من أبناء الاندلس بالغربة النفسية وعدم الاستقرار وهو الذي يدفعهم الى الضرب في الافاق والتجول في البلدان لا يقرون على قرار ، فعلي بن عبد الرحمن بن يوسف بن يحى الخزرجي الطبيب (٣) من طليطلة ، لما استولى القشتاليون على طليطلة سنة ٤٧٨هـ غادرها وتجول في مختلف ربوع الاندلس ونزل بطليوس ثم اشبيلية ثم قرطبة وبها توفي سنة ٤٩٩هـ .

---

(١) الذخيرة ٢٣١/٢/١ .

(٢) نفسه ٢٠١/٢/١ ، نفح الطيب ٥٠٢/٣ .

(٣) الذيل والتكملة ٢٥١/١/٥ .

وابن لبون ابو عيسى لبون بن عبد العزيز (توفي حوالي ٥٠٠هـ) رأس بمربيطير ثم تخلى عنها لابي مروان عبد الملك بن رزين صاحب شنتمرية الشرق ايام تغلب الكمبيطور على بلنسية ، واحراقه لرئيسها ابي احمد بن جحاف وسار معه الى شنتمرية ثم ندم بعد ذلك واستقل ما كان يجري عليه فقال :

ذَروني أَجبْ شَرقَ البلادِ وغربَها
لأشفي نَفسي وأموت بدائي
فلستُ كَكلب السُّوءِ يُرضيه مربضٌ
وعظم ولكنني عُقاب سماء
تحوم لكيما يدرك الخطب حومها
امام امامي او وراء ورائي (١)

وله ابيات أخرى ينتقد فيها الزمان الذي مزق دولته .(٢)

ويناظر ابن لبون في شعوره بالغربة والقلق ابو بكر محمد بن قاسم المعروف بأشكهباط أصله من وادي الحجارة ونشأ بقرطبة وقد غادر الاندلس «عند تقلب دولها وتحول ملوكها وخولها فجال في العراق وقاس ألم الفراق (٣) وله وقد اجتاز بحلب :

أين أقصى الغرب من أرض حلب
أملٌ في الغرب موصول التعب
حنَّ من شَوقٍ الى أوطانه
من جَفاهُ صَبرُه لما اغترب
جال في الأرض لجاجاً حائراً
بين شوق وعناء ونصب

ومنها :

---

(١) الحلة السيراء ٢/١٦٧ .
(٢) نفسه ٢/٢٦٧ .
(٣) النفح ٢/٥٥ .

يا أحبَّائي اسمعوا بعض الذي
يتلقاه الطّريد المغترب
وليكن زجراً لكم عن غربة
يرجع الرأس لديها كالذنب
ولئن قاسيتُ ما قاسيته
فبما ابصر لحظي من عجب(١)

ان هذه الحالة تمثل صورة من صور الاحتجاج ـ وبشكل غير مباشر على الحالة الاجتماعية التي احتوت على متناقضات كثيرة ...وهذا الاسلوب يمثل اضعف الايمان عند هذه الطائفة من الشعراء ، وهو يتمثل عند طائفة اخرى بالجرأة وتشخيص الادواء وتحديد المعوِّقات في مسيرة المجتمع ، ومن هذه الادواء ، طغيان بعض الفقهاء واستبدادهم بالامور وانتفاعهم من من مكانتهم الاجتماعية بعد ان تسنموا مقام الصدارة في المجتمع ، وصادف ذلك غفلة الحكام فانبرى لهم الشعراء يهتكون اقنعتهم التي تواروا خلفها خلفها استمع الى ابن خفاجة (ت٥٣٣هـ) يقول :

درسوا العلوم ليملكوا بجدالهم
فيها صدور مراتب ومجالس
وتزهَّدوا حتى أصابوا فرصة
في أخذ مال مساجدٍ وكنائس (٢)

وينعتهم أبو جعفر بن البني (ت ٤٨٨ هـ) بانهمّ من أهل الرياء، ذئاب تستّروا بالظلام، وانما يعرِّض في أبياته بالقاضي ابي عبدالله محمد بن حمدين قاضي قرطبة :

---

(١) المغرب ٣١/٢ ، وينظر موقف الامير عبد الله بن هود في المغرب ٤٣٥/٢ .

(٢) ديوان ابن خفاجة رقم ٣٠٥ .

أهل الرياء لبستم ناموسكم
كذئب أدلج في الظلام العاتم
فملكتم الدنيا بمذهب مالك
وقسمتم الاموال بابن القاسم
وركبتم شهب الدواب بأشهب
وباصبغ صبغت لكم في العالم (١)

ولا يختلف ابن صارة الاندلسي (ت٥١٧ هـ) في كثير عن ابن النبي فهو يراهم ذئاباً تبدو في ثياب ملونة :

ياذئاباً بدت لنا
في ثياب ملونة
أحلالا رأيتم
أكلنا في المدونة (٢)

ويبالغ أبو اسحاق الالبيري في نعت الفقهاء حين يشتاق إلى حيّه (حي العُقاب) فيجد الذئاب أسلم من الفقهاء :

ألا حَيِّ العُقابِ وقاطنيه
وقُلْ أهلاً به وبزائريه
حَللتُ فيه فنفَى ما بنفسي
وآنسني فما استوحشت فيه
وكمْ ذيبٍ نُجاوره ولكنْ
رأيتُ الذيبَ أسلم من فقيه (٣)

---

(١) المعجب ٢٣٥ . وفي زادا لمسافر ١١٢ نسبت الابيات لا بي بكر أحمد بن محمد الابيض الاشبيلي (توفي بعد ٥٣٠هـ) وابن القاسم ابو عبد الله عبد الرحمن (ت ١٩١هـ) واشهب بن عبد العزيز القيسي (ت ٢٠٤هـ) صاحب الامام مالك واصبغ بن الفرج من كبار المالكية (ت ٢٥٠ هـ) .

(٢) الخريدة ٢/٣٣٠ ، ابن صارة الاندلسي ٩٤ .

(٣) حي العقاب : حصن قريب من البيرة انتسب اليه الشاعر .

(٤) ديوان ابي اسحاق الالبيري ٧٢ .

وينكر ابن شهيد على طائفة من الفقهاء تمسكهم بحفظ المسائل مجردة من خشية الله وتقواه فيقول :

وناقلُ فقهٍ لمْ يرَ اللهَ قلبُهُ
يظنُّ بأنَّ الدِّين حفظُ المسائل (١)

ان هذا الموقف المريب من الفقهاء يعكس لنا صورة عن ممارسات منحرفة لهم وكان المعول عليهم في شؤون الدولة ، وبلغوا مكانة كبيرة جداً ، حتى أنَّ الامير علي بن يوسف بن تاشفين – في عهد المرابطين – كان لايبرم أمراً ولايصدر حكماً قبل استشارتهم (٢) .

ولنا بعد هذا أن نتساءل أكان ذلك النقد الموجه للفقهاء وتلك الشكوى فيهم أكانت تمثل موقفاً خاصاً من شاعر ازاء فقيه او لعلها تجارب محدودة تتسم بالطابع الشخصي الفردي ؟ يجاب على ذلك بأنه ليس لدينا مايقطع برأي لان سياق الابيات في المصادر لايحدد ذلك لكننا نستطيع ان نقول بأن هذا الحكم لاينسحب في الكثير – على الفقهاء جميعهم ، اذ كانت مواقف قسم آخر منهم ايجابية ، فمنهم من قادر دعوة ضد حاكم حين رآه يستخذي معترضاً على عمل ابن هود بدفعة الضريبة للروم قائلاً : هذا لايكون وانا حي في الدنيا ، ثم اتصل بالامير ووعظه لكن الامير قتله خوفاً من أن يتجاسر غيره على أن يفعل مثل فعله (٣) .

ومن التجارب المقترنة بمواقف خاصة ماجاء في ديوان الالبيري الذي يذكر بأن أبا بكر بن الحجاج هجا القاضي ابا الحسن بن توبة وجماعة من الفقهاء معه ، بقصد الاساءة اليه ، فحكا ذلك عنهم الالبيري في قصيدة يذكر فيها كيف عوقب جزاء فعله ومنها هذان البيتان :

---

(١) ديوان ابن شهيد ١٤٤ .

(٢) المعجب ٢٣٥ .

(٣) البيان المغرب ٢٢٩/٣ ، ويقال ات المقتدر مامات حتى كان ينبح كما تنبح الكلاب لدعوة ذلك الرجل الصالح عليه وتوفي سنة ٤٧٥ هـ .

السوط أبلغ من قال ومن قيل ومن نُباح سفيه بالاباطيل
واذكر عقوبة مازوّرته سفها في السادة الشم البهاليل (١)

كذلك نجد الشعراء يقفون موقفاً صارماً من تجاوزات القضاة ، وانتصفوا منهم ، فحين يستبد ابن الاستاذ في بطليوس فيقطع جراية بعض الناس ، وكان قد تولى خطة الاشراف تهكم منه ابن اللبانة في بيتين يقول فيهما :

معشرَ الأضياف ضُجّوا قد أتى الدهرُ بآية
قد أتاكمْ بنبيٍّ شرعُه قطعُ الجراية

يقول ابن بسام ، فطارَ هذان البيتان فيه ، وكانا السبب في أن نكب (٢)

وتأخذ صورة النقد الاجتماعي بعداً آخر حين يرفع أهل البيرة الشكوى على قاضيهم ابن ابي زمنين ، فينقد موقفهم هذا ابو اسحاق الالبيري في قصيدة منها :

رفعتمْ على قاضيكم فخفضتم وحاولتم خزياً له فخزيتم
وطال لعمرى ماسعدتُم بسعده ولو أنه يشقى إذنْ لشقيتم
وما كان الاستركم لو عقلتُم ولكنكمُ عن رشدكم قد عميتم(٣)

وقد اقترنت بعض مظاهر الفساد الاجتماعي بالوزراء ، اذ كان عدد منهم يُمنّي نفسه بالاستقلال ببعض الثغور كالذي حصل لابن عمار الأندلسي الذي سلك مسالك شتى لتحقيق أربه وحين يتولى ابن النغريلة - اسماعيل بن يوسف الوزارة والكتابة في عهد باديس بن حبوس كان أمره شغل أهل غرناطة الصنهاجيين ، بعد أن أفسد في الارض وتسلط على العباد ، وقيل عنه كلام في القرآن الكريم وسمح لقومه باستغلال السلطة ، استغلالا سيئاً مما جعل العقلاء وأهل الأندلس يَتنبّهُونَ إلى تفاقم الخطر من تمكن الوزير وتسلطه فقال في ذلك أبو الحسن بن الجد :

تحكمت اليهود على الفروج وتاهت بالبغال وبالسروج
وقامت دولة الانذال فينا وصار الحكم فينا للعلوج

---

(١) ديوان ابي اسحاق الالبيري ١٠٩ - ١١٠ .
(٢) الذخيرة (مخطوط) ٣/٣٦٧ .
(٣) ديوان الالبيري ١٠٧ .

فقل للاعور الدَّجال هذا زمانك إن عزمت على الخروج (١)

وكان من أبرز الذين نَبهوا إلى خطرهم ابو اسحاق الالبيري الفقيه الزاهد:

ألا قُلْ لِصنهاجةٍ أجمعين بدور الندى واسد العرينْ
مقالة ذي مقةٍ مشفق صحيح النصيحة دنيا ودينْ
لقد زَلَّ سيّدكم زلةً تقرّ لها أَعين الشّامتين
تخيّر كاتباً كافراً ولو شاءَ من المسلمين (٢)

وتمضي القصيدة في ثمانية وأربعين بيتاً على هذا النسق من التعليل لاسباب الدعوة لخلع ابن النغريلة ، واستبعاد قومه وفيها يتساءل عن سبب تهاون باديس في امره ويصف ابن النغريلة بالفسوق ـ وان الارض تضج لفسقهم ويهيب به أن يطهر الارض منهم . لانهم قسموا غرناطة واغتنموا بجبايتها، واخلوا بخيراتها وجاروا على المسلمين بفعلهم ويدعوه إلى الأنتقام منه فيقول:

وقد قسَّموها واعمالها فمنهم بكل مكان لعين
وهم يقبضون جبايتها وهم يخضمون وهم (٥)يقضمون
وهم يلبسون رفيع الكسا وانتم لأوضعها لابسون
ويأكل غيرهم درهماً فيقصي ويدنون إذْ يأكلون
فبادر إلى ذبحه قربة وضحٍّ به فهو كبش سمين
ولا تَحسبن قتلهم غَدره بل الغدر في تركهم يعبثون

وكان قد بلغ الامر بابن النغريلة أنْ سمَّ «بلقين بن باديس» الملقب بسيف الدولة حين علم بصدور وعيد منه لابيه ، فهجمت جمهرة العامة على دار اليهودي فاخرجته وقتلته وفتكت بقومه وجعلتهم بين قتيل وشريد .

---

(١) الذخيرة (مخطوط) ٣٥٤/٢ .

(٢) ديوان الالبيري ٩٦ – ١٠٠ نفح الطيب ٣٢٢/٤ .

(٥) يخضمون من الخضم وهو الاكل بجميع الفم .

رأى ابن الخطيب ان السبب المباشر في القضاء على ابن النغريلة قصيدة الالبيري ،ورأى غومس : انها سبب واحد بين اسباب اخرى كثيرة (١) ولكنها على كل حال كانت الشرارة التي اشعلت فتيل الثورة التي كانت تغلي في قلوب الكثيرين . ولم ينفرد الالبيري في موقفه وقصيدته ، وانما نحا نحوه آخرون ومنهم السميسر ، وتقدمت ابياته في ذلك . وابن حزم الاندلسي الاديب الفقيه الذي كتب رسالته في الرد على ابن النغريلة ، ناقشه فيها وقارعه في أمور دينه (٢) . وحادث ابن النغريلة ومشاركة الالبيري فيه ، يريانا كيف خاض الادب الاندلسي غمار الاحداث وان ثورة الشاعر على الجور والاهمال لم تكن فردية ، كما رأى الدكتور احسان عباس (٣) .

وقد ترفع رقعة بالشكوى إلى الحاكم ، يُحتجّ فيها على العمال ، وهو مايمثل ظاهرة سلبية تحتاج إلى تصحيح او اعادة نظر ، وفي هذا يقول الجزار السرقسطي من ابيات وقع بها يرد فيها على شكوى بعض الناس:

نَسَبْتُمُ الجورَ لعمالكم ونمتمُ عن سُوءِ أفعالكمْ
لاتَنسبوا الجورَ اليهم فما عمالكم إلا كأعمالكمْ
تاللّه لو ملكتم ساعةً ماخطرَ العدلُ على بالكمْ (٤)

انه يوجه اليهم عين التهمة التي وجهوها إلى عمالهم ، وكأنه يريد ان يقول لهم هذا جزاء أعمالكم ، فلا تلوموا إلا أنفسكم .

وبعد أن وقفنا على نماذج من الشعر المنتقد للفقهاء والوزراء ، حيث بدأت لنا صورة من صور النقد الاجتماعي ، نتساءل هل استطاع الشعر الأندلسي أن يتوغل إلى نقد الحالة الاقتصادية وما اقترنت به من اثراء فاحش لدى بعض،

---

(١) مع شعراء الاندلس والمتنبي ١٢٦ .
(٢) الرد على ابن النغريلة اليهودي ورسائل أخرى تحقيق د. احسان عباس دار العروبة القاهرة ١٩٦٠ .
(٣) تاريخ الادب الاندلسي – عصر الطوائف والمرابطين ١٤٦ .
(٤) زاد المسافر ١٤١ .

يقابله فقر وحرمان لدى بعض آخر ، لانجد اتجاهاً مباشراً في هذا المجال ولكن يمكننا أن نَعدَّ بعض قصائد الزهد مندرجة فيه اذ ان شعراء الزهد كانوا دعاة للتخفيف من لأواء التوجه إلى مطالب الدنيا وزينتها ، محاولين الحد من غلواء الاغراق في مفاسدها ،وشق طريق لاصلاح المجتمع وتبرئته من هذه الأوضار التي شانت صورته. وقد عرّف عصر الطوائف اعلاماً تخصصوا فيه ومنهم ابن العسال والباجي الالبيري ، ونجد هذا التيار واضحاً كذلك لدى شعراء آخرين منهم ابن حزم وابن حمديس وابن خفاجة ، ولا سيما في أخريات حياتهم .

وشعراء الزهد الذين يعنينا شعرهم ، اولئك الذين اتصلوا بمجتمعهم في دعوتهم الزاهدة فالالبيري لم يكن انقطاعه الزهدي عزلة سالبية الطابع ، وهو الذي وصل بشعره الزهدي في الادب العربي لافي الاندلس فحسب — إلى قمة (١) ، فهو يرى أن الانسياق وراء الدنيا رأس الداء ، وان الانخداع ببريقها غفلة كبيرة ، وهي التي نصبت شباكها في كل مكان للاغراء والاغواء:

من ليس بالباكي ولا المتباكي لقبيح مايأتي فليس بزاكِ
نادت بي الدنيا فقلت لها أقصري ماعُدَّ في الأكياس من لبّاكِ
ولمّا صفا عند الاله ولادنا منه امرؤ صافاك اوداناك (٢)

ويخاطب ابنه في قصيدته التائية ، والتي هي صورة للمفاهيم المغلوطة لترجيح كفّة الترف والمال على العلم فيقدم معه موازنة في هذا المجال :

وما يغنيك تشييدُ المباني اذا بالجهل نفسك قد هدمتا
جعلت المال فوقَ العلم جَهلاً لعمرك في القضية ماعدلتا
وبينهما بنصِ الوحي بونٌ ستعلمه اذا (طه) قرأتا
لئنْ رفعَ الغنيُّ لواءَ مالٍ لأنتَ لواءَ عِلمكَ قد رَفعتا

---

(١) تاريخ الادب الاندلسي — عصر الطوائف والمرابطين ١٣٦.
(٢) ديوان الالبيري ٣٤

فليستْ هذه الدنيـا بشيء تسوؤك حقبة وتسرّ وقتاً (١)

ويسلك الالبيري سبيل الترهيب والترغيب ، في قصيدتين متفردتين في ديوانه يقرع في الاولى ناقوس «النار» قرعات قوية يذكرّ الغارقين في ذنوبهم الساربين وراء شهواتهم ، ويصورهم نادمين تائبين لهول مانالوا عن عذاب:

ويلٌ لأهلِ النار في النـار ماذا يقاسون من النّـار
تنقدُ من غَيظٍ فتغلي بهم كمِرجلٍ يَغلِـي عَـلى النّار
لاراحـةٌ فيـه لا فتـرة هيهـات لاراحة في النّـار (٢)

وفي قصيدة أخرى يبنيها على لفظة الجلالة «الله» على نحو من «التسبيحة» كما يرى الدكتور إحسان عباس (٣) يذكر الله ثلاثاً وخمسين مرّة في مناجاة عذبة ، وهيام روحي ، وتذكير للمغترين بعفو الله :

ياأيهـا المغتـر بـاللـــه فـرَّ مـن الله إلـى اللـــه
ولُذ بـه واسألـه مـن فضلـه فحبـذا مـن لاذ بـاللـــه
وقـم لـه والليل في جنحـه فحبـذا مـن قـام للـــه
واتـلُ مـن الوحـي ولو آيـةً تُكْسَ بهـا نـوراً مـن الله(٤)

وهو يذكّر طالبي الدنيا بأن الجاه الحقيقي هو التقوى ، والسعادة الحقيقية هي الجنّة ، ويدعو الناس للتذكر والاستعبار بما فوق الارض وماتحتها من أمم انقرضت ، وما في السماء من افلاك تجري ، وان الاطمئنان لايكون إلا بذكر الله والشكر لنعمائه ، وهو باصحابه مفض إلى رضوان الله والامن، ويعجب من الشيخ المتصابي والجاهل الغافل حتّى يمتلأ قلبه هلعاً من المصير المحتوم يوم تكشف السوءات المستورة امام الناس ، وتنكس الاذقان إلى الارض.

والقصيدتان الآنفتان بمستوى فني واحد ، يخرج فيهما على نظام القافية بالتزام لفظتي «النار» و «الله» في كل منهما ، وتكرارها في ضرب كل بيت، ويختار لها بحر السريع بتفعيلاته المتقاربة واجزائه المتلاحقة ، حيث تلهث

---

(١) نفسه ٢٢ - ٢٣ .

(٢) نفسه ٩٠ .

(٣) تاريخ الادب الاندلسي - عصر الطوائف والمرابطين ١٣٧.

(٤) ديوان ابي اسحاق الالبيري ٦٥.

أنفاسه فيهما ، ويلحف في طلبه فيلقي الروع في قلوب الغافلين تارة بلفظ الجلالة «الله» وأخرى بلفظة «النار» فتنهال اللفظتان كالمطارق المتوالية في أذن السامع ويبقى صداها لأمد بعيد : وتكرار اللفظة في هذا الموضع «الحاح على جهة هامة في العبادة يعني لها الشاعر اكثر من عنايته بسواها » (١)

والسميسر هو الاخر يخاطب المجتمع الاندلسي ويدعوه إلى الاعراض عن سفاسف الدنيا ، والتفكر في عواقب الامور :

جملـــة الدنيـــا ذهابْ ... مثلمـــا قالوا ســرابْ
والـــذي فيهـــا مشيدْ ... فخـــراب ويبابْ

ويذكره بالاخرة ويوم الحساب :

وليوم الحشر انعـــام ... ســؤال وجوابْ
وصراط مستقيـــم ... يـــوم لايطـــوى كتابْ
فـــاتـــق الله وجنب ... كل مافيـــه حسابْ (٢)

واذا كان من مهمات البحث ، وهو يتناول النقد الاجتماعي — ان يتعرف على موقف الشعراء من تيارات المجون والغزل الشاذ ، ومواجهته ومحاولة الحدّ منه ، فإنّ النصوص في هذا الموضوع قليلة ولاتكاد تسعف ، ولعل مرّد هذه الظاهرة يعود إلى ان الشعراء الاندلسيين كانوا في مجونهم مثالا للرزانة فلم يخلعوا ثوب الوقار او ينزلوا إلى المستوى المرذول (٣) ليس هذا فحسب انما لم يلابس مجونهم ما لابس مجون العباسيين من زندقة وكفر ودعوة شعوبية تقصد النيل من القيم والمثل ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نجد عدداً من الشعراء يوصد باب النقد عنه، ويصرف النظر عن اشعاره الماجنة والمنحرفة فيذكر بانها لاتمثل واقعاً من حياته ، وانه يسلك فيها سبيل الاحماض ، ويقوله بطريق الفكاهة والنادرة والدعابة (٤) .

---

(١) قضايا الشعر المعاصر ٢٤٢.
(٢) الذخيرة ١/٢/٣٧٧ .
(٣) تاريخ الادب العربي في الاندلس ٢٠٦ .
(٤) مقدمة ديوان ابن خفاجة ١٣ ، وينظر كذلك قوله في مقدمة الديوان ١٠ – ١١ ، ينظر طوق الحمامة ١١٤ (تحقيق حسن كامل الصرفي – المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة ١٩٦٢).

وفي هذا المجال يرى الدكتور احسان عباس أنّ الدراسة الدقيقة لهذا اللون من الشعر تؤكد ان ليس فيه اصرار على التبذل من اجل التبذل نفسه ، ليس فيه اتخاذ المجون مذهب حياة إلى جانب اتخاذه ألهية أدبية .. ليس بين شعراء الاندلس شاعر من طراز ابن الحجاج وابن سكرة وصريع الدلاء وغيرهم ... ان هناك من الاسباب مايحمل على الاعتقاد بان ابن زيدون لم يكتب رسالته الهزلية الا محاكاة للتربيع والتدوير ، وان ولادة لم ترها وان عبدوس لم يتسلمها وهناك من الاسباب مايسوغ في ان اقول : ان ابا جعفر بن الابار حين يقول قصيدة في الحب المتعفف كان يحاول ابراز براعته الادبية وتفننه الشعرى ، وحين نقرأ قطعة مجونية لابن حصن الاشبيلي ثم نجده يقول في آخرها :

لم أنل من كل مافهت به غير التمني
انما الشعر فكاهات وحسبي حسن ظني

ندرك انه يتعابث ، ويجد في العبث ملحة وطرافة (١)

ويسلمنا الحديث بعد هذه الوقفة المتأنية عند نماذج من شعر النقد الاجتماعي إلى اعتبار تلك الاشعار ومضات مشرقة تدل على اصالة بنية المجتمع الاندلسي ومشاركته في الاحداث محاولا درء الاخطار وايقاف التيار او التخفيف منه، والشعراء بعد هذا ليسوا مقصرين في الشعر الاجتماعي كما يرى الدكتور سعد اسماعيل شلبي معللا ذلك بعدم ظهور قادة منكرين او دعاة مصلحين ينقدون المجتمع ويقودون الجماهير نحو المثل العالية (٢) .

وبعد فما القيمة الفنية التي انطوى عليها شعر النقد السياسي والاجتماعي في الاندلس ، على عهد الطوائف ؟ لقد سقت بين يدي القارىء الكريم نماذج كثيرة منه ، وهي في مجملها تضم بين دفتيها تجارب خاصة بالشعراء ، أججت عواطفهم الاحداث السياسيه والاوضاع الاجتماعية ، فتفتقت قرائحهم عن الاشعار الآنفة .

---

(١) البيتان في الذخيرة ١٣٧/١/٢ ، ينظر مقال الشعر الاندلسي بين الاتجاه الاخلاقي وطلب المتعة ٢١ .

(٢) دراسات أدبية في الشعر الاندلسي ١٥٢ .

لقد استأثرت المقطوعة الشعرية مكانة خاصة لدى شعراء هذا الاتجاه ، فنظموا البيتين والثلاثة وحظيت تلك الابيات باعجاب الناس لكونها تطمئن حاجة في نفوسهم ، وتمتص استياءهم البالغ في تلك الاوضاع ، والجور لدى بعض الحكام والوزراء والقضاة ومثل هذا اللون من الشعر من الطبيعي أن يتسم بالسهولة في لغته واسلوبه ، وتأتي صوره ومعانية خالية من التعقيد والتكلف باردة العاطفة وهو مانجده في المقطوعات الخمس التي اوردناها في النقد السياسي بدءاً بالمقطوعة البائية وانتهاء بدالية ابن رشيق ، يضاف إلى ذلك ان عدداً منها جاء غير معزو إلى شاعر معين ، وهذا الصنف من الشعر يشبه في خصائصه الفنية إلى حد ما شعر الزهد ، والذي يقصد به مخاطبة اكبر عدد من الناس ، ولذلك يختلف في صياغته عن الشعر الذي يخاطب به الملوك والامراء والادباء .. حتى نجد هذا الصنف من الشعر يقترب من النثرية إلى مدى بعيد كبيتي السميسر مثلا :

فانتم تحت كل تحت وانتم دون كل دون
سكنتم ياريـاح عاد وكل ريح إلى سكون

او كأبيات الجزار السرقسطي :

نسبتم الجـور لعمالكم وتمتم عـن سوء افعالكم
لاتنسبوا الجور اليهـم فما اعمالهـم الا كأعمالكم
تالله لو ملكتم ساعـة ماخطر العدل على بالكم

وتتسم طائفة أخرى من اشعار هذا الاتجاه بالنفس الطويل ، واسترسال الابيات وانسيابها ، ولكنها لاتأتي في موضوع واحد ، وانما ضمن موضوع عام ، كما نجد في القصيدة الرائية في رثاء طليطلة حيث جاءت في سبعين بيتا وفيها أبيات في نقد الاحوال السياسية وتشخيص لاسباب سقوط طليطلة وبعكس المقطوعات القصيرة التي جاءت متناهية في السهولة ، نجد هذه الطائفة من الاشعار جيدة السبل رصينة اللغة، جزلة الالفاظ متدفقة العاطفة، يتمثل فيها الصدق الفني الصادر عن نفوس متوثبة وقلوب مؤمنة ، وهو

نتيجة طبيعية لصدق الشعور بالحياة والاحداث التي كان يعيشها الشاعر ، وتتجلى حرارة العاطفة في أبيات ابن شهيد اللامية .

كأنّ الدجى همي ودمعي نجومه ‏ ‏ ‏ ‏ تحدّر اشفاقاً لدهر الاراذل

فهي تصدر عن مرارة وألم ممض، لصورة المجتمع الممسوخة ، كما يراها الشاعر وكما نقرؤها نحن في ابياته .

وتبلغ الحالة حداً من اليأس لدى طائفة من الشعراء الذين احتجوا وانتقدوا المجتمع بطريقة بث الشكوى ، والتألم من الحياة ، كما في ابيات ابن لبون وابن الحداد .

وقصيدة الالبيري وحيدة في بابها الا انها قادت دعوة إلى الثورة على الوزير اليهودى ابن النغريلة، ومثلت صورة من صور الاحتجاج الجماعي على استبداد الوزير ، وهي تفتقد اللغة الشعرية الفنية ، ولكنها تحظى بهذا الاهتمام البالغ استبداد الوزير ، وهي تفتقد اللغة الشعرية الفنية ، ولكنها تحظى بهذا الاهتمام البالغ من النقاد لاقترانها بظروف حيوية في احداث غرناطة وبجرأتها في مخاطبة الحكام .

ويستطيع الدارس أن يشخص — فضلاً عما تقدم — خصيصة عامة هي تأثر اشعار هذا اللون من الشعر باساليب القرآن الكريم ، وصوره ومعانيه بالاقتباس المباشر وغير المباشر وشعراء هذا الاتجاه — بشكل عام — يصدرون عن مفاهيم اسلامية في نقد الاوضاع السياسية ويتمثلون صورة الصحابة والخلفاء الراشدين أملا يراود اذهانهم في اصلاح الحالة .

وقلما خاض اعلام الشعر الاندلسي في عهد الطوائف ، ميدان النقد السياسي والاجتماعي ، فقد كانوا في شغل شاغل ، وانما لمع فيه الشعراء المقلون دون المكثرين ، ولعل ابرز شاعر يمثل هذا الاتجاه هو السميسر ، وان كانت نقمته صادرة عن نفس ملتوية ، وسلوك وعر ، لا عن نية مخلصة وقلب سليم .

المصادر والمراجع

١. اشبيلية في القرن الخامس الهجري، الدكتور صلاح خالص، ط دار الثقافة، بيروت ١٩٦٥.

٢. البيئة الاندلسية وأثرها في الشعر،الدكتور سعد اسماعيل شلبي، ط النهضة المصرية، القاهرة ١٩٧٦.

٣. البيان المغرب في اخبار الاندلسي والمغرب، ابن عذارى المراكش، (ت بعد ٧١٢هـ) دار الثقافة بيروت جـ١ ــ ٢ تحقيق كولان دليفي بروئنسال باريس ١٩١٨ جـ٣ تحقيق بروغنسال باريس ١٩٢٩ جـ٤ تحقيق الدكتور احسان عباس، بيروت ١٩٦٧.

٤. تاريخ الادب الاندلسي ــ عصر الطوائف المرابطين د. احسان عباس، ط ٢ دار الثقافة، بيروت ١٩٦٩ م .

٥. تاريخ الادب العربي في الاندلس ، الدكتور ابراهيم ابو الخشب،ط١ دار الفكر العربي القاهرة ١٩٦١م .

٥. التاريخ الاندلسي ، الدكتور عبد الرحمن علي الحجي ، دار القلم دمشق ١٩٧٦ م .

٦. التشبيهات في اشعار اهل الاندلس ، ابو عبدالله الكتاني (ت ٤٢٠هـ) دار الثقافة بيروت ١٩٦٦ م .

٧. التكملة لكتاب الصلة ، ابن الابار البلنسي (ت ٦٥٩هـ)،ط عطار القاهرة ١٩٥٥م .

٨. الحلة السيراء ، ابن الابار البلنسي ، تحقيق الدكتور حسين يونس جـ١ ــ ٢ ط الشركة العربية للطباعة والنشر القاهرة ١٩٦٣ .

٩. دراسات أدبية في الشعر الاندلسي ، د . سعد اسماعيل شلبي دار نهضة مصر ، القاهرة ١٩٧٣م .

تفسير القرآن بالقرآن
نشأته وتطوره حتى عصر الجلالين

الدكتور كاصد ياسر الزيدي

١٠. دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي ، محمد عبدالله عنان ط ١ لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٦٠.

١١. ديوان ابن خفاجة (ت ٥٣٣هـ) تحقيق الدكتور السيد مصطفى غازى ط المعارف الاسكندرية ١٩٦٠

١٢. ديوان ابي اسحاق الالبيرى (ت ٤٦٠هـ) تحقيق الدكتور محمد رضوان الداية ط مؤسسة الرسالة بيروت ١٩٧٦

١٣. ديوان ابن رشيق القيرواني ، عبد الرحمن ياغي دار الثقافة بيروت

١٤. ديوان ابن زيدون ورسائله تحقيق الدكتور علي عبد العظيم ط نهضة مصر ١٩٥٧ م .

١٥. ديوان ابن شهيد الاندلسي (ت ٤٢٦هـ) تحقيق يعقوب زكي ، سلسلة تراثنا ، القاهرة ب . ت .

١٦. الذخيرة في أخبار الجزيرة ، ابن بسام الشنتريني (ت ٥٤٢هـ).

القسم الاول ـ المجلد الاول والثاني تحقيق عبد الحميد العبادي وعبد الوهاب عزام لجنة التأليف والترجمة والنشر القاهرة ١٩٣٩ ـ ١٩٤٣.

القسم الثاني ، مخطوط مكتبة المتحف ، بغداد رقم ١٥٨٧ .

القسم الثاني ، المجلد الأول ، تحقيق د . لطفي البديع ط الهيئة العامة للكتاب ، القاهرة ١٩٧٥ .

القسم الثالث ، مخطوط الزاوية الحمزاوية بالمغرب رقم ١٦٣٦ تاريخ ، مصورة معهد المخطوطات ، القاهرة .

القسم الرابع ـ المجلد الاول ـ تحقيق عبد الوهاب عزام ، القاهرة ١٩٤٥ م .

١٧. رايات المبرزين وغايات المميزين ، ابن سعيد الأندلسي (ت٦٧٢هـ) تحقيق د . النعمان عبد المتعال القاضي ط المجلس الأعلى للشؤون الاسلامية القاهرة ١٩٧٢ .

١٨.الشعر الأندلسي بين الاتجاه الاخلاقي وطلب المتعة ، مقال الدكتور احسان عباس في مجلة الثقافة العربية العدد ٩ أيلول ١٩٧٥ ليبيا .
١٩.ابن صارة الأندلسي ، حياته وشعره ، الدكتور مصطفى عوض الكريم ط مصر ، السودان ١٩٥٨ م .
٢٠.صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب ، الروض المعطار في خبر الاقطار ابو عبد الله الحميري (ت ٨٦٦ هـ) عني بنشره . ا . لافي بروفنسال ١٩٣٧.
٢١.الصلة في تاريخ ائمة اللغة وعلمائهم ، ابن بشكوال الانصاري (ت ٥٧٨هـ) جـ١ – ٢ ط القاهرة ١٩٥٥ .
٢٢.قضايا الشعر المعاصر ، نازك الملائكة مكتبة النهضة بغداد ١٩٦٥ م .
٢٣.المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا ، طبع بعنوان تاريخ قضاة قرطبة، النباهي ت ٧٩٣ هـ ، ط ١ المكتب التجاري ببيروت ٢١٩٤٨ .
٢٤.المعجب في أخبار المغرب ، المراكشي (ت ٦٤٧هـ) تحقيق محمد سعيد العريان ط المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية . القاهرة ١٩٦٣ .
٢٥.مع شعراء الأندلس والمتنبي ، ايليا غرسية غومث ، ترجمة الطاهر أحمد مكي ، سلسلة دراسات اندلسية ط ١ مكتبة وهبة ١٩٧٤ م .
٢٦.المغرب في حلى المغرب ، ألفه ستة من بني سعيد ، آخرهم علي بن موسى ج ١ – ٢ تحقيق الدكتور شوقي صنيف ط ١ دار المعارف ١٩٦٤ م.
٢٧.المقتضب في تحفة القادم ، ابن الابار البلنسي ، اختيار البلفيقي تحقيق ابراهيم الابياري ط ١ الاموية ، القاهرة ١٩٥٧ .
٢٨.نفح الطيب في غصن الاندلس الرطيب المقري التلمساني (ت١٠٤١هـ) تحقيق د . احسان عباس ط ١ دار صادر بيروت ١٩٦٨ م.
٢٩.وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، ابن خلطان ت ٦٨١هـ تحقيق د . احسان عباس دار صادر بيروت ١٩٧٢ م .

تمهيد

التفسير بالقرآن وأهميته

عندما يعني الباحث بدراسة موضوع جزئي يتفرع من موضوع كلي ، يشكل بحثه أساساً من أسس ذلك الموضوع العام ، ويعين من ثم على الدراسة المتكاملة له ، اذا سلك باحث او باحثون آخرون نفس الاسلوب لاستكمال أجزاء ذلك الموضوع الكلي الشامل . فللدراسات الجزئية أهميتها في شتى أنواع الدراسات وخاصة اذا تنوولت بتتبع وكفاية وعلمية . وقد عُني علماؤنا الأوائل بها عناية واضحة أدت للدراسات الكلية فائدة فائقة . وبمثل هذا المنهج اخذ المعاصرون في دراساتهم المتنوعة .

يقول م. ف جويار: «وبقدر ما تكون الدراسات الجزئية المحققة على مر الزمن عديدة، يتيسر للدراسة الشاملة الحظ في أن تكون مضبوطة»(١) . والبحث في الموضوع الذي نعرض له بالدراسة ، من هذه الموضوعات الجزئية المهمة في تفسير القرآن ، اذ هو يشكل ركناً متيناً ، في البناء العام لطرق التفسير و أساليبه ويعود ذلك لسببين رئيسين :

احدهما :

أن هذا الاسلوب يجعل بعض آي القرآن شاهداً للبعض الآخر ، والشاهد اذا كان كلام الله فهو خير شاهد ودونه كل الشواهد . وهذا لا مشاحة فيه بين العلماء والباحثين قديماً وحديثاً ، سواء تعلق الاستشهاد القرآني بالدراسات الاسلامية أم اللغوية أم غيرهما .

وثانيهما :

أن تفسير القرآن بالقرآن يدل على جهد ذاتي ؛ لأن المفسر حين يرد آية الى آية او لفظة على أخرى ليفسرها بها،فانما يقوم بعملية ذهنية ذاتية واضحة

---

(١) هلال : د . محمد غنيمي : الأدب المقارن ص ١١٥ - ١١٦ .

تتطلب قبل كل شيء ، تتبعاً لنصوص القرآن في الذهن ، كما تتطلب مهارة وفهما

فعملية التفسير بالقرآن إذاً عملية مقارنة، والممارس لها من المفسرين يقوم بدور المقارن، حتى يفضي به ذلك إلى تحديد المعنى.

ومع أن طرق التفسير وأساليبه قد تعددت بتعدد العصور، وتباينت بتباين المفسرين وأذواقهم وبيئاتهم واتجاهاتهم العقيدية والمذهبية، الا أن التفسير بالقرآن ظل دائماً أمثل هذه الطرق والاساليب وأفضلها. وقد نص على ذلك المهتمون بالدراسات القرآنية من قدامى العلماء، فقال ابن تيمية (ت ٧٢٨ هـ) في الفصل الذي سماه : « في أحسن طرق التفسير » من مقدمته في اصول التفسير (١) : « فان قال قائل : فما أحسن طرق التفسير ؟ الجواب ان اصح الطرق في ذلك أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فانه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فانه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر » .

وبالمثل نجد الزركشي (٢) حين عرض لطرق التفسير بالبيان، قد جعل تفسير القرآن بالقرآن في مقدمتها، وحكى عن أهل العلم أنه أفضلها.

إن هذا المنهج الأمثل ترسمه المدرسة القرآنية في التفسير، تلك المدرسة التي تعني قبل كل شيء بقرآنية تفسير الآى، أو بعبارة أوضح : بالالتزام بالنص القرآني وسيلة لكشف معاني الآى. فهي تستنطق القرآن في تبيين ما استغلق منه، وازالة إشكال ما اشكل أو تخصيص عمومه، أو التوفيق بين الآى التي قد يوهم ظاهرها بالتناقص والاختلاف، مع انها ليست كذلك، وما إلى ذلك من فوائد جمة وعملية في التفسير. فضلا على أن هذا الاسلوب وسيلة ناجحة لاستبعاد وجوه التأويل التي لا تنسجم مع النص القرآني وروحه ومقاصده، لانها تستقي أحياناً من مصادر لا تنهض أن تكون وسائل للتفسير

---

(١) ص ٩٣ .

(٢) البرهان في علوم القرآن ٢/١٧٥ - ١٧٦ .

على نحو ما نرى في بناء المعنى على الالفاظ النادرة والتعابير الشاردة في اللغة مما لا يصح أن يحمل عليه القرآن، ولا يليق ان يفسر به. أو نحو التفسير المبني على الرأي الذي لا يسنده دليل يعتد به او حجة يصار اليها. فكل هذه الاساليب التفسيرية قد يعتورها الوهن والبعد عن أن تصح تفسيراً للقرآن. فيكون أسلوب التفسير بالقرآن المنهج الأمثل حقاً، اذا تناوله المفسر بموضوعية ودقة وحسن استعمال.

فضلا على ان هذا الاسلوب يمنع كثيراً من الروايات الموضوعة والغريبة عن الثقافة الاسلامية الاصيلة، وعلى رأس هذه الروايات ما يعرف في علم التفسير بـ « الاسرائيليات » (١) ،التي ابتُلي بها هذا العلم، حتى كادت أن تلبس على الناس وجوهه ، وتكدّر عليهم الرائق الذي لا يشوبه كدر منه.

وهذا المسوّغ القوي يفتح الباب على مصراعيه للبحث عن أدلة وشواهد وقرائن أخر من داخل القرآن، لتفسير ما لم يعرض له القدامى والمحدثون بالبيان، ويقف محفزاً هاماً لاستعادة روح المدرسة القرآنية من جديد في العصر الحديث، بعد ان وطأت لها مدرسة محمد عبدة، ثم عني بها الخولي ومن نهج نهجه في التفسير، جاعلة النص القرآني قدوتها في استجلاء معانيه.

وقد تناولت بالدراسة في هذا البحث نشأة اسلوب التفسير بالقرآن وتطوره حتى عصر الجلالين، وهما جلال الدين المحلي (٨٦٤ هـ) وجلال الدين السيوطي (٩١١ هـ) ،تحدوني إلى ذلك الرغبة في بيان هذا اللون من التفسير وتطوره، على امل أن استأنف الدراسة في بحث آخر يتناول هذا الاسلوب في العصر الحديث من عصر النهضة، حتى يومنا هذا، ثم اختم البحثين جميعاً بثالث يتناول القواعد التي يبنى عليها والصور التي يرد فيها الاسلوب نفسه.

(١) يراد بالاسرائيليات في اصطلاح علم التفسير : الروايات التي رويت عن أهل الكتاب الذين أسلموا ، مثل كعب الاحبار وعبد الله بن سلام ووهب بن منبه وعبد الملك بن جريج. وكثير من هذه الروايات لا يتفق مع العقيدة الاسلامية والحقائق العلمية.

ومما حملني على اختيار هذه الفترة بالذات والوقوف عند عصر الجلالين أني اردت ان ادرس هذا الاسلوب في مصادره القديمة، واننا لا نكاد نضفر بعد الجلالين – حتى عصر النهضة – بتفسير يتميز مما سبقه بجديد.

هذا إلى أن لشهرته وطبيعة منهجه وقيمته العملية لدى القدامى والمحدثين أثرها في جعله ضمن فترة هذا البحث.

ولا بد لي قبل الولوج في الموضوع من ان أبيّن طرفاً من القواعد العامة والصور المتنوعة التي يقوم عليها هذا الاسلوب جاعلا تفصيل ذلك في البحث الثالث الذي أشرت اليه آنفاً؛ اذ لا يتسع هذا البحث لتفصيله؛ لانه مكرس لبيان النشأة والتطور حسب.

ويقوم اسلوب التفسير بالقرآن على قواعد وصور متنوعة ومتعددة أهمها أن يكون النص المفسّر تفصيلا بعد اجمال، او بيانا بعد ابهام، او تخصيصاً بعد عموم، أو تقييداً بعد اطلاق، او تقابلا او تناظراً بين لفظتين او عبارتين او تعييناً لدلالة لفظ مشترك او متضاد، وما إلى ذلك.

وللآيات التي تفسر بها آيات أخر صور وأنماط أسلوبية متعددة. فقد تكون متصلة بها، إما متقدمة عليها او متأخرة عنها، وقد تكون منفصلة عنها بفاصل من الآيات، وهي في السورة نفسها، وهذه هي « دلالة السياق » أو تكون في سورة أخرى.

وتفيد « دلالة السياق » في الكشف عن معاني الآى، وقد ذكر الزركشي «انها اعظم القرائن الدالة على المراد من الكلام،وأنها ترشد إلى تبيين المجمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوع الدلالة » (١) .

(١) الزركشي : البرهان في علوم القرآن ١/١٩٩ .

القسم الاول

نشأته

(١)

في عهد النبوة

نشأ التفسير بالقرآن في عصر صدر الاسلام، أو على وجه التحديد: في عصر النبوة؛ اذ كان النبي محمد (ص) أول من افتتح هذا المنهج القيم في التفسير. فكان ذلك الافتتاح ايذاناً بأن يسلكه أصحابه ومن تبعهم من اهل الملة في كل حين. وهذا ما حدث بالفعل، اذ رأينا تلك المبادرة الاولى تنمو على أيدي الصحابة والتابعين وأتباعهم من المفسرين إلى عصرنا هذا.

وكان الذي أدى إلى ظهور هذه المبادرة من لدن المعلم الاول، قلقاً حاك في صدور الاصحاب، حين غم عليهم تفسير لفظة « ظُلْم » الواردة في الاية ٨٢ من سورة الانعام. فقد ظنوا ان المراد بها الظلم بمفهومه المتبادر، وهو مجاوزة الحق والتعدي على الآخرين أو على النفس (١)، وذلك وارد في كثير من الآى (٢). فأوضح لهم الرسول المعنى المراد من الظلم في الاية، مستدلا بآية أخرى. فكان في ذلك التفسير ما أزال القلق الذي ساورهم وألم بهم، فوق انه تطبيق عملي للتفسير بالقرآن، انتهجه أصحابه ومن تبعهم من المفسرين بعد ذلك.

روى البخاري (٣) عن عمر بن حفص بن غياث بسنده عن الصحابي العالم عبد الله بن مسعود انه قال: « لما نزلت: « الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلم » قلنا: يا رسول الله، أيُّنا لم يظلم نفسه؟، قال ليس كما تقولون، « لم يلبسوا ايمانهم بظلم »: بشرك، أو لم تسمعوا إلى قول لقمان لابنه:

---

(١) الراغب: مفردات القرآن ص ٣٢٦ – ٣٢٧، مادة (ظلم).

(٢) كقوله تعالى: «انما السبيل على الذين يظلمون الناس» الشورى: ٤٢، وقوله: «فمنهم ظالم لنفسه» فاطر: ٣٢، وقوله: «رب إني ظلمت نفسي» النمل: ٤٤، القصص: ١٦.

(٣) الصحيح ٧/٢٠٥ شرح ابن حجر، كتاب أحاديث الانبياء.

«يا بنيّ لا تشرك بالله ان الشرك لظلم عظيم» ،ففسر (ص) القرآن بالقرآن.

واذا كانت هذه الرواية قد حصرت الظلم الذي فهمه الصحابة وحددته بظلم النفس كما ورد من بعد في رواية مسلم(١) ،فان رواية أخرى للبخاري(٢) عن ابن مسعود أيضا تدل على أنهم فهموا الظلم فهما مطلقاً غير محصور بدلالة معينة من دلالاته الثلاث وان لم يفسروه ، اذ ورد في تلك الرواية انهم قالوا : « وأينا لم يظلم » ؟ ، بدلا من : « أينا لم يظلم نفسه » في الرواية الاخرى التي أوردناها آنفاً ، غير أن هذه الرواية لم تصرح بأن الرسول (ص) فسرّ الظلم بالشرك استناداً إلى آية لقمان : « ان الشرك لظلم عظيم » ،وانما اشارت إلى ان هذه الآية نزلت بعد سؤالهم الذي أوردنا، وهو الذي استنبط منه بعض العلماء جواز تأخير البيان عن وقت الحاجة (٣) . على أن رواية مسلم — وهي كذلك عن ابن مسعود — تذكر عبارة لها دلالة خاصة في هذا الموضوع ، وهي : «شق ذلك على اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا :« أينا لايظلم نفسه » فكان في جواب النبي (ص) :« ليس هو كما تظنون» ، واحالتهم على آية لقمان ، رفع لتلك المشقة التي ظنوا انهم واقعون فيها

ومهما يكن من أمر اختلاف عدد من الفاظ الحديث ما بين رواية واخرى أو مصدر أو آخر ، فان الخبر دال بوضوح على ان النبي (ص) مارس عملياً هذا الاسلوب من التفسير ، الذي يعتمد القرآن قرينة لتفسير القرآن ، وذلك حين أحال على آية لقمان .

وبهذا فهم الصحابة أن المراد من قوله تعالى:«ولم يلبسوا إيمانهم بظلم » : أي بشرك ، فليس هو إذاً ظلم النفس او ظلم الغير .

---

(١) ٨٠/١ باب صدق الايمان واخلاصه .

(٢) نفسه ٩٥/١–٩٦ .

(٣) ابن حجر : فتح الباري ٩٦/١ .

(٢)

في عهد الصحابة

لانكاد نمضي الى العهد الراشدي حتى تلقانا نصوص لنفر من كبار الصحابة ذات سمة نظرية وأخرى تطبيقية . وفي مقدمة هؤلاء الصحابة الامام علي ابن ابي طالب الذي يعد صدر المفسرين من الصحابة ، ويتلوه عبدالله بن عباس (١) .

فنجد للامام علي نصاً في مجموعة خطبه ووصاياه ، يوجه فيها سامعيه الى هذا الاسلوب التفسيري ويلفتهم اليه ، إذ يقول لهم :

«كتاب الله تبصرون به ، وتنطقون به ، وتسمعون به ، وينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض ، ولا يخالف في الله ، ولا يختلف بصاحبه عن الله » (٢) .

فقوله : « ينطق بعضه ببعض ، ويشهد بعضه على بعض» ، يشير الى هذا المنهج الافضل في تفسير القرآن وينبه عليه . ذلك أن الآية المفسِّرة ناطقة بلسان الاية المفسَّرة وشاهدة عليها ، دالة على معناها .

ومن الغريب أن ابن ابي الحديد - أحد كبار شراح النهج - لم يقف في شرحه عند هذه العبارة ليجلي معناها ويبين قيمتها في اصول التفسير وأساليبه . على الرغم من افاضته في الشرح والتعليق ، بل الاستطراد ، بما هو معروف عنه غير خاف على من تصفح كتابه . وانما تعداها الى ما بعدها من كلام في النص الذي أوردناه آنفاً ليشرح معنى قول الامام : « ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله » (٣) .

---

(١) ابن عطية : مقدمة المحرر الوجيز ص ٢٦٢ ، وانظر القرطبي : الجامع لاحكام القرآن ٣٥/١ .

(٢) نهج البلاغة ٢٣/٢ من شرح محمد عبده .

(٣) ابن أبي الحديد : شرح منهج البلاغة ٢٩٤/٨ .

ولم يكن موقف الشيخ محمد عبده مختلفاً عن سلفه في هذا المجال ، اذ أمرَّ التفسير على هذه العبارة دون أن يبين المراد منها (١) .

وأما الجانب العملي — التطبيقي — فيمكن أن نتبينه فيما أثر عنه من وجوه في تفسير الآي . فهو يتلو — على سبيل المثال — الاية الكريمة : «الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهم بظلمأولئك لهم الأمن وهممهتدون » ثم يذكر انها نزلت في النبي ابراهيم عليه السلام وأصحابه (٢) . وهذا يعني انه فسر لفظة «ظلم» الواردة فيها بالشرك ، وطريقه الى هذا التفسير يحتمل أمرين :

أحدهما :

أن يكون قد أخذ ذلك عن النبي (ص) في جملة من أخذه عنه من أصحابه اذ بينا سالفاً ان النبي (ص) كان قد فسر هذه اللفظة بهذا التفسير .

والآخر :

أن يكون قد لحظ السياق ، فأعانه ذلك على عد الاية متحدثة عن النبي ابراهيم وأصحابه ، لأن هذه الاية قد وردت في سياق قصة ابراهيم وتنديده بالشرك والأوثان ، وقد اكتنفها من طرفيها — في السياق — الحديث عن ذلك ، وهو قوله تعالى : « وكيف أخاف ما أشركتهم ولا تخافون انكم اشركتم بالله ما لم ينزّل به عليكم سلطاناً فأي الفريقين أحق بالأمن ان كنتم تعلمون ، الذين آمنوا ولم يلبسوا ايمانهمبظلم اولئك لهم الأمن وهم مهتدون . وتلك حجتنا آتيناها ابراهيم على قومه نرفع درجات من نشاء ان ربك حكيم عليم » (٣) .

والاحتمال الثاني الذي بيناه أقوى ، وخاصه أن النزول في قوله : نزلت في ابراهيم وأصحابه يراد به المعنى ولا يراد به السبب ، لأن القدامى اذا قالوا: «نزلت هذه الآية في كذا»،فانهم يريدون السبب تارة ويريدون أخرى

---

(١) محمد عبده : شرح نهج البلاغة ٢٣/٢ .

(٢) ابن حجر : فتح الباري ٢٠٥/٧ .

(٣) الانعام : ٨١ — ٨٣ .

انه داخل في الاية وان لم يكن السبب ، كما تقول : عني بهذه الآية كذا (١) . فالمراد بالنزول في كلام الامام إذاً هو أن ابراهيم عليه السلام وصحبه داخلون في حكم هذه الاية، فيشملهم ضمان الأمن لهم من عقاب الله ، والاهتداء. ولهذا أوردها البخاري في قصة ابراهيم من كتاب أحاديث الانبياء .

• • •

فاذا انتقلنا الى الماثور في التفسير عن عبد الله بن عباس ، ألفيناه كذلك مشتملا على نماذج من هذا في التفسير . فابن عباس يفسر القرآن في مواضع كثيرة بالقرآن،ولذلك يعد فيالطبعة الاولى من المدرسة القرآنية، أعني المدرسة التي تفسر القرآن بالقرآن . من ذلك تفسيره لقوله عزّ وجل : «ربنا امتّنا اثنتين وأحيتنا اثنتين فهل الى مرد من سبيل » (٢)، اذ يقول : «كنتم تراباً قبل أن يخلقكم ، فهذه ميتة ، ثم أحياكم فخلقكم فهذه احياءة ، ثم يميتكم فترجعون الى القبور فهذه ميتة اخرى ، ثم يبعثكم يوم القيامة فهذه احياءة فهما ميتتان وحياتان ، فهو كقوله : «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً واحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم اليه ترجعون » (٣) .

وقال في تفسير الاية الثانية – فيما رواه عنه سفيان الثورى – :« هي مثل الاية التي في اول المؤمن : «ربنا أمتّنا اثنتين وأحييتنا اثنتين » (٤) .

فهو كما ترى جعل الاية الثانية التي استشهد بها مفسرة للاولى ، ثمّ عكس ذلك في موضع آخر ، فجعل الاولى مفسرة للثانية .

ومعروف أن ابن عباس كان يستنبط معاني القرآن باجتهاده ، فضلاً عما كان يورده من المأثور ، وقد دعا له النبي (ص) أن يعمله الله التأويل ويفقهه في الدين .

---

(١) ابن تيمية : مقدمة في اصول التفسير ص ٤٨

(٢) فاطر : ١١

(٣) الطبري : جامع البيان ٤١٩/١ من الطبقة المحققة .

(٤) تفسير سفيان الثورى ص ٣ .

(٣)

في عهد التابعين وتابعيهم

نشطت حركة التفسير في عهد التابعين نشاطاً ملحوظاً ونبغ في هذه الفترة مفسرون كثيرون ، أشهرهم مجاهدبن جبر المكي (ت١٠٤هـ) ، الذي يعد خير تلميذ لابن عباس والذي قال عنه سفيان الثوري : «اذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به (١). واذا رجعنا الى المأثور عنه في تفسير القرآن بالقرآن، ألفيناه في رواية الحارث المحاسبي بسنده عن ابن جريج عنه ، يفسّر قوله تعالى : «الله نزل أحسن الحديث كتاباً متشابهاً مثاني » (٢) ، بأنه : «يصدّق بعضه بعضاً ، ويقول : القرآن كله مثاني »(٣) ، وهذا يشعر أنه يرى القرآن يفسر بعضه بعضاً ، ويعضد بعضه بعضاً في معانيه ، وأنه كل لايتجزأ ، أو كما قال الزجّاج : كالسورة الواحدة .

فمجاهد إذاً يجد أن تفسير القرآن بالقرآن نص في القرآن ، ولذلك يتخذه أسلوباً من أساليبه في التفسير ، على الرغم من أن جُل ما كان يذكره من وجوه التأويل مأخوذ عن ابن عباس ، وما تبقى مسموع من غيره أو من رأيه هو وفهمه للآي

ومن الناحية العملية ، نراه يفسر قوله تعالى : «كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتاً فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم » فيقول :«لم تكونوا شيئاً حين خلقكم، يميتكم الموتة الحق ، ثم يحييكم . ثم يقول : «وقوله :أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين مثلها » (٤) .

ومن التابعين الذين أخذ عنهم التفسير الحسن البصري (ت١١٠هـ) ، فنراه في تفسيره لقوله تعالى : «الله نزل أحسن الكتاب متشابها مثاني » ، يقول في رواية الحارث المحاسبي بسنده أيضاً عنه : «مثاني : ثنّى الله فيه القضاء ،

---

(١) ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ص ١٠٣ .
(٢) الزمـر : ٢٣ .
(٣) المحاسبي : فهم القرآن ص ٢٧٨
(٤) الطبري : جامع البيان ١٩/١.

تكون السورة فيها الاية ، وفي السورة الاخرى آية مثلها » (١) ، فهذا يشعر أن الاية التي تنزل في حكم معين لها نظير بنفس الحكم يعضدها في سورة أخرى . وهل هذا الا التنويه بتفسير القرآن بالقرآن و الالماع اليه ؟.

فاذا كان مجاهد يرى لفظه «مثاني» نصا في أن القرآن يفسر بعضه بعضاً ـ كما بينا سالفاً ـ ويعضد بعضه في معانيه بعضاً ، فان الحسن البصري يرى ذلك أيضاً ، اذ تُثَنّى الاحكام الشرعية التي جاء بها الكتاب المبين ما بين سورة وأخرى .

وكان الحسن يفسر المُعَقِّبات (٢) في قوله تعالى : «له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله» (٣) بالحفظة الذين يحفظون عمل العبد ويقول : هم «أربعة أملاك يجتمعون عند صلاة الفجر» ثم يقول : « وهو معنى قوله : «ان قرآن الفجر كان مشهوداً » . فجعل المعقبات في الآية الاولى مفسرة للذين يشهدون الصلاة ومبينة لهم . أو بعبارة اخرى: للذين يحضرونها وهم الملائكة الاربعة الذين ذكرهم .

ونما التفسير بالقرآن في ظل أهل البيت نمواً يانعاً ، فقد كانوا من بناة المدرسة القرآنية التي تتخذ النص القرآني أساساً هاماً في التفسير . وقد رويت عنهم روايات كثيرة في وجوه القرآن وتأويل آياته ، منها ما يعتمد أسلوب التفسير بالقرآن .

وقد تقدم التنويه بدور الامام علي في تأصيل هذا الاسلوب والتنبيه عليه، ونريد أن نبين هنا جهود أئمة آخرين من أهل البيت في هذا المجال الحيوي من التفسير.

---

(١) المحاسبي : فهم القرآن ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .
(٢) الطبرسي : مجمع البيان في تفسير القرآن ١٣/١٥ .
(٣) الرعد : ١١ .

من ذلك ما روى عن أبي عبد الله جعفر الصادق (١) (ت ١٤٨ هـ) أنه فسرّ « يعصرون » في آية يوسف : « فيه يغاث الناس وفيه يعصرون»، ، بـ« يمطرون » واحتج له بمارود في آية النبأ (٢)، فقال لمخاطبه : « أما سمعت قوله : » وأنزلنا من المعصرات ماء ثجّاجا» . ففسر القرآن بالقرآن. وفي الرواية عن أبيه الامام محمد الباقر (٣) (ت ١١٣ هـ) ، في طبيعة السجود في قوله تعالى : « وخرّوا له سُجّداً » (٤) ،روى عنه أنه كان يذهب إلى أنه سجود ليوسف « اعظاما له وشكراً لله»، أو قل : ان هذا السجود جمع بين سجود الاحترام والاعظام المتعارف عليه لدى أهل مصر اذ ذاك، وبين سجود الشكر لله على اجتماع شمل الاسرة بعد تشتت. واستدل له بما ورد في الآية بعد ذلك مباشرة على لسان يوسف : « يا أبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقاً » (٥) .

وهذا الوجه أشبه بالسياق، وبما ورد في اول قصة يوسف، وهو قوله تعالى : « يا أبت اني رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لي ساجدين » . فبين في اول القصة أنه رآهم ساجدين له، ثم بين في آخرها عند سجود أبويه واخوته أن ذلك تأويل رؤياه قد صارت حقيقة وواقعاً بعد أن كانت حلماً.

ولا نكاد نمضي الى عهد اتباع التابعين ، حتى نجد انفسنا وجهاً الى وجه مع ضرب من تفسير القرآن بالقرآن يمارسه جماعة من أهل البيت في حياتهم العملية العلمية .

فعندما ابتُلي المسلمون بشيء من الأوهام المتعلقة بالذات الالهية ، كان لابد لأئمة المسلمين ان يكشفوا عن الحقيقة ، ويزيلوا تلك الاوهام بما يليق بصفات

---

(١) تفسير العياشي ٢/١٨٠ .

(٢) في الآية ١٤ .

(٣) تفسير العياشي ٢/١٩٧ .

(٤) يوسف : ١٠٠

(٥) يوسف : ١٠١ .

الله عزّ وجل ، او قُل : أن يَذبّوا عن الدين في أسمى وأهم مما يتعلق به وهو الايمان بالله وتوحيده .

وكانَ لأهل البيت في هذا المضمار دورهم الفعال ؛ اذ كانوا إما ان يزيلوا شبهة ووهماً تختلج بهما نفس مسلم ، او يردوا تهمة باطلة يتلجلج بها لسان زنديق .

وهذا ما حدث حين ذكر ابو قرّة المحدِّث للامام علي بن موسى الرضا (ت٢٠٤هـ) انهم رُوُوا ان الله تعالى خص موسى بالكلام ومحمداً (ص) بالرؤية ، وان قوله تعالى : «ولقد رآه نزلة أخرى عند سدرة المنتهى» ، دال على ذلك ، فأجابه الرضا بما يدفع هذا الظن ، واحتج له بقوله تعالى : «لقد رأى من آيات ربه الكبرى» ، وبين أن آيات الله غير الله (١) . وإذاً فلَم يرَ النبي (ص) ربه في معراجه ، بل رأى جبريل بصورته الملكيّة .

القسم الثاني

تطوره

بعد ان أوضحنا – فيما مر – نشأة أسلوب التفسير بالقرآن ، ابتداء من عصر النبي وأصحابه وانتهاء بعصر التابعين وأهل البيت ، لابد لنا ان ننتقل الى الخطوة التالية في هذه الدراسة ، وهي بيان تطور هذا الاسلوب بعد النشأة (٢) . والحق ان بدايات هذا التطور قد تجلت في بعض ما أسلفناه عند الحديث عن النشأة ، ذلك ان طرفا من هذا الاسلوب استخدم كما بينا لاغراض فكرية ، كالذي رأيناه في دفع الامام أبي الحسن الرضا لظنة رؤية النبي (ص) ربه عنه معراجه ، واحتجاجه لذلك بسياق الاية التي توهمّها السائل دالة على ما ذهب اليه من الرؤية .

---

(١) المرتضى : أمالي المرتضى ١/١٤٩–١٥٠ .

(٢) أود أن أبين أن المراحل التي أتناولها بهذه الدراسة ليست زمانية صرفاً ، بل هي تطورية تتداخل إحداهما في الأخرى ، غير أنها على وجه الإجمال حلقات في سلسلة حياة هذا الموضوع.

وهذه البدايات لاشك مهدت السبيل بعد ذلك للمتكلمين — وخاصة الامامية منهم — لأن يحتجوا بالقرآن للقرآن في جدلهم الاعتقادي تجاه الفرق الاسلامية الاخرى .

على ان ارهاصات هذا التطور بصورته اللغوية الواضحة تتجلى في المنهج الذي سلكه مفسر شهير من اتباع التابعين هو مقاتل بن سليمان (ت ١٥٠هـ) الذي خلّد كتاباً في هذا الموضوع ينم عن استقراء دقيق مستوعب ، حتى اننا نستطيع القول إنه من اوائل من وظفوا اسلوب تفسير القرآن بالقرآن على نطاق واسع وبمنهجية أصيلة متميزة ، على الرغم من عدد من الملاحظ التي يأخذها عليه الدارس لكتابه الذي ضمنه هذا الاسلوب بوضوح ، وهو كتاب : « الاشباه والنظائر في القرآن الكريم » .

(١)

الاشباه والنظائر لمقاتل :

الأشباه والنظائر : فرع من فروع التفسير، فالاشباه — أو الوجوه — هي الالفاظ المشتركة التي تستعمل في معان متعددة كلفظة العين ، والنظائر كالالفاظ المتواطئة التي تستعمل بمعنى واحد مثل : جواد وكريم (١) . وأول ما يلقانا من مصنف مقاتل هذا، تفسير (الهُدى) في القرآن الكريم، وقد جعله على سبعة عشر وجهاً، لكل وجه منها معنى معيّن يبينه في ابتداء كلامه على ذلك الوجه، ويمثل له بعد ذلك بآية قرآنية في سورة من السور، ويذكر عقبها ما يناظرها، في نفس السورة أو في السور الاخرى، من الآى.

فنراه مثلا في الوجه الخامس من وجوه تصرف معاني (الهدى) يقول : «والوجه الخامس : « هُدى » يعني معرفة، فذلك قوله في النمل : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون» ،نظيرها في الأنبياء : « وجعلنا فيها فجاجا سبلا لعلهم يهتدون » ، يعني يعرفون الطرق. . . »

---

(١) ابن تيمية : الاكليل في متشابه التنزيل ص٩ ضمن (رسائل ابن تيمية) وشحاتة : الدكتور عبد الله : مقدمة الاشباه والنظائر لمقاتل ص ٨٤ .

فأنت ترى أنه مثل بآية النحل اولا للوجه الخامس للهدى، وهو (المعرفة) ثم استشهد لها بآية الانبياء من بعد.

ونراه في الوجه السادس عشر يبين أن الهدى يرد في القرآن بمعنى « إلهام البهائم » ، ويمثل له بقوله في سورة طه : « الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ، ويقول: « يعني من الدواب » .ويفسر « خلقه » بـ « صورته » التي تصلح له، كما يفسر « ثم هدى » بقوله : « يعني ثم ألهمه كيف يأتي معيشته ومرعاه » ، ويستدل لهذا المعنى بما ورد في سورة الأعلى وهو قوله عز وجل : « والذي قدّر فهدى » ، ويقول : « يعني قدّر خلق الذكر والانثى، فهدى : يعني ألهم الذكر كيف يأتيها وتأتيه (١) » .

وهذا الاستدلال وان كان صحيحاً، إلا أن تفسير الهداية في سورة الأعلى باهتداء الذكر إلى انثاه والعكس، هو في الواقع تخصيص من غير مخصّص، وهو لا يلائم دلالة الهداية في سورة طه؛ لأنها ذات دلالة عامة مطلقة في تلك السورة، وكذلك هي في سورة الأعلى، فقد قال تعالى : « هدَى » ولم يذكر أنه هداه لشيء معين محدود. وذلك ملائم للحقيقة ، فإلهام الحيوان لا يتعين بشيء دون شيء، بل هو الهام عام يتناول أشياء كثيرة متنوعة كما هو ملاحظ .

(٢)

في الملاحظة النحوية واللغوية :

ويأخذ هذا التطور مجراه في نهاية القرن الثاني وبداية الثالث، فاذا بنا أمام تطور جديد لهذا الاسلوب ، وأمام صورة تطبيقية جديدة له ، تتجلى في الافادة منه في بيان الملاحظ والتوجيهات النحوية واللغوية. وأول ما يلقانا في هذا التطور الهام في الحياة اللغوية بعامة، كتاب له قيمته العلمية وشهرته الواسعة، الا وهو كتاب « معاني القرآن » لابي زكريا يحيى بن زياد الفراء (ت ٢٠٧) ،وهو الكتاب الذي نال عناية الدارسين قديماً وحديثاً.

---

(١) مقاتل : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ص ٩٥ .

معاني القرآن للفراء :

مع ان اسلوب تفسير القرآن بالقرآن كان يبدو مستقلا عن مسائل اللغة والنحو في التفاسير والمصنفات القرآنية التي ظهرت في القرن الثاني بعامة، الا ان من النحاة من توسعوا في الافادة من هذا الاسلوب ونوعوا استخدامه وخاصة الفراء، الذي أولاه أهمية في تبيين وجوه النحو واللغة.

فنراه مثلا في وقوفه عند قوله تعالى : « وشهد شاهد من أهلها » (٢) يذكر الاقوال المختلفة في هوية هذا الشاهد (١) ، ثم يقول : « ولــو كان الكلام « أَنْ كان قميصه » لصلُح ؛ لأن الشهادة تستقبل بـ (أَنْ) ، ولا تكتفي بالجزاء، ــ الشرط ــ فاذا اكتفت فانما ذهب بالشهادة إلى معنى القول ، كأنه قال : وقال قائل من أهلها، كما قال : « يوصيكم الله في أولادكم للـذكر مثل حظ الأنثيين » ، فذهب بالوصية إلى القول » (٣) . ومراده : أن ورود الشرط بعد الشهادة يتطلب في الاستعمال اللغوي دخول (أَنْ) المفسرة بعدها عليه، أو بعبارة أخرى : دخول (أنْ) هذه على (إنْ) الشرطية. فان لم تدخل عليها، فالشهادة هنا بمعنى القول، لانها لا تقتضي على هذا التأويل دخول (أن) على الشرط. واستدل على ذلك كما هو ظاهر بآية أخرى استعملت فيها لفظة قرآنية على هذا الحد في الاستعمال، وهي (يوصيكم) فكان معناها منصرفاً إلى القول، مثل (شهد) سواء بسواء.

فأنت ترى أن الفراء أفاد من تفسير القرآن بالقرآن في تأويلاته المتعلقة بالنحو واللغة.

وعندما يعرب لفظة « أضغاث » في قوله عزّ وجل : « قالوا أضغاث أحلام » (٤) يذكر أنها خبر لمبتدأ محذوف تقديره (هي) ، ثم يستدل لها

---

(١) يوسف : (٢٦) .

(٢) يذكر عن سعيد بن جبير أنه صبي ، وعن مجاهد أنه رجل ، وفي رواية أخرى عن مجاهد أن المراد بالشاهد : حاكم من أهلها : معاني القرآن ٤١/٢ .

(٣) الفراء : معاني القرآن ٤١/٢ .

(٤) يوسف : ٤٤ .

بما ورد في سورة النحل، فيقول : « وهو كقوله : « ماذا أنزل ربكم قالوا أساطير الاولين » ،كفروا فقالوا :لم ينزل شيئا إنما هي اساطير الاولين»(١)

ونراه يستدل للقراءة التي بالرفع في آية ابراهيم بما ورد في آية التوبة . (٢) وهو إذ يفعل ذلك فانما يسلك ضربا من الاستدلال للقرآن بالقرآن، أو قل ضرباً لتفسير القرآن بالقرآن وهي وجهة من التطور في استعمال هذا الاسلوب جديدة وهامة في الحياة اللغوية القرآنية .

معاني القرآن واعرابه للزجاج

ولا نكاد نتجاوز القرن الثالث بقليل حتى نلتقي بعالم جليل من علماء القرآن ذلكم هو ابو اسحق ابراهيم بن السَّري الزجّاج (ت ٣١١ هـ) ، الذي صنف كتاباً قيما في الدراسات اللغوية القرآنية ، هو « معاني القرآن واعرابه ». والكتاب يمثل مرحلة متقدمة من النضج في تأليف هذا النمط من كتب التفسير، أعني الكتب التي يطلق عليها مصنفوها اسم « معاني القرآن » أو « معاني القرآن واعرابه » ،على خلاف جزئي في التسمية .

ومع ان الزجاج اعتمد في بيان معاني القرآن على الشرح اللغوي قبل كل شيء، وأولاه مزيداً من الاهتمام، واستدل له بالمأثور من كلام العرب شعراً ونثراً. الا انه إلى جانب ذلك لم يعدم الاستدلال على معاني الآى بآى أخرى، شأنه في هذا شأن من سبقه من المفسّرين.

وفي هذا الصدد يقول الدكتور عبد الجليل عبده (٣) شلبي محقق الكتاب : « ويعني الزجاج بتفسير القرآن بالقرآن، مستشهدا على المعنى الذي يشرحه في آية ما بذكر آية أخرى، قد تكون أصرح وأبين مما تدل عليه الآية التي

---

(١) معاني القرآن ٢/٤٦ – ٤٧ .

(٢) الفراء : معاني القرآن ٢/٦٧ .

(٣) مقدمة كتاب (معاني القرآن وإعرابه) للزجاج ص (هـ) .

يشرحها. وهو في هذا الصدد قوي بارع، واستشهاداته قوية في دلالتها على ما يريد » .

والزجاج يسلك هذا المنهج والاسلوب في ملاحظه اللغوية النحوية حين يعرض لتفسير الآى، على نحو وقوفه على (الم . ذلك الكتاب) (١) ، في سورة البقرة، اذ بين ان المراد بـ « ذلك » الاشارة الى شيء « قد جرى ذكره، فان شئت قلت فيه « هذا »،وان شئت قلت فيه « ذلك » ، كقولك: انفقت ثلاثة وثلاثة فذلك ستة . وان شئت قلت هذا ستة » ، ثم نظر له بما ورد في سورة النازعات في شأن فرعون، فقال : « كقوله عز وجل : « فحشر فنادى فقال أنا ربكم الأعلى فأخذه الله نكال الآخرة والأُولى، ثم قال بعد ذلك : « ان في ذلك لعبرة لمن يخشى » ، كما نظّر له بما ورد في سورة الانبياء، وهو قوله تعالى : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون » ثم قوله : « ان في هذا لبلاغا لقوم عابدين » ، ونظّر له فوق ذلك بشاهد ثالث هو قوله تعالى في سورة الرعد : « المر تلك آيات الكتاب والذي أنزل إليك من ربك الحق ». فأكد في هذه الشواهد القرآنية المتضافرة ما ذهب اليه في آية البقرة من أن ما جرى الحديث عنه وتصرّم الكلام عليه، يجوز ان يُعبّر عنه باسم الاشارة الدال على ما هو بعيد أو ما هو قريب.

أمالي المرتضى

حتّى اذا جزنا القرن الثالث إلى الرابع وجدنا بين أيدينا كتاباً قيماً للشريف علي بن الحسين الموسوي الملقب بـ »المرتضى (ت ٤٣٦ هـ)، جمع فيه بين دراسة الأدب ونقده وبين اللغة والتفسير، وقد رتبه على شكل مجالس، القاها في طريقه إلى الحج سنة ٣٩٥هـ. فكان لهذه المجالس شهرة واسعة في الاوساط

---

(١) معاني القرآن وإعرابه ١/٣٠ عند تفسير الآيتين ١/-٢ من البقرة .

(٢) البقرة : ٦٤ .

العلمية والأدبية، وقد جمعها في كتاب سماه « الغرر والدرر » ثم عرفت بين الناس بالامالي.

لقد ضمت الأمالي في جملة ما ضمت من مواد تفسير القرآن بالقرآن، وقد وظفه المرتضى ببراعة في ملاحظه اللغوية وتوجيهاته النحوية، مستعيناً في ذلك بثقافته اللغوية الواسعة وبقدرته على الاستشهاد بالآثار الأدبية وخاصة الشعر العربي القديم. من ذلك أنه احتمل لقوله تعالى في اليهود : « غُلَّتْ أيديهم » (١) ثلاثة وجوه منها :

« أن يكون معنى الكلام : وقالت اليهود يد الله مغلولة فغُلَّت أيديهم، أو وغُلَّت أيديهم، وأضمر تعالى الفاء والواو؛ لأن كلامهم تمّ واستؤنف بعده كلام آخر. ومن عادة العرب أن تحذف فيما جرى مجرى هذا الموضع». واستدل على هذا التوجيه اللغوي للآية بقوله عزّ وجل في موضع آخر : «واذ قال موسى لقومه ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا اتتخذنا هزوا»(٢) وقال : « أراد : فقالوا اتتخذنا هزوا » ،فأضمر الفاء ، لتمام كلام موسى عليه السلام. ثم استدل بعد ذلك بدليل آخر ، ليعضد به ما قدمه من الدليل القرآني وهو قول الشاعر :

لمّا رأيتُ نَبَطاً أنصارا   شَمّرتُ عن ركبتيَ الإزارا
كنتُ لها من النصارى جـارا

وقرّر الكلام :« وكنت » ، وبيّن ان الشاعر قد اضمر الواو (٣) .

وبذلك زاوج المرتضى بين الشاهد القرآني والشاهد الشعري في التأويل المبني على الملاحظ اللغوية والتوجيهات النحوية. وهذا من منهجه المتميز الذي عني به في أماليه، وهو صورة للحياة اللغوية المزدهرة، التي شهدها

---

(١) نفسها : ٦٧ .
(٢) البقرة : ٦٧
(٣) أمالي المرتضى ٢/٤ – ٥

القرن الرابع ، بثروته اللغوية المتنوعة وعطائه العريض في أكثر فنون المعرفة. ويتخذ المرتضى من سياق الآية قرينة لغوية لتعيين دلالة لفظة ما فيها دون الدلالة الاخرى. فهو يذكر أن قوله تعالى في وصف البقرة : « لا فارض ولا بِكر عوان بين ذلك » (١) فيه قولان : أحدهما المسنة، والاخر العظيمة الضخمة. تقول العرب : غرب فارض، أي : ضخم، ويقال : لحية فارضة، اذا كانت عظيمة. ثم قال : « والأشبه بالكلام أن يكون المراد : المسنة». فالتفت في قوله « الاشبه » إلى سياق الآية نفسها، اذ ذُكرت فيها « البِكر » وهي الصغيرة، فجاءت المسنة على وجه التقابل لها، فكانت مفسرّة بها. ولهذا قال بعد ذلك : « فأما البكر فهي الصغيرة التي لم تلد، فكأنه تعالى قال : تكون غير مُسِنة ولا صغيرة » (٢) ، يريد أنها وسط بين النوعين.

مفردات الفاظ القرآن للراغب :

في نهاية القرن الخامس صنف أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الاصفهاني (ت ٥٠٣ هـ) كتاباً قيماً رائداً في تفسير ألفاظ القرآن عرف بـ « مفردات ألفاظ القرآن » . أورد فيه معاني الألفاظ القرآنية في آي الكتاب المبين ، مدفوعاً بحقيقة لم تغب عن باله ، وهي أن أول مايُحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن ، العلوم اللفظية . ومن العلوم اللفظية تحقيق الالفاظ المفردة ، وأن تحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن ، من أوائل المعادن لمن يريد أن يدرس معانيه (٣) فهذا مايطالعنا به في مقدمة كتابه ، وهو مانقله عنه الزركشي (٤) دون أن يعزوه اليه .

ويقوم منهج الراغب بعامة في كتابه على ايراد دلالة اللفظة القرآنية في اللغة، ملاحظاً تطورها إلى حد معقول خلال العصور ، على مالاحظ الخولي (٥)،

---

(١) البقرة : ٦٩ .

(٢) أمالي المرتضى ٣٩/٢ .

(٣) الراغب : مقدمة مفردات الفاظ : القرآن ص (ن) .

(٤) البرهان في علوم القرآن ١٧٣/٢ .

(٥) مناهج تجديد : ص ٣١٣ - ٣١٤.

ثم ينتهي من ذلك إلى بيان دلالة هذه اللفظة أو دلالاتها — ان كان لها اكثر من دلالة — في استعمال القرآن ، متتبعاً ذلك في آي القرآن . ثم يمثل لها بأكثر من آية رادا بعض الآى على بعض في استقراء وتتبع دقيقين . فلننظر اليه أولا كيف وقف عند معنى (الاحاطة) في القرآن ، حين عرض لها في مادة (حوط) بالبيان . فبين أولا أن الحائط : الجدار الذي يحوط بالمكان ، وان الاحاطة تَرِد على وجهين : أحدهما في الأجسام — المُحسّات — والأخر في العلم ، وبعد ضرب الأمثال من اللغة والقرآن ، ينتهي إلى معنى آخر للاحاطة هو : احاطة القدرة الالهية ، ويمثل له بقوله تعالى: «وظنوا أنهم أحيط بهم» (١) ويقول : فذلك احاطة القدرة ، ثم ينظرّ له بما ورد في موضعين آخرين من القرآن ، أحدهما قوله عزّ وجل في الفتح : «وأخرى لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها » ، والآخر بالضم في قوله: «واني أخاف عليكم عذاب يوم محيط»(٢)

والراغب دقيق في ملاحظة القرائن السياقية الدالة على المعنى الدقيق أو المعاني الدقيقة المتعددة للفظة القرآنية ، التي يتناولها بالتفسير . وخاصة تلك التي تقرب من اللفظة إما تقدماً عليها أو تأخراً عنها .

فهو حين يعرض مثلا لبيان دلالة (حين) في اللغة واستعمال القرآن ، يبين أولا أن الحين : وقت بلوغ الشيء وحصوله ، ويذكر بعد ذلك أنه مبهم المعنى « وانما يتخصص بالمضاف اليه » نحوقوله تعالى: «ولات حين مناص»(٣) . ثم ينتقل إلى غير المضاف من الحين ، فيبين أنه يأتي على أوجه متعددة ، فيذكر هذه الأوجه مستدلا عليها بالقرائن المحيطة بلفظة الحين في المواضع المختلفة من القرآن . يقول :« ومن قال حين فيأتي على أوجه : للأجل ، نحو : «ومتعناهم إلى حين» ، وللسنة، نحو قوله تعالى: «تؤتي أكلها كل حين بأذن ربها» ، وللساعة نحو : «حين تمسون وحين تصبحون» ، وللزمان المطلق ، نحو :

---

(١) يونس : ٢٢.

(٢) الراغب : مفردات القرآن ص ١٣٥ — ١٣٦ والاية من هود : ٨٤.

(٣) سورة ص : ٣.

«هل أتى على الانسان حين من الدهر»، «ولتعلمن نبأه بعد حين». ثم يقول في ختام هذا الاستشهاد لمعاني (حين) الدقيقة في القرآن، مشيراً إلى «أثر اللفظ القرآني في الكشف عن دلالتها: «وانما فُسِّرَ ذلك بحسب ماوُجِدَ قد عَلِقَ به»(١).

(٣)

في الموازنة بين المأثور :

تفسير الطبري :

لم تكن الموازنة بين المأثور في التفسير قبل محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) واضحة في التفاسير التي عنيت بالاثر . بل كانت الصفة الغالبة عليها ايراد الروايات دون موازنة بينها . حتى اذا صنف الطبري تفسيره الشهير القيم : جامع البيان عن تأويل آي القرآن، وضمنه ماتنخله من المأثور المروي عن النبي (ص) والصحابة والتابعين وأهل البيت، لم يكتف منه بالتدوين دون الموازنة والترجيح في أغلب الاحوال، وقد اعتمد في ذلك على أساليب ومرجحات متنوعة كاجماع المفسرين وطرائق العرب وأساليبهم في الكلام، والحقائق الدينية الثابتة بالدليل القاطع، والتفسير بالقرآن.

فالطبري حين يوازن بين المأثور يرجح بعضه على بعض، في كثير من المواضع على أسس من دلالات الآي في السياق أو في المواضع الأخرى من القرآن . وهو اذ يسلك هذا الاسلوب فانما ينعش منهج المدرسة القرآنية ويكتب له الانتشار ودوام الحياة . ذلك المنهج الذي يتخذ من القرآن وسيلة لتفسير القرآن، على مابيناه في غير موضع سالف من هذا البحث.

فنراه مثلا في تفسير آية البقرة (٢): «إن الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون»، يورد ما أثر عن عدد من الصحابة والتابعين من وجوه في تأويلها . فيروى بسنده عن ابن عباس أنها نزلت في اليهود، ومعنى ذلك

---

(١) الراغب : مفردات القرآن ص ١٣٨ .

(٢) البقرة : ٦ .

أنها تعنيهم في ماتضمنته من الذم . كما يروي رواية أخرى عن ابن عباس من أن الرسول (ص) كان يحرص على أن يؤمن جميع الناس ، فأخبره الله تعالى انه لايؤمن إلا من سبق له من الله السعادة ، ولا يضل الا من سبق له من الله الشقاء (١) . ويروي عن الربيع بن أنس – التابعي – أن المعني بالآية قتلى بدر (٢)

ثم يوازن الطبري بين هذه التأويلات الواردة في هذه الروايات ، فيرجح رواية ابن عباس التي تقول إن الآية نزلت في اليهود وعنتهم بالذم . ويبني ترجيحه هذا في ضوء السياق ، اذ رآه دالاً على ذلك ، لانه كان يتحدث عن أهل الكتاب وايمانهم وصفاتهم ، (٣) يقول : وأولى هذه التأويلات بالآية ، تأويل ابن عباس الذي ذكره محمد بن أبي محمد عن عكرمة أو عن سعيد بن جبير ... ثم يقول : وأما علتنا في اختيارنا ما أخترنا من التأويل في ذلك فهي ان قول الله جلّ ثناؤه «ان الذين كفروا سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لايؤمنون» – ورد عقيب خبر الله جلّ ثناؤه عن مؤمني أهل الكتاب . وعقيب نعتهم وصفتهم وثنائه عليهم بايمانهم به وبكتبه ورسله . فأولى الامور بحكمة الله أن يتلي ذلك الخبر عن كفارهم ونعوتهم وذم أسبابهم وأحوالهم ، واظهار شتمهم ؛ لأن مؤمنيهم ومشركيهم – وان اختلفت أحوالهم في اختلاف اديانهم – فان الجنس يجمع جميعهم بأنهم بنو اسرائيل . وصنيع الطبري في هذا الترجيح المبني على ملاحظة السياق شبيه باللمحة البلاغية الأسلوبية ، أو بعبارة أخرى شبيه باللمحة البلاغية التي لاتقف عند اللفظة المفردة أو التركيب بل تتسع خطواتها إلى القطعة من الكلام ، وهو ملمح بلاغي ذو سمة فنية قيمة . فهو حين احتكم إلى السياق في ترجيح قول ابن عباس الاول ، فانما جعل الآية متصلة به على ضرب من التقابل . لان الكلام لما تقدم في الآيات السابقة لهذه

---

(١) الطبري : جامع البيان ٢٥١/١ – ٢٥٢.

(٢) نفسه ٢٥٢/١ .

(٣) نفسه ٢٥٢/١ – ٢٥٣.

الآية في وصف مؤمني أهل الكتاب ـ كما يرى الطبري ـ فقد سوّغ ذلك له أن يجعل هذه الآية نازلة في كفارهم متحدثة عنهم . والتقابل في الكلام ضرب من العلائق والوشائج التي تربط بعضه ببعض .

وبذلك استطاع الطبري بثقافته القرآنية الواسعة وبراعته الذهنية ، أن يلج هذا الأسلوب من أساليب التفسير ، وان يستخدمه بدقة في نظره في المأثور ، وموازنته بين رواياته المتعددة .

(٤)

في تأويل المشكل والمتشابه :

من فروع التفسير المهمة تأويل مشكل القرآن ومتشابهه ، ويراد بالمشكل: إما الذي يشبه غيره ويشاكله، وإما الذي يغمض معناه من غير جهة التشابه (١) وهذا تعريف ابن قتيبة له ، وهو من أقدم من بحث في هذا الموضوع من من موضوعات تفسير القرآن .

أما المتشابه ، فهو في أجمع تعريف له وأدقه : ماأشتبه المراد منه بغيره «وهو ماغمض ودق ولم يعلم بظاهره» . ولدينا في هذين الموضوعين الهامين: المشكل والمتشابه ، آثار كثيرة ، من أشهرها ثلاثة كتب سنعرض لها بالدراسة أحدها كتاب ابن قتيبة ، وهو في المشكل ، والآخران للشريف الرضي والقاضي عبد الجبار الهمداني ، وهما في المتشابه . وقد سلك مصنفو هذه الكتب ، في جملة ماسلكوه في ايضاح المشكل وتأويل المتشابه ، ردّ الآيات بعضها إلى بعض . ومعنى هذا انهم فسروا القرآن بالقرآن لرفع الغموض والابهام عما اشكل او تشابه .

تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة :

أفاد ابو عبد الله مسلم بن قتيبة الدينوري (ت ٢٧٦هـ) من أسلوب تفسير القرآن بالقرآن فائدة واضحة ؛ كانت احدى الركائز التي استند اليها في تفسير ماأشكل معناه وغمض ودق من الفاظ القرآن وعباراته . وكتاب ابن قتيبة هذا رائد ومهم ، وقد عني به الباحثون في الدراسات القرآنية قدامى

---

(١) الرضي : حقائق التأويل في متشابه التنزيل ص ١٣ .

ومحدثين . فنقل عنه أناس (١) ، ونقده آخرون (٢) ؛ وتناولناه بدراسة مفصلة نرجو أن ننشرها عن قريب .

ومن مثل افادته من أسلوب التفسير بالقرآن ، مابينه في وقوفه عند مشكل سورة (سبأ) اذ اورد الاية الكريمة :«ولو ترى اذ فزعوا فلا فوتَ وأخذوا من مكان قريب»(٣) ، ثم فسر المعنى بقوله :«ولو ترى يامحمد فزعهم حين لافوتَ ، أي : لامهرب ولاملجأ يفوتون به ويلجأون اليه» ، ثم استدل عليه بما ورد في سورة (ص) فقال : «وهذا نحو قوله : «فنادوا ولاتَ حين مناص أي : « نادوا حين لامهرب » . فأوضح معنى عبارة لا فوت في الآية الاولى ، بعبارة لات حين مناص في الآية الثانية ، حين وردها اليها .

ونراه يستعين بهذا الأسلوب في تأويل الآي التي يصادم ظاهرها أصلا من أصول العقيدة الاسلامية ، كتنزيه الانبياء من الكذب . ففي وقوفه عند قوله تعالى في محاورة ابراهيم عليه السلام لقومه:«فنظر نظرة في النجوم فقال اني سقيم»(٤) يشعر ان قول أبي الأنبياء اني سقيم، حين دعاه قومه المشركون إلى مجمع لهم ، لايخلو من أشكال ، من حيث كان ذلك قد يؤدي إلى نسبة الكذب اليه – حاشاه – وذلك بلاريب مخالف لعقيدة المسلمين في النبوة . ولذا فهو يؤوله على الاستقبال بتقدير : «سأسقم فلا اقدر على الغدوّ معكم» . ولكن يبقى اشكال آخر هو كيف عرف أبو الأنبياء انه سيمرض ؟ والجواب عند ابن قتيبة ، أن ذلك ضرب من التورية في الكلام، يقول : «هذا الذي

---

(١) منهم ابن فارس في (الصاحبي) والمرتضى في(الامالي) والشاطبي في (الموافقات) ولخصه محمد بن حمد بن مطرف الكناني القرطبي .

(٢) عرف ذلك عن ابي بكر محمد بن القاسم الا نبارى (ت ٣٢٨هـ) الذي رد عليه بتحامل في «رسالة المشكل» انظر مقدمة (تأويل مشكل القرآن) بقلم سيد صقرص ٧٠ .

(٣) سبأ :٥١ .

(٤) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ٣٣٠

أوهمهم بمعاريض الكلام ، ونيته انه سيسقم غداً لامحالة ؛ لأن من كانت غايته الموت ومصيرة الفناء سيسقم » .

ثم يستدل لهذا التأويل ، الذي بناه على ماعدّه البلاغيون الذين جاؤا من بعده ضرباً من المجاز المرسل الذي علاقته اعتبار ماسيؤول اليه (١) ، بآية أخرى فيقول: «ومثله قوله تعالى : «انك ميت وانهم ميتون» ولم يكن النبي صلى الله عليه وسلم ميتاً في ذلك الوقت ، وانما اراد انك ستموت وسيموتون (٢).

ويستعين ابن قتيبة بهذا الاسلوب أيضاً في تأويل مايتعلق بأسلوب القرآن ونظمه من المشكل الذي تناوله بالبيان . فعندما أول بعضهم قوله تعالى : «واجعلنا للمتقين اماماً » (٣) على القلب، بتقرير : اجعل المتقين لنا إماماً ، بُملحظ ان ذلك وارد في الشعر ؛ لان الشعراء تقلب اللفظ وتغير الكلام على الغلط وضرورة القافية أو وزن البيت .... ، لم يرتض ابن قتيبة هذا التأويل وهذا المذهب في الاعتبار ، منطلقاً من حقيقة علمية لايحاد عنها وهي « أن الله تعالى لايغلط ولا يضطر» ، فلا يخضع القرآن على هذا للضرورات . ثم يؤول الكلام في الآية على أصله أي « اجعلنا أئمة في الخير يقتدي بنا المؤمنون». ويستدل له بآية أخرى هي « وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما » صبروا(٤) اي قادة ، ويقول : كذا قال المفسرون (٥) .

حقائق التأويل في متشابه التنزيل للرضي :

لانكاد نصل إلى نهاية القرن الرابع ، حتى نجد عالماً أديباً وهو الشريف محمد بن الحسين الموسوي الملقب بـ (الرضي) (ت ٤٠٦ هـ) ، يصنف كتاباً قيماً في تأويل الآيات المتشابهات يسميه : حقائق التأويل في متشابه التنزيل ، يعنى فيه عناية واضحة بتفسير القرآن بالقرآن ويتخذ من هذا المنهج أساساً هاماً

---

(١) وجعل منه الطوسي (ت ٤٦٠هـ) قوله تعالى : «فمنهم شقي وسعيد» .
(٢) ابن قتيبة : تأويل مشكل القرآن ص ٣٣٦ .
(٣) الفرقان : ٧٤ .
(٤) السجدة : ٢٤.
(٥) تأويل مشكل القرآن ص ٢٠٥ .

في بناء التأويل الذي يذهب اليه ، وهو تأويل يرد فيه تلك الآيات المتشابهات إلى أمها المحكمات متخذاً من الآية السابعة من سورة آل عمران ـ آية المحكم والمتشابه ـ سنداً ودليلا ـ ناطقاً بسلامة منهجه هذا وأحقيته . وللرضي في هذا الأصل يقرره ويلتزم عملياً به، وهو : «أن من صفة المتشابه الا يقتبس ظاهرة وفحواه ، فوجب رده إلى ماورد من المحكم في هذا المعنى» (١) .

ونراه يوظف هذا الأسلوب في تأويل مجموعة من الآيات المتشابهات ، ويشعرنا منهجه بالحرص على دفع شبهة أو ازالة وهم او رد اعتراض معترض وتتعلق تلك الشبهات بلغة القرآن وتعبيره بصيغة دون أخرى ، كما تتعلق بمعانيه وهو الاكثر . وقد رتبها على صورة أسئلة مفترضة يثيرها سائلون ، تحمل في طياتها تلك الشبهات والأوهام التي خطرت ببال هؤلاء . فيجيب عنها المصنف بما يجلي الحقائق ويرد الاشكالات .

ويذكرنا هدفه في تحرير مادة الكتاب على النحو الذي وصفناه ، بصنيع ابن قتيبة من قبل وهدفه من تحرير مسائل كتابه تأويل مشكل القرآن . غير أن ابن قتيبة لم يتناول الآيات المتشابهات خاصة بالتأويل ، بل تناول إلى جانبها آيات محكمات درسها من جوانب لغوية ، وعرض لها بالبيان والتأويل ليكشف غموضها ويحل اشكالها .

أما الرضي فقد خلص كتابه كله للمتشابه ، وانبرى يؤوله بأساليب متنوعة في مقدمتها رده إلى المحكم ، أو بعبارة أخرى تفسيره بالقرآن . ففي وقوفه عند قوله تعالى: «ربنا لاتزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا» (٢)، بين الرضي أن الآية لايمكن أن تحمل على ظاهرها ، لانها لو حملت عليه لأدتنا إلى أن الله سبحانه يُضل عن الايمان . وقد قامت الدلائل على انه لايفعل ذلك، لان ذلك

---

(١) الرضي : حقائق التاويل في متشابه التنزيل ص ٢٣ ، وانظر : كاصد الزيدي منهج الطوسي في تفسير القرآن ص ٦٠ .

(٢) ال عمران : ٨

قبيح وهو غني عنه ، ولانه أمرنا بالايمان وحبّبه الينا فكيف يزيغ قلوبنا عنه ؟؟ .

ثم يبين أن الإزاغة تَرِدُ في المحكم تارة وفي المتشابه تارة أخرى ، فلابد من ردها في هذه الآية المتشابهة إلى أختها المحكمة ، وهي قوله عزّ وجل : «فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم » (١)،التي أفادتنا بأن الزيغ الاول كان منهم ، وأن الثاني كان من الله عقوبة لهم على زيغهم ، وأن الزيغ الأول غير الثاني ؛ لان الأول قبيح والثاني حسن ؛ اذ كان جزاء وعقوبة فعلمنا من ذلك أن زيغهم كان عن الإيمان ، وازاغته تعالى لهم انما كانت عن طريق الجنة والثواب . وهو في هذا يستمد من المبرد (ت ٣٨٥هـ) ، والرماني (ت ٣٨٦هـ) ، إذ كانا يعدان ذلك من المزاوجة المراد بها الجزاء (٢) .

متشابه التنزيل للقاضي عبد الجبار :

على الرغم من عناية المعتزلة الكبيرة بالعقل وحجيته ؛ حتى انهم قدموه على السماع ، الا أنهم مع ذلك كثيرو العناية بالاستدلال بالشاهد السمعي ، وخير مااستدلوا به من تلك الشواهد النصوص القرآنية ، اذ كانوا كثيراً مايوظفونها في حل المشكلات العقيدية وأخص منهـا تلك التي تتعلق بمتشابه القرآن .

والقاضي عبد الجبار الهمداني (ت ٣١٥هـ) من أولئك العلماء الافذاذ الذين خدموا القرآن ودراساته بما خلدوا من مصنفات قرآنية تمتاز بالتحقيق ، وتهدف إلى رد المطاعن والشبهات عن كتاب الله المبين . وكتابه متشابه القرآن من خيرة ماصنف في هذا الميدان ، ومثله كتابه الآخر : تنزيه القرآن عن المطاعن وكلاهما مطبوع متداول .

واذا كان الشريف الرضي الامامي ، يرى كما يرى جمهور المفسرين ، ان المتشابه يرد إلى المحكم ليفسر به ، فان القاضي عبد الجبار المعتزلي يضيف

---

(١) الصف : ٥ (٢) :ينظر : ما تفق لفظه واختلاف معناه للمبرد ص ١٤ ، والنكت في اعجاز القرآن للرماني ص ٩٩ ومنهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم ص ٦٠ لكاصد الزيدي

اليه اصلا آخر هو دليل العقل ، وقد أفصح عن منهجه هذا عند بيان أوجه الشبه والاختلاف بين المحكم والمتشابه من القرآن ، في مقدمه كتابه المذكور انفاً ، وهو ان المتشابه يحتاج عند سماعه إلى فكر مبتدأ ونظر مجدد لحمله على الوجه الذي يطابق المحكم او دليل العقل (١) .

ومهما يكن من أمر ، فالذي يهمنا في بحثنا هذا هو كيفية إفادة القاضي من أسلوب تفسير القرآن بالقرآن في تأويل الايات المتشابهات . أما حجية العقل التي أشار اليها فدليل آخر لانعرض له بالبيان لخروجه عن موضوع بحثنا . ولنضرب لذلك مثالا يبين — عملياً — عناية القاضي بالقرآن في بيان معاني القرآن ، الذي أفاد عنه في رفع الاشكالات وايضاح الشبهات التي قد تراود ذهن قارىء الكتاب المبين .

في وقوفه عند قوله تعالى : واعلموا ان الله يحول بين المرء وقلبه (٢) يذكر انه لايصح تعلق المُجْبَرِة في أنه تعالى يمنع من الايمان ، لأن ظاهره يقتضي أنه يحول بين المرء وقلبه، لابينه وبين أفعال قلبه . « ويبين » ان المراد بذلك أنه يحول بين المرء وقلبه بالاماتة — المعنوية طبعا — فيخرج من أن يمكنه التلافي بالتوبة والندم، ورغّب تعالى بذلك في المبادرة إلى التوبة وتلافي المعصية . ثم يستدل على هذا الوجه بالسياق ، فيقول : ويؤكد ذلك ماتقدمه من قوله: استجيبوا لله والرسول اذا دعاءكم لما يحييكم (٣) ، فأمر بالمبادرة إلى طاعة الله ورسوله قبل حلول الموت الذي يفوت ذلك (٤) .

ان القاضي بارع في استنطاق السياق ، للوصول إلى المعنى المراد من الاى وذلك حين تحمل الآية على غير تحملها وتفسّر على خلاف وجهها فلننظر اليه في مثال آخر يجلي هذا الذي نقول : إن ظاهر قوله تعالى : « ثم بدلنا مكان

---

(١) القاضي : متشابه القرآن ص ٧ ، ويذكر في ص ٣٧ ان المحكم والمتشابه موافقان للعقل

(٢) الحديد : ٢٤.

(٣) الانفال : ٢٤ .

(٤) متشابه القرآن ص ٣٢١ — ٣٢٢ .

السيئة الحسنة حتى عفوا» (١) ، دال على انه تعالى قد بدل مكان السيئات الحسنات ، وهذا يوجب ان على الكفار قد حصلوا على الحسنات ، وكذلك كل من أقدم على السيئة ،وهذا كما يقرر القاضي ليس بقول لأحد على وجه. أو بعبارة أخرى : لاينبغي ان يصار اليه ، أو يفهم النص بحسبه .

ثم يبين بعد هذا الاشتباه في حقيقة المعنى المراد من الايه ، ماأريد بالآية وهو «انه تعالى بدل مكان ماكانوا عليه من القحط والشدة وضروب المضار والمصائب والخصب والرخاء وضروب المنافع ، على طريقة العرب في تسمية المنفعة بالحسنة ، وضد ذلك بالسيئة ، ولذلك قال تعالى بعده : وقالوا قد مس آباءنا الضراء والسراء (٦)ثم يقول: وذلك لايليق الا بما ذكرناه (٢) . ففسر القاضي القرآن بالقرآن عندما عرض للآيات المتشابهات بالايضاح والبيان.

(٥)

في تفاسير العقل والرأي :

لم تعدم التفاسير التي عنيت بالعقل والرأي من العناية بالنقل ، بل هي تعتمده اسلوباً من اساليب التفسير المهمة . فنسبة الرأي والعقل اليها ليست في الواقع نسبة مطلقة بل هي جارية على الغالب عليها، والأظهر من تلك الأساليب فيها . فنحن اذا بحثنا في تفاسير المعتزلة ومن نحا هذا النحو من تفاسير أهل السنة والامامية وغيرهم من المدارس الاسلامية ، لم نعدم اثراً واضحا واستخداما مجديا لأسلوب تفسير القرآن بالقرآن فيها . ودونك من مدرسة المعتزلة تفسير ابي على الجبائي (ت ٣٠٣هـ) وأبي القاسم البلخي (ت٣١٩هـ) وأبي مسلم محمد ابن بحر الأصفهاني(ت٣٢٢هـ) وجار الله الزمخشرى (ت ٥٣٨هـ) . ومن تفاسير أهل السنة تفسير فخر الدين الرازى (ت ٦٠٦هـ) وناصر الدين البيضاوى (ت ٧٩١هـ) والجلالين المحلي (ت ٨٦٤هـ) والسيوطي (ت ٩١١هـ) ، ومن تفاسير الامامية تفسير أبي جعفر الطوسي (ت ٤٦٠هـ) وابي علي الطبرسي

---

(١) الاعراف : ٩٥ .

(٢) متشابه القرآن ص ٢٨٨ .

(ت ٥٤٨هـ) . غير من ذكرناهم من المفسرين الذين ينتمون لهذه المدرسة او تلك ،ممن وظفوا تفسير القرآن بالقرآن في اتجاهات اكثر ظهورا في تفاسيرهم: من نحو اللغة والنحو، او الموازنة بين المأثور ، او ايضاح المشكل والمتشابه، وهو مابيناه فيما سلف من كلام .

ولانريد هنا الاستقصاء في ايراد التفاسير التي توضح هذا الاتجاه ، فليس هذا من منهجنا في شيء ، بل نريد ان نلقي ضوءا كاشفا على استعمال هذا الاسلوب في التفاسير التي عنيت بالنقل والرأى ، او قل : نسبت اليه عند الباحثين والدارسين ، من مختلف المدارس الاسلامية لنؤكد حقيقة مهمة هي ان هذا الاسلوب لايكاد تفسير من التفاسير يستغني عنه ، إلى أية مدرسة انتمى وإلى اى اتجاه سار ، وسيتضح ذلك لنا وشيكاً ان شاء الله عند عرض عدد من التفاسير.

تفسير أبي علي الجبائي :

لابي علي محمد بن عبد الوهاب الجبائي المعتزلي (ت ٣٠٣هـ) تفسير ضخم وصفه الملطي بأنه يقع في مئة جزء (١) وبيّن القاضي عبد الجبار (٢) أنه املاه على تلامذته من غير كتاب الا أن هذا التفسير مفقود ولم يصل الينا منه الا نقول في عدد من التفاسير كحقائق التأويل للرضي ، وأمالي المرتضى ، والتبيان للطوسي ومفاتيح الغيب للرازى . واخترنا في هذه الدراسة شيئا مما نقله المرتضى ملاحظين في هذا الاختيار دلالته على استعمال الجبائي لاسلوب تفسير القرآن بالقرآن .

إن الاية الكريمة :«ربنا لاتزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهَب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب» (٣) التي مر علينا تأويل الشريف الرضي لما بردها إلى آية محكمة يتناول الجبائي تفسيرها بنفس الاسلوب،ولكن بشواهد أخرى منالقرآن .

---

(١) زرزور – الدكتور عدنان : الحاكم الجشمي ومنهجه في تفسير القرآن ص ١٣٣ .

(٢) فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ص ٢٩٢ .

(٣) آل عمران : ٨.

والاية تثير سؤالاً قد يلقيه سائلون أو شاكون . وهو : «أوليس ظاهر الاية يقتضي أنه تعالى يجوز أن يزيغ القلوب عن الايمان حتى تصح مسألته تعالى الا يزيغها؟ »(١). فيجاب عن هذا السؤال باجابات منها اجابة أبي علي الجبائي إذ يقول : « المراد بالاية : ربنا لاتزغ قلوبنا عن ثوابك ورحمتك ،ومعنى هذا السؤال :أنهم سألوا الله تعالى أن يلطف لهم في فعل الايمان حتى يقيموا عليه ولايتركوه في مستقبل عمرهم ،فيستحقوا بترك الايمان أن تزيغ قلوبهم عن الثواب، وأن يفعل بهم بدلا منه العقاب». وواضح أنه قدر في الكلام محذوفاً.

وهنا يثار سؤال آخر :ماهذا الثواب الذي هو في قلوب المؤمنين حتى سألوا الله تعالى الايزيغ قلوبهم عنه ؟. ومعنى ذلك أن ماهية هذا الثواب وصورته مبهمة غير معلومة ،فهي تحتاج إلى بيان وايضاح. فيجيب أبو علي بقوله: إن هذا الثواب الذي في قلوب المؤمنين هو ماذكر الله تعالى من الشرح والسعة بقوله: «فمن يُرِدِ اللهُ أن يهديه يشرحْ صدره للاسلام »(٢)، وقوله: «ألم نشرح لكَ صدرَكَ » (٣). وبين أن ضدَّ هذا ،الضيقُ والحَرَجُ اللذان يصيبان الكفار عقوبة لهم على كفرهم.

ثم يستطرد الجبائي في بيان صور هذا الثواب وماهيته مستدلا أيضاً بآي من القرآن فيقول : ومن ذلك التطهير الذي يفعله في قلوب المؤمنين ،وهو الذي منعه الكافرين فقال »: أولئك الذين لم يرد الله أن يطهر قلوبهم (٤)ومن ذلك كتابته الايمان في قلوب المؤمنين ،كما قال تعالى : «أولئك الذين كتب في قلوبهم الايمان وأيدهم بروح منه » (٥).

---

(١) المرتضى : الامالي ٢/٢٦.

(٢) الانعام : ١٢٥ .

(٣) الضحى : ١.

(٤) المائدة : ٤١ .

(٥) الأمالي ٢/٢٧ – ٢٨

وهكذا نجد الجبائي يوالي الاستشهاد بآيات من مواضع متعددة من القرآن ليبين بها معنى عدم زيغ القلوب الذي ورد في آية آل عمران ،فمسر القرآن بالقرآن .

التبيان للطوسي :

ينبثق تفسير القرآن بالقرآن عند أبي جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت٤٦٠هـ). من منطلق واع دقيق ،هو أن القرآن كالسورة الواحدة (١). وهذا يعني أن له وحدة معنوية شاملة وإن تناثرت آياته وتباعدت سورة وأجزاؤه .وقد صرح في بعض المواضع أن من الآي ماتفسره آيات أُخر وتبينّه (٢). ثم انبرى يطبق هذا المنهج في تفسيره التبيان بصورة واضحة ووافية ،إلى جانب عنايته الكبيرة بالعقل والرأي(٣)، إذ كانا ظاهرين في تفسيره ،حتى إن الدكتور عبدالله محمود شحاتة (٤) يرى أن من الممكن وصف الشيخ الطوسي في تبيانه بأنه من رواد المدرسة التي تتبنى التفسير مالم يصح الخبر ويتواتر.

وقد أفاد الطوسي من اسلوب تفسير القرآن بالقرآن في وجهات متعددة كبيان دلالة الالفاظ وتخصيص ماظاهره العموم ، والتوفيق بين الآي التي قد يشعر ظاهرها بالتعارض ،وتأويل متشابه القرآن ،وما إلى ذلك (٥).

ففي وقوفه عند قوله تعالى : وللمطلقات متاع بالمعروف على المتقين(٦)، يلفته في الآية تخصيص امتاع المطلقات بالمتقين ،فيبحث عن وجهه ويستدل له بآية اخرى فيقول : «وانما خص المتاع بالمتقين وان كان واجباً على الفاسقين تشريفاً لهم بالذكر اختصاصاً ،وجعل غيرهم على وجه التبع ،كما قال:

---

(١) الطوسي : التبيان في تفسير القرآن ٣/٤١١ .

(٢) الطوسي : التبيان في تفسير القرآن ١/٢٢٦ – ٢٢٧ .

(٣) تنظر رسالتنا للدكتوراه منهج الطوسي في تفسير القرآن ص ٢١٢ وما بعدها .

(٤) القرآن والتفسير ص ٢٣١ .

(٥) تنظر رسالتنا للدكتوراه ص ٢٠٦ وما بعدها .

(٦) البقرة : ٢٤١ .

«هدى للمتقين» ، ثم اورد وجها آخر بصيغة «قيل» ليس فيه هذا التوجيه(١).

ونراه ، في وقوفه عند قوله تعالى :« قل آمنا بالله وما أنزل علينا وما أنزل على ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والاسباط ...»(٢)،يذكر أن قوله «وما أنزل علينا» في الاخبار عن المسلمين انما جاز ،وان كان القرآن قد أنزل على النبي (ص) ،لأن التقدير أنزل علينا على لسان نبينا .كما تقول : أمرنابه ونهينا – على لسان نبينا–» . ويقول : ومثل ذلك ماقاله في سورة البقرة(٣) من قوله : «قولوا آمنا بالله وماأنزل علينا»وقال بعضهم :لايجوز أن يكون ذلك إلا إخباراً عن النبي (ص) الذي أنزل عليه ، وهذا غلط ،لأن الآية الاخرى تشهد بخلافه »(٤).

من ذلك يتبين لنا،أن الطوسي فسر القرآن بالقرآن :مع ما اشتهر به تفسيره من العناية بالعقل والرأي. وبه نكتفي عن ايراد مزيد من الشواهد .

الكشاف للزمخشري

يستعين جارالله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨هـ) المفسر المعتزلي الشهير . بأسلوب تفسير القرآن بالقرآن في موارد كثيرة من تفسيره ،بل هو يصرح بأنه أمثل أساليب التفسير وأكثرها سداداً فيقول : أشدّ المعاني مادل عليه القرآن.ولما كان الزمخشري يقف– كسائر المعتزلة–عند الآي التي قد يدل ظاهرها على الجبر ،ليحل اشكالها ويزيل إبهامها بما يدفع هذا الظن ،فانه كثيراً مايعمد إلى هذا الاسلوب في جملة ما يعمد اليه من أساليب وطرق تحقق له هذه الوجهة ،من مثل العقل واللغة والبلاغة .

---

(١) التبيان في تفسير القرآن ٢٨١/١

(٢) آل عمران : ٨٤.

(٣) اية : ١٣٦ .

(٤) التبيان : ٥٢٠/٢.

ففي وقوفه عند قوله عزّ وجل «في وصف الكافرين»: ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى ابصارهم غشاوة (١)، يثير الزمخشري مسألة كلامية على طريقته في اصطناع اسلوب الفنقلة (٢)، تتعلق بالعدل الالهي وهو الاصل الثاني من أصول الدين عند المعتزلة (٣). فيفترض أن سائلا يسأل هذا السؤال: فلِمَ أسند الخَتْمَ إلى الله تعالى، واسناده اليه يدل على المنع من قبول الحق والتوصل اليه بطرقه وهو قبيح، والله يتعالى عن فعل القبيح علوا كبيرا، لعلمه بقبحه وعلمه بغناه عنه. وقد نص على تنزيه ذاته بقوله «وما أنا بظلام للعبيد»، «وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين» «ان الله لايأمر بالفحشاء»، ونظائر ذلك مما نطق به التنزيل»؟

ثم يجيب عن هذا السؤال المفترض — وافتراضه موقف عقلي واضح — بعدة أجوبة، مستنداً إلى حجج العقل وأساليب البلاغة واللغة، وينتهي به المطاف إلى الوجه الخامس الذي بيّن فيه أن ذلك يكون حكاية لما يقوله الكفار عن أنفسهم وتهكماً بهم، من مثل قولهم: «قلوبنا في أكنة مما تدعونا اليه وفي آذاننا وقر ومن بيننا بينك حجاب»، وينظّر له ايضاً بقوله تعالى «لم يكن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين منفكين حتى تأتيهم البيّنة».

ويثير الزمخشري بأسلوب الفنقلة، سؤالا آخر مفترضاً، يقول فيه: ان اللفظ يحتمل في الآية أن تكون الاسماع في قوله تعالى: «ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة» داخلة في حكم الختم وفي حكم التغشية، فعلى أيهما يعولّ؟ فيجيب عن ذلك بقوله: ان الاسماع داخلة في حكم الختم، ومعنى ذلك أنّ الختم يشمل القلوب والأسماع جميعاً؛ وليس القلوب وحدها ويستدل عليه بقوله في مواضع أخرى ورد فيها السمع معمولا للختم، كقوله

---

(١) البقرة: ٧.

(٢) الفنقلة: كلمة منحوتة من عبارة: ان قلت كذا .. قلت كذا.

(٣) وبقية الاصول هي التوحيد — وهو الاصل الاول — ثم الوعد والوعيد والمنزلة بين المنزلتين والامر بالمعروف والنهي عن المنكر. انظر القاضي: شرح الاصول الخمسة ص ١٤٩ وما بعدها.

تعالى : «وختم على قلبه وسمعه وجعل على بصره غشاوة»(١) . ويضيف إلى ذلك دليلا آخر يتعلق بالاداء والقراءة ،وهو وقف القراء على«سمعهم» دون«قلوبهم» (٢)، ومعنى ذلك أن الاسماع معمولة للختم .

مفاتيح الغيب للرازي :

اذا انتقلنا إلى فخر الرازي (ت ٦٠٦هـ) ، ألفيناه في تفسيره الكبير مفاتيح الغيب يعني عناية فائقة بالمسائل الكلامية والعقلية ، ويولي اهتماماً واضحاً للمسائل العقلية في استطراد وتقصّ يدعم به حجته ويؤكد فيه رأيه ، واكثرما ورد من ذلك فيما سماه«فوائد». وهو اذ يعني بالعقل والرأى عناية أثارت حول تفسيره المشكلات (٣) ، فانه يعنى أيضاً بالنقل وخاصة الاحتكام إلى النص القرآني والاستشهاد به .

من ذلك أنه حين شرع في تفسير آية الفاتحة مالك يوم الدين (٤) بَيَنَّ أن المراد مالك يوم البعث والجزاء ، ثم فصّل ذلك بقوله :«وتقريره : أنه لابد من الفرق بين المحسن والمسيء ، والمطيع والعاصي ، والموافق والمخالف ، وذلك لايظهر إلا في يوم الجزاء . واستدل عليه بأكثر من آية فقال : كما قال تعالى: ليجزي الذين أساؤا بما عملوا ويجزي الذين احسنوا بالحسنى»(٥) ، وقال : «أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الارض أم نجعل المتقين كالفُجّار »،(٦) وقال :« ان الساعة آتية أكاد أخفيها لتجزي كلّ نفس بما تسعى »(٧) .

---

(١) الجاثية : ٢٣ .

(٢) الزمخشرى : الكشاف ١٢٥/١ .

(٣) حتى قيل فيه كل شيء الا التفسير . انظر التفسير والمفسرون للذهبي .

(٤) الفاتحة : ٤

(٥) النجم : ٣٢ .

(٦) سورة ص : ٢٨ .

(٧) الرازى : التفسير الكبير ٢٢٦/١ والاية من سورة طه : ١٥ .

وينتقل الرازي بعد بيان هذه الفائدة العقيدية المستقاة من قوله تعالى : « مالك يوم الدين » ، إلى فائدة أخرى متعلقة بنفس الآية ؛ وهي أن مَن سلط الظالم على المظلوم دون أن ينتقم منه ، فذلك إما عاجز أو جاهل أو راض بذلك الظلم. وهذه الصفات الثلاث محال على الله ، فوجب أن ينتقم للمظلومين ، وحيث أن هذا قد لايحصل في دار الدنيا ، فقد وجب أن يحصل في الدار الآخرة ، وذلك هو المراد بقوله « مالك يوم الدين » وبقوله : « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » . (١) .

فجعل هذه الآية الثانية موضحة ومفسرَّة للأولى في حصول الجزاء ووقوعه في الآخرة ، ونراه يلحظ السياق في تفسير قوله تعالى : « غير المغضوب عليهم ولا الضالين » (٢) . وبذلك وظف الرازي أسلوب التفسير بالقرآن في استنباط فوائده الجمة من سورة الفاتحة التي صرح في أول تفسيره لها أنها يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة ؛ مما جعل كثيراً من الناس تستغرب ذلك وتراه مبالغة منه ؛ ولهذا عرّض بهم ونسبهم إلى الحسد والجهل(٣).

أنوار التنزيل للبيضاوي :

اذا انتقلنا إلى ناصر الدين عبد الله بن عمر البيضاوي (ت ٦٨٥هـ) ، ألفيناه في تفسيره : أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، يعنى بالمسائل العقيدية والكلامية التي عرَض لها مفسرو المعتزلة وأهل السنة عند بيانهم معاني القرآن ، ونجده يعنى بالتفسير بالقرآن في ايراده أدلة الفريقين ، التي يعرضها غالباً بأمانة وموضوعية. فآية البقرة التي وردت في مدح المؤمنين وَصفَتهم بجملة صفات ، منها انهم ينفقون مما رزقهم الله ، وذلك بقوله تعالى : « ومما رزقناهم ينفقون » (٤) ؛ غير أن متكلمي المفسرين من الفريقين اختلفوا في ماهية الرزق ، أيكون حلالاً

---

(١) الرازى : التفسير الكبير ٢٣٦/١ .

(٢) الفاتحة : ٧ .

(٣) الرازى : التفسير الكبير ٤/١.

(٤) البقرة : ٣ .

فحسب ، أم يجوز أن يكون حراماً ويسمى رزقاً ؟! والبيضاوي يقف هنا موقف الباحث الموضوعي ، فيعرض أدلة الفريقين من القرآن مع مايعرضه من الأدلة الأخرى فيقول : ان المعتزلة لما لم تُجوّز على الله أن يمكّن العبد من الحرام ؛ لأنه منع من الانتفاع به وأمر بالزجر عنه ، قالوا : الحرام ليس برزق، واحتجوا لذلك باسناد الله الرزق في هذه الآية إلى نفسه اشعاراً انهم ينفقون الحلال المطلق ؛ لان انفاق الحرام لايوجب المدح ، والآية مشعرة بمدح المؤمنين بلا خلاف . وأيضاً فإنه تعالى ذم المشركين على تحريم مارزقهم الله تعالى بقوله «قل أرأيتم ماأنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالا »(١). ثم ينتقل بعد ذلك إلى أدلة أصحابه من أهل السنة ، فبين أنهم ذهبوا إلى أن اسناد الرزق إلى الله في الآية للتعظيم والتحريض على الانفاق ، وتمسكوا لشمول الرزق للحلال والحرام بقوله عزّ وجل : « وما من دابة في الارض إلا على الله رزقها » (٢) في جملة ماتمسكوا به من أدلة .

وعند هذا العرض يقف البيضاوي دون أن يعمد إلى ترجيح أحد الوجهين على الاخر . ونراه في تفسيره لقوله تعالى : « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة » (٣) ، يذكر انه تعالى اسند الختم اليه كما اسند الطبع في قوله : « طبع الله على قلوبهم » (٤) والاغفال في قوله : ولاتُطعْ « مَن اغفلنا قلبه عن ذكرنا » (٥) والاقساء بقوله : « وجعلنا قلوبهم قاسية » (٦) ، وذلك لأن المخلوقات بأسرها مستندة اليه تعالى واقعة تحت قدرته. ولما كانت هذه هذه الصفات ، من الختم والطبع والاغفال والقسوة ، مسببة عما اقترفوه ، اسندت اليه تعالى . ثم يستدل لما ذهب اليه من أن هذه الصفات مسببة عن

---

(١) هود : ٦.

(٢) الدامغاني : اصلاح الوجوه والنظائر ، بتحقيق عبد العزيز سيد الاهل دار العلم للملايين بيروت ط ١ ، ١٩٧٠.

(٣) البقرة : ٧.

(٤) النحل : ١٠٨ ، محمد : ١٦ .

(٥) الكهف : ٢٨.

(٦) المائدة : ١٣ .

اعمالهم الردئية بما ورد في قوله عز وجل : « بل طبع الله عليها بكفرهم »(١) وقوله : « ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم » (٢) . ففسر القرآن بالقرآن

تفسير الجلالين :

في القرن التاسع صنف الجلالان : محمد بن أحمد المحلي (ت ٨٦٤ ﻫ) وعبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي (ت ٩١١ ﻫ) تفسيرهما الشهير المعروف بـ (التفسير الجلالين) ، وسلكا في تحريره في جملة ماسلكا — (٣) تفسير الآى بعضها ببعض ، وان لم يكن ذلك ظاهرا ظهوره في التفاسير والمصنفات القرآنية التي سبقتها ، وذلك لاتسام هذا التفسير بالايجاز . في تفسير قوله تعالى: « فتلقى ادم من ربه كلمات» (٤) يذكر السيوطي ان الله تعالى ألهمَ آدم تلك الكلمات ، ثم بين ماهيتها استنادا إلى آية اخرى وهي : « ربنا ظلمنا أنفسنا » ، الاية (٥) مشيرا إلى ماورد في سورة الاعراف (٦) على لسان آدم وحواء وهو قوله تعالى : «قالا ربنا ظلمنا أنفسنا وان لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » . ففسر القرآن بالقرآن.

وينظر المحلي إلى السياق ويتخذه قرينة على تفصيل ماتقدمه من أجمال ففي تفسير قوله تعالى : «الملك يومئذ لله يحكم بينهم» (٧) يقول : « الملك يومئذ اى يوم القيامة (لله) وحده ... (يحكم بينهم) بين المؤمنين والكافرين بما بيّن : « فالذين امنوا وعملوا الصالحات في جنات النعيم» فضلا من الله « والذين كفروا وكذبوا بآياتنا فاولئك لهم عذاب مهين » شديد بسبب كفرهم»(٨)

---

(١) النساء : ١٥٥ .

(٢) المنافقون : ٣ .

(٣) للاطلاع على منهج الجلالين في التفسير ينظر بحثنا بجزأيه في مجلة اداب الرافدين العدد الخامس والثامن .

(٤) البقرة : ٣٧ .

(٥) تفسير الجلالين ص ١٠

(٦) آية : ٢ .

(٧) الحج : ٥٦

(٨) تفسير الجلالين ص ٣٠٠

ومعنى هذا ان تبيين حال المؤمنين ثم حال الكافرين جاء تفسيرا وتفصيلا للإخبار عن حكم الله بينهم .

وبذا تبين انه على الرغم من عد تفسير الجلالين من التفاسير التي تعني بالرأى والعقل الا أنه لم يعدم – على ايجازه – لمحات هنا وهناك من هذه الظاهرة الاسلوبية الجديرة بالعناية والاعجاب : ظاهرة تفسير القرآن بالقرآن، يرد آية إلى آية او عبارة إلى عبارة او لفظة إلى اخرى ، اما بملحظ السياق او بالنظر إلى الاى في مواضعها المتفرقة من القرآن ، او نحو ذلك من صور ليس محل تفصيلها هنا ، بل نأمل ذلك في بحث اخر يتناولها بالدراسة المبنية على الاستقراء المتكامل الدقيق . ونرجو ان نوفق لهذا البحث في وقت قريب بعد ان تتم رحلة هذا التطور في العصر الحديث ، فندرس تفسير القرآن بالقرآن في هذه الفترة من نهضتنا ليكون عملنا في فصوله الثلاثة ، اسهاما في البحث الجاد المبتكر في تراثنا القرآني الذي يقع التفسير في ذروته ، ويمثل أعلى درجاته .

المصادر والمراجع

١. ابن ابي الحديد : عز الدين ابوحامد بن هبة الله:شرح نهج البلاغة ، بتحقيق أبي الفضل ابراهيم ، دار احياء الكتب العربية ، الطبعة الاولى، القاهرة ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩ م.

٢. البخارى : ابو عبدالله محمد بن اسماعيل : صحيح البخارى ، بشرح ابن حجر العسقلاني ، مطبعة البابي الحلبي — القاهرة ١٣٧٨ هـ = ١٩٥٩م

٣. البغدادى : اسماعيل باشا : هدية العارفين وآثار المصنفين، بالاوفست عن طبعة استانبول سنة ١٩٥١ ، طهران ، الطبعة الثالثة ١٣٨٧ هـ= ١٩٦٧ م .

٤. البيضاوى : ناصر الدين عبدالله بن عمر ،أنوار التنزيل واسرار التأويل، مطبعة مصطفى محمد — القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .

٥. التنوخي : مقاتل بن سليمان : الأشباه والنظائر في القرآن الكريم ، بتحقيق الدكتور عبدالله محمود شحاته ، الهيئة العامة للكتاب — القاهرة ١٣٩٥ هـ =١٩٧٤م .

٦. ابن تيمية : تقي الدين احمد بن عبدالحليم : الاكليل في متشابه التنزيل، ضمن مجموعة الرسائل الكبرى ، مطبعة محمد علي صبيح — القاهرة ١٣٨٥ هـ = ١٩٦٦ م .

٧. ابن تيمية : مقدمة في أصول التفسير ، بتحقيق الدكتور عدنان زرزور ، الطبعة الثانية ، دار القرآن الكريم — الكويت ١٩٧٢ م.

٨. الثورى : أبو عبدالله سفيان بن سعيد بن مسروق ، تفسير سفيان الثورى بتصحيح امتياز علي عرشي ، مكتبة رضاء ، الهند ١٣٨٥ هـ= ١٩٦٥م .

٩. ابن الجزرى : ابو الخير محمد بن محمد : تقريب النشر في القراءات العشر ، بتحقيق ابراهيم عطوة الطبعة الاولى، مطبعة البابي الحلبي ، القاهرة ١٣٨١ هـ = ١٩٦١ م .

١٠. الجلالان : محمد بن احمدالمحلي ، وعبد الرحمن بن ابي بكر السيوطي، تفسير الجلالين دار الشعب — القاهرة ١٩٧٠ .

١١. الجويني : الدكتور مصطفى الصاوى : مناهج في التفسير ، شركة الاسكندرية للطباعة الاسكندرية ١٩٧١ م ، دار الشعب ١٩٧٥ .

١٢. الخولي : أمين : مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والادب، الطبعة الاولى ، دار المعرفة — القاهرة ١٩٦١.

١٣. الدامغاني : الحسين بن محمد : إصلاح الوجوه والنظائر ، بتحقيق عبد العزيز سيد الاهلي ، الطبعة الاولى ، دار العلم للملايين — بيروت ١٩٧٠ .

١٤. الرازى : فخر الدين محمد بن عمر ، التفسير الكبير ، المطبعة البهية مصر (لم تذكر سنة الطبع).

١٥ . الرضي : محمد بن الحسين الموسوى : حقائق التأويل في متشابه التنزيل، دار التراث الاسلامي — بيروت (لم تذكر سنة الطبع) .

١٦. الراغب : أبو القاسم الحسين بن محمد : مفردات الفاظ القرآن ، بتحقيق نديم مرعشلي ، مطبعة التقدم العربي — بيروت ١٣٩٢ هـ = ١٩٧٢م .

١٧. الرماني : أبو الحسن علي بن عيسى : النكت في اعجاز القرآن ، ضمن ثلاث سائل في اعجاز القرآن،بتحقيق الدكتور احمد محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام ، الطبعة الثانية مطابع دار المعارف — مصر ١٣٨٧ هـ .

١٨. الزجاج : ابو اسحق ابراهيم بن السرى ، معاني القرآن واعرابه، بتحقيق الدكتور عبد الجليل عبده شلبي ، الهيئة العامة لشؤون المطابع الاميرية القاهرة ١٩٧٣م .

١٩.الزركشي : بدر الدين محمد بن عبد الله : البرهان في علوم القرآن ، بتحقيق ابي الفضل ابراهيم ، الطبعة الاولى ، دار احياء الكتب العربية القاهرة ١٣٧٦ هـ .

٢٠.الزمخشري : جار الله محمود بن عمر : الكشاف عن حقائق التنزيل ، مطبعة البابي القاهرة ١٣٦٧ هـ = ١٩٤٨ م .

٢١.الزيدي : الدكتور كاصد ياسر : منهج الطوسي في تفسير القرآن الكريم ، رسالة دكتوراه ، مطبوعة بالرونيو – القاهرة ١٩٧٦ م .

٢٢.الطبرسي : ابو علي الفضل بن الحسن ، مجمع البيان في تفسير القرآن ، الطبعة الثانية ، دار الفكر– بيروت ١٣٨٠ هـ =١٩٦٦ م .

٢٣.الطبري : ابو جعفر محمد بن جرير : جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، بتحقيق أحمد محمد شاكر ومحمود محمد شاكر ، وطبعة البابي الحلبي الثانية سنة ١٩٥٤ م .

٢٤.الطوسي : أبو جعفر محمد بن الحسن، البيان في تفسير القرآن ، المطبعة العلمية – النجف ١٣٧٦ هـ = ١٩٥٧ م .

٢٥.ابن عطية : عبد الحق بن غالب : مقدمة (المحرر الوجيز) ضمن كتاب : مقدمتان في علوم القرآن ، نشر آرشر جفري ، الطبعة الثانية ، مطبعة الصاوي – القاهرة ١٩٧٢ م .

٢٦.عبد الله محمود شحاته (الدكتور) : التفسير والقرآن – الهيئة المصرية. العامة للكتاب – القاهرة ١٩٧٣ .

٢٧.العياشي : ابو النضر محمد بن مسعود السمرقندي تفسير العياشي ، بتصحيح وتعليق هاشم الرسولي المحلاتي ، المطبعة العلمية – قم (لم تذكر سنة الطبع) .

٢٨.الفرّاء : أبو زكريا يحيى بن زياد : معاني القرآن ، بتحقيق محمد علي النجار وآخرين ، الطبعة الاولى ، مطبعة دار الكتب – مصر ١٣٧٤ هـ= ١٩٥٥ م .

٢٩.القرطبي : أبو عبد الله محمد بن أحمد الانصاري ، الطبعة الثالثة ، دار الكاتب العربي القاهرة ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م .

٣٠.أبن قتيبة : أبو محمد عبد الله بن مسلم : تأويل مشكل القرآن ،بتحقيق السيد أحمد صقر ، الطبعة الثانية ، دار التراث بالقاهرة ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣م
٣١. كولد تسهر : مذاهب التفسير الاسلامي ، ترجمة الدكتور عبد الحليم النجار، مطبعة السنة المحمدية – القاهرة ١٣٧٤هـ=١٩٥٥ م.
٣٢.المبرد : محمد بن يزيد : مااتفق لفظه واختلف معناه ، باعتناء عبد العزيز الميمني الراجكوتي المطبعة السلفية ، القاهرة – ١٣٥٠ هـ.
٣٣.المحاسبي : أبو عبد الله الحارث بن اسد ، العقل وفهم القرآن .
٣٤.محمد عبده : شرح نهج البلاغة ، بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، مطبعة الاستقامة – القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .
٣٥.محمد فؤاد عبد الباقي : المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم، مطابع الشعب – القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .
٣٦.محمد غنيمي هلال (الدكتور) : الادب المقارن ، الطبعة الثالثة – القاهرة ١٩٦٢
٣٧.المرتضى : علي بن الحسين الموسوي : امالي المرتضى: «الغرر والدرر»، بتحقيق أبي الفضل ، مطبعة الحلبي – القاهرة ١٩٥٤.
٣٨.المكي: مجاهد بن جبر تفسير مجاهد ، بتحقيق عبد الرحمن الطاهر بن محمد ، مطابع الدوحة الحديثة – قطر (لم تذكر سنة الطبع) .
٣٩.الهمداني : القاضي عبد الجبار : شرح الاصول الخمسة ، بتحقيق الدكتور عبد الكريم عثمان ، الطبعة الاولى ، مطبعة الاستقلال – القاهرة ١٣٨٤ هـ= ١٩٦٥ م.
٤٠.الهمداني : فضل الاعتزال وطبقات المعتزلة ، ضمن كتاب بهذا العنوان فيه ثلاث رسائل ، بتحقيق فؤاد السيد ، الدار التونسية للنشر – تونس ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٤ م .
٤١.الهمداني : متشابه القرآن ، بتحقيق الدكتور عدنان زرزور ، مطبعة دار النصر – القاهرة (لم تذكر سنة الطبع) .